وزارة المعارف العمومية

المجمل
في تاريخ الأدب العربي

مقرر السنة الثالثة بالمدارس الثانوية

وضعته لجنة ألفتها وزارة المعارف من :
طه حسين ، أحمد الاسكندرى ، أحمد أمين ، على الجارم ،
عبد العزيز البشرى ، أحمد ضيف

المطبعة الأميرية بالقاهرة
سنة ١٩٣٠

وزارة المعارف العمومية



مقرر السنة الثالثة بالمدارس الثانوية

وضعته لجنة ألفتها وزارة المعارف من :

طه حسين ، أحمد الاسكندرى ، أحمد أمين ، على الجارم ،

عبد العزيز البشرى ، أحمد ضيف

المطبعة الأميرية بالقاهرة

سنة ١٩٣٠

فهرس الكتاب

العصر الجاهلي : صفحة

صفحة

مراكز الثقافة العلمية فى هذا العصر :

التدوين والتأليف :

صفحة

العصر العباسي الثاني :

الأدب العربي في الأندلس :

صفحة

حال اللغة العربية فى العصر التركى :

مظاهر الأدب فى هذا العصر :

التأليف والمؤلفون :

العصر العثمانى :

صفحة

النهضة الحديثة من الحملة الفرنسية الى الآن :

مظاهر النهضة الحديثة فى العلم والأدب :

نهضة الأدب فى أيامنا :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ومن والاه .

أما بعد : فقد أرادت وزارة المعارف أن تعيد النظر فى مناهج الأدب العربى للمدارس الثانوية فعهدت الينا فى ذلك ، وفى أن نضع كتبا تلائم المناهج الجديدة ، فنهضنا بهذا الأمر ، ورفعنا الى الوزارة مناهج أقرتها ، ونحن نقدّم الآن هذا الكتاب شاملا لمنهج السنة الثالثة ، وقد توخينا فيه كما توخينا فى المنهج الحرص على أن يحيط الطالب بما لا ينبغى أن يجهله الشاب المثقف ، من تاريخ لغته وآدابها ، وعمدنا الى السهولة فى التعبير ، والتبسط فى البيان ، لأننا رأينا أن الإيجاز فى هذا العلم لا يلائم عقل الشاب الذى لم تكن له فى دراسة الأدب سابقة ، على أنه كثيرا ما يغرى بالاستظهار ، ويصرف عن التدبر والفهم ، واذا كان للتعليم فى مصر آفة تفسده وتحول دون الانتفاع به فانما هى الاعتماد على الذاكرة ، والانصراف عن النظر والتفكير ، فان رأى المعلمون والطلاب فى هذا الكتاب طولا فلا يروعنّهم ذلك فانه من اليسر والوضوح بحيث يستطيع الطالب أن ينعم النظر فيه فاذا هو ملم بما قصدنا اليه إلماما يكفى لتثقيفه وتأديبه . ومع أننا نعلم أن الحقائق الأدبية التى أثبتناها فى هذا الكتاب لا تدرك حق الادراك الا إذا عززت بشواهد كثيرة من الأدب العربى شعرا ونثرا قد اقتصدنا فى إيراد هذه الشواهد اقتصادا شديدا لأننا نرى أن يوضع لها كتاب خاص يساير هذا الكتاب ، وقد وضعناه ونرجو أن يكون بين أيدى الطلاب فى وقت قريب .

واذا وفقنا الله سبحانه فسيتلو هذا المؤلف "المجمل" كتاب "مفصل" من جزأين يلائم منهج السنتين الرابعة والخامسة ، وآخر يجمع من متخير القول ومصطفى الكلام ما يمثل حياة الأدب العربى فى مختلف العصور ، ويطبع الملكات على صحيح البيان ، ونحن نرجو أن يكون الله عز شأنه قد وفقنا فى هذا الكتاب وأن يوفقنا فيما سيتلوه من الكتب الى أن نحبب الأدب العربى الى الشباب ونزينه فى قلوبهم فان رقىّ الأدب رهين بحب الناس له واقبالهم عليه .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

العصر الجاهلى

الأمة العربيــة ، موطنها ، جنسها ، لغتها ، حياتها السياسية، والاجتماعية، والعقلية

جزيرة العرب

فى الجنوب الغربى من آسيا اقليم واسع الأرجاء ، تبلغ مساحته ربع أوربا تقريبا ، تساهل الأقدمون فسمّوه "جزيرة العرب" مع أن المـاء لم يُحط به من جميع جهاته .

يتألف غربى هذا الاقليم من جزأين شهيرين : الحجاز شمالا ، واليمن جنوبا ، أما الحجاز فقطر فقير ، قلت مياهه ، وأجدبت أرضه ، واشتدت حرارته ، يعتمد أهله على الأودية القليلة ، والآبار الشحيحة ، لم يستطيعوا أن ينتفعوا كثيرا بالمـاء الذى ينزل من السماء ، لأنهم لم يبلغوا من الفنون مبلغا يمكنهم من اختزانه واستخدامه عند الحاجة اليه ، وأشهر مدنه مكة والمدينة والطائف .

وأما اليمن فقد اشتهر قديما بالغنى والخصب والحضارة ، كثرت أمطاره وسيوله وعَرَف أهله ، بما أوتوا من فن ، أن ينتفعوا بها ، فأنشئوا السدود يسيطرون بها على المـاء جمعا وتصريفا ، وأشهر مدنه صَنْعاءُ ونجْرَانُ وعَدَن .

وهذان القطران ، أعنى الحجاز واليمن ، أبعد البلاد أثرا فى حياة العرب وفى تاريخهم السياسى والاقتصادى والأدبى .

واذا وقع نظرك على (مصور) جزيرة العرب فأبين ما ترى فيها وأبعده مدى صحراؤها فى داخلها ، وهى متنوعة فى طبيعتها ، فسهلة لينة حينا ، وصُلبة انتثرت فيها الحصباء حينا ، ومفروشة بحجارة سوداء ، تسمى الحِرار ، حينا ، وهذه الصحراء فى جملتها قفر ، تسطع الشمس عليها فى الحر فتلفح أرضها وأهلها ، ويعتمد ساكنوها على ما تنبته بعض البقاع عقب المطر فترعاه إبلهم وشياههم ، وهم يأكلون من لحومها ، ويشربون من ألبانها ، ويلبسون من أصوافها وأوبارها .

نسب سكانها

اعتاد النسابون أن يقسموا الشعوب إلى أجناس ويسموا كل جنس باسم خاص يجمعها ، فاعتادوا أن يسموا الجنس الذى منه العرب الجنس السامىّ ، نسبة الى سام بن نوح عليه السلام ، وعدوا من هذا الجنس البابليين والأشوريين والعبرانيين والفينيقيين والاراميين والحبشيين ، ولكن هذا كله لا يزال بموضع خلاف بين علماء الأنساب ، كما اختلفوا فى أن أصل الجنس السامى نشأ فى آسيا (فى جزيرة العرب أو أرمينية أو على شاطئ الفرات) أو نشأ فى إفرِيقيةَ ثم نزح منها الى آسيا .

من قديم وهؤلاء العرب ينقسمون الى عرب الشمال (الحجازيين) وعرب الجنوب (اليمانين) ويذكر النسابون أن عرب الشمال يرجعون فى نسبهم الى اسماعيل ابن ابراهيم عليهما السلام ، ويُسَمَّوْن النزاريين نِسبة الى نِزار من نسل اسماعيل . وعرب الجنوب من نسل قَحْطَان ، ويسمون اليمانين أو القحطانيين ، وبين هذين النوعين من العرب فروق ترجع فى جملتها الى أن عرب الحجاز تغلب عليهم عيشة البداوة ، وعرب اليمن يعيشون عيشة حضارة .

ولسنا نقصد أن عرب الشمال كانوا يسكنون الحجاز فحسب ، وعرب الجنوب كانوا يسكنون اليمن ولا يتعدونها ، بل نعنى أن كلا من الحجازيين واليمانيين عنصر يختلف فى نسبه ودمه عن العنصر الاخر ، أو على الأقل فى زعمهم . ولكن كانت بين العنصرين صلات ، ورحل قوم من كل فريق الى موطن الاخر لأسباب يطول ذكرها ، فكان فى الحجاز عرب من اليمن ، وكان فى اليمن عرب من الحجاز .

وكل من اليمانين والحجازيين ينقسمون الى قبائل :

فاليمانون يتفرعون الى فرعين كبيرين : شعب كَهْلان ؛ وشعب حِمْيَر .

فشعب كهلان أشهر قبائله طَيِّئ وهَمْدان ولَخْم وكِنْدَة .

وشعب حمير أشهر قبائله قُضاعة وتَنُوخ وكلب .

والحجازيون كذلك ينقسمون الى قسمين كبيرين : ربيعة ؛ ومُضَر .

فشعب ربيعة أشهر قبائله : بكر ؛ وتَغلِب .

وشعب مضر أشهر قبائله قيس وتميم وهُذَيل وكِنانة وقُرَيش وكل قبيلة من هذه القبائل تنقسم الى بطون وأفخاذ يطول عدها ، وكان بين هذه القبائل ، حتى ما كان منها من أصل واحد ، من الحروب والمنازعات والتهاجى ما ملئت به كتب التاريخ والأدب .

اللغة العربية

واذ قد ذكرنا قبلُ أن العرب والعبرانيين ومن اليهم يُعَدُّون ساميِّين فلغاتهم التى يتكلمون بها تسمى لغات سامية ، فاللغة العربية احدى اللغات السامية وقد عُرِفت ، على النحو الذى نعلمه ، حول آخر القرن الخامس للميلاد .

ويذهب الباحثون فى علم المقارنة بين اللغات الى أن اللغة العربية من أقرب اللغات الى اللغة الأصلية التى تفرعت منها اللغات السامية ، نظرا لاحتباس العرب

فى بلادهم وقلة النازحين منها والوافدين اليها ، وضعف العلاقة بين أهلها وغيرهم من الأمم .

وكما انقسم العرب الى حجازيين ويمانين انقسمت لغتهم الى مُضَرِيّة، وحِميرية وكانت هناك فروق بين اللغتين عظيمة — فى الألفاظ اللغوية ؛ وفى الصِيَغ ، وفى التراكيب وفى اللهجات . ولكن حدث قبيل الاسلام أن أخذت لغة الحجاز ، وبعبارة أدق لغة قريش ، تسود . وما زالت كذلك حتى ظفِرت باللغة الحميرية ، وحتى صارت لغة قريش هى لغة جزيرة العرب جميعها ، وقد دعا الى هذه الظاهرة أسباب سياسية ودينية واقتصادية ستأتى الاشارة اليها بعد .

تاريخ الأمة العربية

ليس تاريخ الأمة العربية قبل الاسلام معروفا محققا لأن أكثر الأمة كانوا أهل بَدْو ، لم تُمكّنهم بداوتُهم من أن يدوّنوا تاريخهم أو ينقشوا حوادثهم ، حتى إنّ الذين تحضّروا منهم كاليمانين والحميريين لم يعثر الباحثون إلا على القليل من نقوشهم وآثارهم ، وانما يعتمد الذين يؤرخون العرب قبل الاسلام على هذا القليل من الآثار ، وعلى ما كتبه عنهم أهل عصرهم من الأمم الأخرى كاليونان والرومان والمصريين والعبريين والحبشيين ، وعلى ما يستنبطون من بعض نصوص أدبية . ولنقصِر الآن كلامنا على حالة العرب قبيل الاسلام ، فان اللغة العربية التى نُعنى بآدابها وتاريخها انما عرفت فى هذا العصر .

هذا العصر سماه القرآن الكريم "الجاهلية" ونسبنا اليه فقلنا العصر الجاهلى والأدب الجاهلى ، وقد يكون اشتقاق هذا الاسم من الجهل وهو ضد الحلم لما كان يغلب فيه من السفه والفخر بالأنساب والإمعان فى سفك الدماء والعصبية الحادّة ونحو ذلك مما كرهه الاسلام ونفّر منه . وقد نُقِل الينا كثير مما يدل على حالة هذا العصر الاجتماعية والسياسية من شعر وأمثال وقصص ، ولكنها كلها لم تدوّن فى الكتب الا فى القرن الثانى والثالث للهجرة ، فكان بعضها مثارا لنقد الناقدين ، وأخذ

العلماء والأدباء من قديم يمحصونها ويصححون بعضا ويكذبون بعضا ، ولكن بجانب ذلك ورد كثير من آيات القرآن الكريم وصحيح الحديث يروى لنا الشيء الكثير عن هذه الحياة الجاهلية ويكشف لنا من غموضها .

يدلنا ما صح من تاريخهم على أنه قد أنشئ على تخوم جزيرة العرب الشمالية إمارتان كبيرتان : إمارة الحيرة فى العراق بجوار الفرس ،و إمارة الغساسنة فى الشام بجوار الرومان ، وكان يحكم هاتين الإمارتين أمراء من العرب يتبعون فى نظامهم نظام الدول المجاورة لهم ، فامارة الحيرة تتبع فى كثير من شئونها نظام الفرس ، و إمارة الغساسنة تتبع فى كثير من شئونها نظام الرومان .

وكان سكان هاتين الإمارتين وسكان اليمن فى الجنوب يعيشون عيشة حضارة ، يزرعون و يصنعون ، وكثير من سادتهم مُتْرَفون "لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فى مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتانِ عن يَمِينٍ وشِمَالٍ كُلُوا مِن رِزْقِ رَبِّكُمْ ، وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وربٌّ غَفُور" وقد رُوِى لنا الكثير عن ترف أمراء الغساسنة فى الشام ، وعن حضارة الحيريين وما كان لهم من خَوَرْنَق وسَدِير .

أما داخل الجزيرة والحجاز ، اذا أنت استثنيت بعض سكان المدن المشهورة كمكة و يثرب والطائف — فكانوا أهل بدو يحتقرون الزراعة والصناعة والتجارة ، و يعتمدون فى معيشتهم على الابل ، و يوغلون بها فى الصحراء يتطلبون منابت العُشْب ومراعى الشجر وموارد الماء ، و يأكلون مما تخرجه الأنعام .

حياة العرب الاجتماعية

كان سكان الجزيرة يعيشون عيشة قبائل ، فالقبيلة هى الوحدة التى يبنى عليها نظام حياتهم ، وأفراد القبيلة ينتسبون الى أب واحد ، وقلَّ أن ينتسب اليها من لم يساهمها فى نسبها الا عن طريق الحِلف أو الوَلاء [١] .

(١) كان الأسير من قبيلة أخرى اذا لم يستطع فداء نفسه يَسِمونه بِسِمَة القبيلة التى أسرته ، ويسمى حليفا لها . وكانوا يجيزون استرقاق الأسرى ، فاذا أعتق الأسير ظلت هناك صلة بين المعتِق والمعتَق وهذه الصلة تسمى الولاء .

تسود أفرادَ القبيلة فكرةُ العصبيّة ، فكل فرد يتعصب لقبيلتـه ويُعنى بحفظ نسبه ويفتخر به ، ويحنو على من يشاركه فيه ، ويسير على منهج قبيلته ، أصابت أم أخطأت .

وما أنا إلا مِن غَزِيَّة ان غوَت غَوَيتُ وإن ترشُـد غزِيّةُ أرشُدِ

والقبيلة تحميه من العدوان وتطالب بدمه ان جنى أحد عليـه ، ولكل قبيلة رئيس هو سيدها ، وهو مرجع الأفراد فى اقامة العدل بينهم على حسب عرفهم وتقاليدهم .

وعلاقة القبيلة بالقبيلة ، علاقة عِداء ، — غالبا — تُغير عليها وتغنَم من مالها ورجالها ، والأخرى تتربص بها الدوائر لتنتقم منها .

يغـار علينـا واترين فيُشـتفى بنـا إن أُصِبنا أو نُغير على وِترِ[1]
قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا فمـا ينقضى الا ونحن على شطر

من هـذا تعلم أن العرب فى الجاهليـة ، عدا من ذكرنا قبلُ ، لم تكن لهم حكومة تسيطر عليهـم جميعا وتُشرف على شـئونهم ، لأن شرط قيـام الحكومة انتساب الأفراد الى المواطن لا إلى القبائل وانحـلالُ العصبيات وقيـام الجامعة الوطنية أو الدينية مقام العصبية القَبَلِّية ، وهى أمور لم تتوافر للعرب فى جاهليتها .

كانت القبيلة تنقسم عندهم الى أُسَر ، ونظام الأسرة كان فى هـذا الطور هو المعروف عند علمـاء الاجتماع : بطور السلطة الأبوية ، اذ كان الأب فيها واسع السلطان نافذ الكلمـة على كل أفراد الأسرة ، يتصرف فى مالهم وفى شـئونهم ، ويقطع فى الأمور دونهم ، وهو المرجع الأعلى لهم جميعا ، وكان بعض هذه الأسر يمتاز بصفات وأعمال تجعل له الرياسة والشرف كبيت هاشم ، وبيت أُمية فى قريش وبيت زُرارة فى تميم وهكذا .

---

(١) الواتر القاتل ، والموتور الذى قتل له قتيل فلم يأخذ بدمه ، وواترين حال من الضمير فى علينا .

أخلاقهم

رأيت أن أكثر العرب أهل بدو ، ولأهل البدو صفات خاصة يتمدحون بها ويكثرون فى شعرهم من ذكرها والتغنى بها ، ولعل من خير ما يمثل هذه الصفات ما جاء فى قول تأبط شرًّا . أحد الشعراء الجاهليين(١) اذ يمدح ابن عم له بأنه قليل الشكوى من الهمّ ينزل به ، بعيد الهمة واسع الأمل ، يسلك له شتّى المسالك ، حليف الصحراء ، يُصبح فى مفازة ويُمسى فى أخرى ، يسير وحيدا لا يهاب ، ويركب المهالك ولا يخشى مواجهتها ، عدّاء يسبق الريح السريعة ، ان نام فانما تنام عينه ولا ينام قلبه ، وان صحا كانت عينه دَيْدَبان قلبه ، وله سيف صارم ان أصاب به قِرنا استقبلته المنايا متهلّلة ، لا يخشى الوحدة بل يأنس بها ، ويعرف مسالك الصحراء فلا يضل فى سيره كما لا تضل الشمس ، وهذه صفات كما ترى هى المثل الأعلى للبدوىّ لا للحضرى .

قد تمدّحوا بالمروءة وأكثروا من ذكرها ، وهو لفظ يجمع قانون الشرف ، عماده الشجاعة والكرم والوفاء ، وأكثر ما تتجلى فيه الشجاعة عندهم النزال والقتال والدفاع عن الأهل والقبيلة ونَجْدَة المستَصْرِخ ، وأكثر ما يتجلى فيه الكرم إيقاد النيران ونحر الجزور واضافة اللاجئ .

---

(١) قليل التشكّى للهم يصيبه ⁂ كثيرُ الهوى شتَّى النَّوى والمسالكِ
يظل بمَوْمَاةٍ ويُمسى بغيرها ⁂ جَحِيشًا ويَعْرَوْرِى ظُهورَ المهالكِ
ويسبق وفدَ الريح من حيث يَنْتَحِى ⁂ بمُنْخَرِقٍ من شدّه المُتَدارِكِ
اذا حاص عينيه كرى النوم لم يزل ⁂ له كالئٌ من قلب شَيْحَانَ فاتكِ
ويجعل عينيه رَبِيئَةَ قلبه ⁂ الى سَلَّةٍ من حدّ أخلقَ صائكِ
اذا هزّه فى عَظْم قِرْنٍ تَهَلَّلَتْ ⁂ نواجذُ أفواه المنايا الضواحكِ
يرى الوحشةَ الأُنسَ الأنيسَ ويهتدى ⁂ بحيث اهتدت أُمُّ النجومِ الشوابكِ

الموماة المفازة التى لا ماء فيها . وجحيشا وحيدا ويعرورى ظهور المهالك يركبها مأخوذ من قولهم اعروريت الفرس اذا ركبته عاريا ليس عليه شىء . وفد الريح أولها والمعنى أنه يسبق الريح لخفته ، والمنخرق السريع ، والمتدارك المتلاحق ، حاص خاط والشيحان الحازم ، والفاتك الذى اذا هم بشىء فعله ربيئة القلب ديدبانه ويريد بالسلة السيف الذى يستل . أم النجوم الشمس .

فأما الشجاعة فيمثلها فى نظرهم قول عمرو بن معد يكرب :

لمّا رأيتُ نساءَنا يَفحَصْنَ بالمَعْزاء شَدّا[1]
وبَدَتْ "لَمِيس" كأنها بَدرُ السماء اذا تبدّى
وبدت محاسنُها التى تَخْفَى وكان الأمرُ جِدّا
نَازَلْتُ كَبْشَهُمُ ولم أرَ مِنْ نِزالِ الكبشِ بُدّا[2]
هم يُنْذِرون دمى وأُنْذِرُ إن لَقِيتُ بأن أشُدّا
كم من أخٍ لىَ صالحٍ بَوَّأتُهُ بيدَىَّ لَحْدَا
ما إنْ جزِعْتُ ولا هَلِعْتُ ولا يَرُدُّ بُكاىَ زَنْدَا
أَلْبَسْتُه أثوابَهُ وخُلِقْتُ يوم خُلِقْتُ جَلْدَا
أُغْنِى غَناءَ الذَّاهِبِينَ أُعَدُّ للأعْداءِ عَدّا
ذهب الذينَ أُحِبُّهمْ وبَقِيتُ مثلَ السيفِ فردَا

وأما الكرم فمن خير ما يمثله فى نظرهم قول عُتْبَة بن بجير

فقالوا غريبٌ طارقٌ طوّحتْ به متونُ الفيافِى والخطوبُ الطَّوائحُ[3]
فقمتُ ولم أَجْثِمْ مكانى ولم تَقُمْ مع النفسِ عِلّاتُ البخيلِ الفواضحُ
وناديتُ شِبلا فاستجاب ورُبّما ضمِنّا قِرى عَشْرٍ لمن لا نصافح[4]
فقام أبو ضيفٍ كريمٌ كأنّهُ وقد جَدَّ من فرط الفكاهة مازحُ[5]
الى جِذْمِ مالٍ قد نَهَكْنا سَوامه وأعراضُنا فيه بواقٍ صحائحُ[6]

(١) المعزاء الأرض الصُّلبة ذاتُ الحجارة ومعنى يفحصن بالمعزاء شدا أى أنهن يؤثرن فى الأرض الصلبة لشدة عدوهنّ .

(٢) كبش القبيلة رئيسها .

(٣) الخطوب الطوائح أى المصائب المهلكة ، وطوحت به حملته على ركوب المهالك .

(٤) شبل اسم ابنه وقرى عشر أى ضيافة عشر ليال لمن ليس بيننا و بينه مصادقة توجب مصافحته .

(٥) أبو ضيف يريد نفسه .

(٦) الى جذم متعلق بقام فى البيت قبله و يريد بجذم المال أصل المال وهو النوق التى قد نهكها ماعوّدها من النحر .

جعلناه دون الذمِّ حتى كأنَّه إذا عُدَّ مالُ المكثِرينَ المنائحُ[1]

لنا حمدُ أرباب المِئِينَ ولا يُرَى الى بيتنا مالٌ مع الليل رائحُ[2]

قد أحبوا كثيرا وشربوا الخمر ولعبوا الميسر وشغفوا بالصيد وطرِبوا للغناء وتاقوا الى السَّمَر ، وكان هذا كله مادة لشعرهم وأدبهم .

دينهم

كان للعرب فى الجاهلية دين ولكنه دين ضعيف ، لا يخلصون له ولا يصل الى أعماق نفوسهم ، وحسبنا دليلا على ذلك أننا ننظر فيما بين أيدينا من شعرهم فنرى فيه الصيد كثيرا ، والخمر والنساء والميسر كثيرا ، والفخر والهجاء ووصف القتال كثيرا ، ولكن قل أن نرى فيه شرحا لعاطفة دينية ، وقل أن نرى فيه ذكر الله وتمجيده ، وقل أن نرى فيه وصفا لما كانوا يعبدون .

انتشرت اليهودية والنصرانية فى بعض بقاع جزيرة العرب ، فقد كان فيها مستعمرات يهودية من أشهرها يثرب وهى التى سميت بعدُ " بالمدينة " وكانت اليهودية فيها آمنة مطمئنة ، كذلك انتشرت اليهودية فى اليمن فى أوائل القرن السادس للميلاد ، ولكنها كانت فى نزاع مستمرٍّ مع النصرانية .

وانتشرت النصرانية فى مَنَاذِرةِ الحيرة ، وفى غساسنة الشام وسائر قبائله ، وزاحمت اليهودية فى اليمن ، وكان أشهر مراكز النصرانية فى اليمن مدينة نَجْرَان ، وكان القسيسون والرهبان يَرِدون أسواق العرب يعظون ويبشرون ، ويذكرون البعث والحساب والجنة والنار ، واشتهر من شعرائهم وخطبائهم عَدِيُّ بن زيد وقُسُّ بن ساعدة ، ولكن اليهودية والنصرانية كانتا قليلتين اذا قيستا بالدين السائد فى الجزيرة وهو الوثنية ، فقد عبد العرب الأصنام ، وعظموا الأوثان ، ونصبوها فى الكعبة ، وقرَّبوا لها القرابين ، وكان من أشهر هذه الأصنام بنات الله الثلاث ، فى زعمهم ، وهى اللات والعُزَّى ومَنَاة ، وكان تقديسها يكاد يعم قبائل العرب وان كان ثَمَّ أصنام أخرى خاصة ببعض القبائل .

(١) المنائح جمع منيحة وهى الناقة أو الشاة تدفع الى الجار لينتفع بلبنها مادام بها لبن .

(٢) يقول ان مالنا قليل فأبلنا باركة بفناء الدار انتظارا لضيف وهى ليست كثيرة حتى تصير سارحة ورائحة ومع ذلك لنا من الحمد والثناء مثل ما للكثرين ، أصحاب المئين .

ثقافتهم

كانت المدن على التخوم واليمن متحضرةً بعض تحضُّر ، فالآثار التى عُثِر عليها فى اليمن والحيرة ، وما نقل عن أهلها يدل دلالة صادقة على أنهم كانوا على حظ من الفن والعلم غير قليل . فأهل الحِيرة تسرَّب اليهم شيء من علوم الفرس وآدابهم وعلوم اليونان وآدابهم . والغساسنة فى الشام تسرب اليهم شيء من حضارة الرومان واليونان وآدابهم ، واليمن أمة عريقة فى المدنية كانت تتصل بالفرس وتتصل بالحبشة وتتصل بالرومان . ولها معهم جميعا صلات — تجَاريَّة — أما ما عدا هؤلاء من سكان الجزيرة فكان حظهم من العلم والفن قليلا .

وعلى الجملة كان للعرب معرفة بالأنساب ، ومعرفة بشيء من أخبار الأمم ، ومعرفة بشيء من الطب ولكنّ شيئا من ذلك لم يصل الى درجة يسمى معها علما ، لأنه انما يسمى علما اذا نُظِّم ووضعت له القواعد العامة ودوّن فى الكتب ، وما كان عند العرب من ذلك لم يَعْدُ أن يكون معلومات عملية أولية ، وتجارب ينقصها الاستقراء ، ونظرات عامة يُعْوِزها التعمق والاستقصاء .

أما من الناحية الأدبية فكان لهم شعر وقصص وأمثال وقد طبع كل ذلك بطابَع عقليتهم التى أنتجها تاريخهم و بيئتهم كما سترى .

الأدب الجاهلى

معنى الادب

يكون الكلام جيّدا اذا قرأته أو سمعته فأعجبك وأرضاك، وآنست من نفسك شغفا به وارتياحا اليه ورغبة فى أن تعيد قراءته أو تسمعه مرة أخرى .

وانما يعجبك الكلام ويرضيك لأنه يلائم ذوقك ، ويوافق طبعك، ويصوّر لك الأشياء كما تجدها أنت حين تخلو اليها وتفكر فيها .

وملاءمة الكلام لذوقك ، وموافقته لطبعك ، قد تأتيان من المعانى التى يدل عليها هذا الكلام ، وقد تأتيان من المعانى والألفاظ جميعا .

تكون فى المعانى قوة أو رقة فتعجبك لهذه القوة أو الرقة ، وتكون الألفاظ فخمة جزلة أو عذبة سهلة فتعجبك لهذه الفخامة والجزالة ، أو لهذه العذوبة والسهولة، وتجتمع هذه الصفات كلها أو بعضها فى ألفاظ الكلام ومعانيه فيعجبك الكلام كله ، ويبعث فى نفسك الرضا والاطمئنان ، ومتى كان الكلام جيدا على هذا النحو فهو الذى اعتاد القدماء والمُحْدَثون أن يجمعوه ويقيدوه فى الذاكرة أو فى الكتب ويسموه "أدبا" .

تقسيم الكلام الى شعر ونثر

والأدب ينقسم قبل كل شىء الى قسمين : أحدهما كلام منظوم يعتمد فى لفظه على الوزن والقافية ، وفى معانيه على الخيال ، والعرب تسمى هذا النوع من الكلام "شعرا" والثانى لا يعتمد فى ألفاظه على وزن ولا قافية ، وانما هو مطلق حرّ لا يلتزم صاحبه قيدا من هذه القيود التى تُلتزَم فى الشعر ، ولا يعتمد فى معانيه على الخيال وحده وانما أكثر اعتماده على التفكير الصحيح ، والمنطق المستقيم ، والعرب تسمى هذا النوع من الكلام "نثرا" .

والناس اذا تحدّث بعضهم الى بعض فى حاجاتهم ومصالحهم لم ينظموا الكلام ولم يلتمسوا له القوافى . ولكنهم يرسلونه إرسالا على سجيتهم ، وعلى ما تدعو اليه الحاجة والمصلحة ، فهذا النحو من الكلام الذى نسميه "لغة التخاطب" ليس شعرا . وهو فى الوقت نفسه ليس هو النثر الذى يحفظ ويُروَى ويُتَأَدَّب به ، والذى هو أحد قسمى الأدب ، وانما هو غالبا كلام عادى لم يقصد أصحابه فيه غالبا الى الاجادة ولا الى الجمال الفنى، وانما أرادوا تأدية ما فى نفوسهم من المعانى وتحقيق ما تقتضيه منافعهم من الاغراض .

أسبقية الشعر

فعندنا الآن نوعان من الأدب شعر : ؛ ونثر فنىّ، والشعر أسبق قسمى الأدب الى الظهور ، لأنه كما قدمنا يعتمد فى معانيه على الخيال الحر ، على حين يعتمد النثر الفنى على المنطق والتفكير، والخيال يسبق التفكير فى حياة الأفراد والجماعات ، فالطفل يتخيل قبل أن يفكر، ونحن نجد عند الجماعات الساذجة، التى لم تتحضر بعدُ، كلاما له وزن وقافية دون أن نجد عندها نثرا فنيا صحيحا خليقا بالجمع والتقييد. ولأن الشعر متصل بالغناء فالناس يغنون شعرا قبل أن يغنوا نثرا ، لأنهم يجدون فى الشعر أوزانا تلائم تقطيع الغناء وأنغامه . ومن هنا بدأت الآداب القديمة كلها بالشعر ، ولم يظهر فيها النثر الفنى الا بعد أن أخذت الجماعات بحظ قليل أو كثير من الحضارة والرقى العقلى ، وبعد أن ظهرت فيها الكتابة ، واستطاع الناس أن يتخذوها أداة للعلاقات فيما بينهم .

تاريخ الشعر

والأمة العربية كثيرها من الأمم القديمة الراقية لها أدب ممتع فيه الشعر الرائع والنثر البديع ، وهى كثيرها من الأمم القديمة الراقية قد قالت الشعر وبرعت فيه قبل أن تقول النثر الفنى وتُجيد كتابته .

ولا سبيل الى أن نعرف متى ظهر الشعر فى الأمة العربية ، لأننا نكاد نجهل كل شىء من تاريخ هذه الأمة العربية فى عصورها الأولى .

وقد كان القدماء من علماء العرب يجهلون أولية الشعر العربي وينكرون ما يرويه القُصَّاص من الشعر الذى ينسب الى عاد وثمود وطَسْم وجَدِيس وغيرها من القبائل البائدة، وكانوا يُسلِّمون بأن أكثر الشعر العربى قبل الاسلام قد ضاع ولم يصل اليهم منه الا الشىء القليل ، وكانوا يظنون أن ما صحّ عندهم من شعر العرب فى العصر الجاهلى لا يمكن أن يؤرخ بأكثر من قرن ونصف قرن قبل ظهور الاسلام ، والواقع أن أكثر الشعراء الجاهليين الذين نعرف لهم شعرا صحيحا قد أدركوا عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من مات قبيل البعثة، ومنهم من مات بعدها بقليل دون أن يُسْلِم ، وكثير منهم دخل فى الاسلام وعُمِّر فيه عمرا طويلا أو قصيرا . وربما كان من الحق أن نقول إن أكثر هؤلاء الشعراء عاشوا فى القرن السادس للسيح . ومعروف أن النبي صلى الله عليه وسلم ولد فى آخر الربع الثالث لهذا القرن .

والقدماء من علماء العرب لا يتفقون ، كما قدمنا ، على أولية الشعر ، كما أنهم يختلفون فى الشاعر أو الشعراء الذين حملوا لواء هذه النهضة ، فبعضهم يقول إنه أمرؤ القيس بن حُجرٍ الكندِى ، وبعضهم يقول إنه مهلهِل بن ربيعة التغلبى ، وآخرون يقولون إنه عمرو بن قِميئة البكرِى ، واختلافهم هذا فيه وجه من وجوه الاتفاق هو الذى يحسن أن نحتفظ به ونتخذه وسيلة لتعرُّف أول النهضة الشعرية عند العرب الشماليين ، فهؤلاء الشعراء الثلاثة الذين سميناهم كانت مواطن قبائلهم فى العراق ونجد ، وفى العراق ونجد التقت فى القرن الخامس والسادس للسيح قبائل من عرب الشمال وأخرى من أهل اليمن ، واختلط أولئك وهؤلاء بالفرس ، فليس غريبا أن يكون هذا الاختلاط وما نشأ عنه من جهاد وخصومة وتنافس مصدر نهضة قوية كان الشعر من أقوى مظاهرها ، ومهما يكن من شىء فقد شاع من هذه الناحية وامتد حتى شمِل نجدا والحجاز فكثر فيهما الشعراء، ولم تبق قبيلة من قبائل العرب النازلة فى هذين الأقليمين ولا مدينة من المدن القائمة فيهما الا ولها شاعر أو شعراء يذكرون مآثرها ، ويتغنّون بمفاخرها ، ويناضلون عن حقوقها ، ويذودون عنها حين تحتاج الى الدفاع .

مسلك الشعر العـــربى

وقد سلك الشـعر العربى منذ نهضته هـذه سبيلا خاصة لم يسلكها غيره من الشعر الأجنبى القديم ، فقد بدأ الشعر الأجنبى القديم دائمـا قَصَصِيًّا يتناول حياة الآلهة والأبطال فى قصائد طويلة مسرفة فى الطول ، فيصفها وصفا دقيقا مفصلا ، ويصوّر ما كان بين أولئك الآلهة والأبطال من حرب وسلم ، ومن خوف وأمن ، ومن خصام ووفاق ، وكانت هذه القصائد الطوال شعرا اجتماعيا ، بمعنى أنها كانت مرآة لحياة الجماعات ، لا يكاد يظهر فيها شخص الشاعر المنشئ لها ، وكان أصحابها ورُواتها ينتقلون بها فى المدن يُنشـدونها أمام الجمـاعات فى شىء من الغِناء ، وعلى نحو من التوقيع ، حتى اذا تطورت الحضارة وتغيرت نُظُم الحياة وظهرت شخصية الأفراد وقويت حقوقهم أحس الشـعراء أنفسهم ، وأنشـئوا شـعرا جديدا يصف نفوسهم وعواطفهم وشعورهم وحياتهم ، وهذا الشعر هو الشعر الغنائى ، كان الشـعراء أول الأمر يتغنَّوْن به أمام الجمـاعات معتمدين فيـه على التوقيـع الموسيقى ، وقد يعتمدون مع الموسيقى على الرقص أيضا ، وهذا الشعر الغنائى هو الذى أنشأ المدح والهجاء والرثاء والغزل والفخر وما اليها من هذه الفنون التى تصوّر حياة الفرد تصويرا قويا ، ثم تطوّرت عندهم الحضارة بعد ذلك ، وخطا الانسان خُطوة أخرى بعيـدة فى سبيل الحرية الفردية والاجتماعية ، فنشأ نوع من الشـعر جديد يصف حياة الجماعات كما هى ، أو كما كانت أو كما يجب أن تكون ، وهذا الشعر يعتمد على الحِوار والحركة والغناء معا . كان يوضع فى شكل قصة ملهية أو محزنة تُمَثَّل أمام النَّظَّارة فى الملاعب وهو الشـعر التمثيلى ، هذه هى السبيل التى سلكها الشعر القديم عند اليونان والرومان ، ثم سلكها شعر القرون الوسطى فى أوربا ، ثم سلكها الشعر الحديث على شىء من التطوّر والاختلاف ، وهذه السبل نفسُها سلكها الشـعر الآرى فى الشرق كالهند ، فقد نشأ قصصيا ثم اسـتحال غِنائيا ، ولكنه لم يصل إلى التمثيل .

أما الشعر العربى ، كما نعرفه ، فقد سلك سبيلا خاصة ، فلسنا نعرف فيه شعرا قصصيا بالمعنى الذى قدمناه ، وانمـا أول عهدنا بالشـعر العربى الشعر الغنائى ،

أى هـذا النوع الذى يصف حيـاة الفرد وعواطفه وميوله وأهواءه ، والذى ان وصف حياة الجماعات فهو لا يهمل فى هذا الوصف شخصية الشاعر ولا عواطفه وميوله ، فالشاعر فيه مرآة للجماعة فى حين أن الجماعة فى الشعر القصصى مرآة للشاعر .

ولم يعرف الشـعر العربى فن التمثيل ، وانمـا ظل غنائيا الى الآن ، وتطور فى حدود النوع الغنائى لم يتجاوزها ، وقد تناول الشعر العربى منذ العصر الجاهلى الفنونَ التى يتناولها الشعر الغنائى عادة ، ففيه الفخر بالمآثر الفردية ومآثر القبيلة ، وفيه المدح للأفراد النابهين وللقبائل ، وفيـه الرثاء وفيه الهجاء وفيه الغزل . ولكن حظوظ هذه الفنون من القوة والكثرة ليست متشابهة فى هذا العصر ، فمنها ما كان ضعيفا قليلا لم يقو ولم يكثر الا بعد الاسلام .

الشعر العــربى

والشعر العربى ، فى هذا العصر الجاهلى وغيره من العصور الأدبية العربية ، قصير بالقياس إلى غيره من الشعر الأجنبى ، قِوامه القصيدة ، وهى مقدار من الأبيات يطول حتى يبلغ المـائة أو يتجاوزها بعض التجاوز ، و يقصر حتى لا يبلغ العشرة ، ور بمـا قصُر نَفَسُ الشاعر فلم يزد على سـبعة أبيات ، فسمى شعره "مقطوعة" والقصيدة أو المقطوعة وَحْدة مستقلة تتناول موضوعا بعينه أو موضوعات يتصل بعضها ببعض ، ولها مشخصات ثلاثة : أولها المعنى أو الموضوع ، وهو الغرض الذى يحاول الشاعر السـعى اليه وتصو يره بمـا يقول من شـعر : مدح فى هذه القصيدة ، وفخر فى هذه ، ورثاء فى تلك ، وهكذا . والثانى القافية وهى حرف يلتزمه الشاعر فى قصيدته أو مقطوعتـه يختم به أبياته كلها لا يتجاوزه ولا يضـع مكانه حرفا آخر ، فَمُطَوَّلَةُ امرئ القيس لامية لأن صاحبها التزم اللام فى آخر أبياتها جميعا ، ومطولة طَرَفة دالية ، ومطولة زُهَيْر ميمية ، ومطولة عمرو بن كُلْثوم نونية ، وعلى هذا النحو . والثالث الوزن ، وهو نوع من النظام الموسيقى يتألف من أجزاء على نحو خاص . والشاعر يلتزمه فى القصيدة أو المقطوعة كما يلتزم القافية ، بحيث متى ابتدأ قصيدة على نحو من الوزن لم يجز أن يعدِل عنه إلى نوع آخر حتى يفرُغ من قصيدته .

وقد عرف العرب فى العصر الجاهلى أوزانا مختلفة نظموا عليها الشعر ، ووضع أدباؤهم بعد الاسلام لها أسماء تمايز بينها ، منها الطويل والكامل والوافر والخفيف والرجز وغيرها ، فمطولة امرئ القيس من الطويل ، ومطولة عمرو بن كلثوم من الوافر ، ومطولة الحارث بن حِلِّزَةَ من الخفيف ، ومطولة لبَيد من الكامل وعلى هذا النحو .

والشاعر العربى اذا أراد أن يقول الشعر فى غرض من الأغراض لم يهجُم على غرضه منذ أول القصيدة عادة ، وانما يسعى اليه فى رفق وعلى مهل ، فيبدأ بذكرياته الخاصة فيتغنى بها فى أبيات تطول أو تقصُر ، كأنه يريد أن يستجمع قواه ، وأن ينَبِّه السامعين ويُعِدَّهم لما سيقول ، وأكثر ما يهتمُّ به الشاعر من ذلك ذكر صاحبته أو امرأته ، وأطلال الدار التى كانت تسكنها ، وقد يُعْنَى بالدار وأطلالها أكثر مما يعنى بأهلها ، حتى اذا أرضى حاجته من ذلك ذكر نفسه وما تعوّد من سفر ورحلة ، وربما ألهاه عن نفسه وصفُه للناقة التى يعتمد عليها فى سفره ، وللطريق التى يقطعها على هذه الناقة ، ثم ينتقل من ذلك الى ما يريد بجاءة فى أكثر الاحيان ، وفى شىء من التخلص والحيلة أحيانا ، وهذا النحو من تكوين القصيدة ألِفه العرب الجاهليون لأنه كان ملائما لحياتهم وبيئاتهم الخاصة ، ثم أصبح دستورا للشعراء بعد ظهور الاسلام يلتزمونه فى أكثر الأحيان على أنه أصل من أصول الفن الشعرى وان لم يكن بينه وبين حياتهم وبيئتهم صلة .

أغراض الشعر

وأغراض الشعر العربى فى العصر الجاهلى يسيرة ساذَجة لا تعقيد فيها ولا تكلف فالشعر كان فى ذلك العصر مرآة لحياة أصحابه ، وحياةُ العرب فى العصر الجاهلى لم تكن معقدة تعقيد الحياة عند الأمم الممعنة فى الحضارة ، فكثير من هؤلاء العرب كانوا يعيشون عيشة بدوية خالصة ، وبعضهم كان يبلغ حظا من الحضارة ولكنها حضارة لم تخلُص بعدُ من شائبة البداوة ، ومن هنا سهُلت أغراض الشعر العربى فى هذا العصر ، فكان الشعراء ينظمون الشعر ليصفوا ما يقع تحت حسهم من مظاهر الحياة الطبيعية فى بلاد العرب ، يصفون الصحراء وما فيها من حيوان ،

ويصفون ابلهم ، ويصفون ما يرَوْن من نجوم السماء ، ويصفون الخيل والسلاح والصيد وأدوات الحرب ، وكانوا يقولون الشعر يصفون به ما يلقَوْن من شدة فى حياتهم وفى جهادهم المتصل لكسب الأمن والحياة ، وكانوا يقولون الشعر لمدح السادة والرؤساء ورثائهم ، وهجاء خصومهم ، والفخر بمآثر الأفراد والقبائل ، وكانوا يقولون الشعر يصفون فيه النساء وما يُثرْن فى النفوس من لوعة وهوى ، وما يُسْبِغن عليها أحيانا من نعمة ورضا ، ولم يكادوا يتجاوزون هذه الأغراض .

وكانوا اذا عرضوا لها قصدوا الى تأديتها من طريق المعانى السهلة اليسيرة المألوفة فى بيئاتهم ، لا يتكلفون ولا يَشُقُّون على أنفسهم فى التماس المعانى الدقيقة العويصة ، كما أنهم كانوا يؤدون هذه المعانى بألفاظ متخيَّرة ، فيها جمال وروعة ، وفيها متانة ورصانة ، ولكنها غير ممعنة فى الغرابة والحوشية ، ولاسيما اذا لاحظنا أن أولئك الشعراء انما كانوا ينظمون الشعر لبيئاتهم وجماعاتهم ، لا لبيئاتنا وجماعاتنا ، فلا ينبغى أن نتخذ آذاننا مقياسا لآذانهم ، فاذا شقَّ علينا لفظ من ألفاظهم أو أنكرناه فليس معنى ذلك أن هذا اللفظ قد كان شاقا منكرا فى البيئة التى كان يعيش فيها الشاعر ويقول لها الشعر، على أن كثيرا مما بقى لنا من الشعر العربى الجاهلى سهل سائغ فى متانة وشدة أَسْر ، نسمعه فلا نضيق به ولا ننفر منه ، وربما كان الشعر الجاهلى المسرف فى الغرابة ، والشعر الجاهلى المسرف فى السهولة أبعدَ شىء عن الجاهليين ، قد وُضِع عليهم فى عصور متأخرة .

أشهر شعراء الجاهلية

وقد اشتهر من الشعراء فى العصر الجاهلى قوم كثيرون من قبائل مختلفة ، وفى أقاليم متباينة ، ولكن القدماء من العرب ، بعد الاسلام على الأقل ، كانوا مجمعين على تفضيل أربعة من هؤلاء الشعراء يعدونهم زعماء الشعر وقادته ، وأساتذة النابغين فيه ، وهم : امرؤ القيس بن حجر ، وزياد بن معاوية المعروف بالنابغة الذُّبيانى ، وزُهَيْر بن أبى سُلمى ، وقيس بن ميمون المعروف بالأعشى ، وكان القدماء يختلفون فى تقديم بعض هؤلاء الشعراء على بعض ، وكان لكل واحد منهم أنصار من

أهل البادية والحاضرة ومن العلماء ، يقدمونه ويرونه زعيم الشعر ، وكانوا يقدمون بعد هؤلاء الشعراء جماعات أخرى نذكر منها : طَرَفة بن العبد ولَبِيد بن ربيعة وعمرو بن كلثوم التَّغْلَبِىّ ، وعنترة بن شداد العبسى ، والحارث بن حلِّزة اليشكرى ، وعَبِيد بن الأبرص .

واختار القدماء بعد القرن الأول للهجرة عشر قصائد لهؤلاء الشعراء العشرة سَمَّوْها "المطولات" ثم سميت بعد ذلك بالمعلَّقات ، والناس يُعْنَوْن بهذه القصائد العشر عناية خاصة ، فيجمعونها ويفسرونها ، ويُفردون لها الكتب ، ويحفظونها ، على أن هناك شعراء آخرين ليسوا أقل من هؤلاء العشرة حظا من الشعر ولهم نباهة شأنٍ فيه ، ، وليس هنا مكان الوقوف عند شعراء العصر الجاهلى للدرس المفصَّل والتحليل الدقيق ، وانما الذى نقصد اليه انما هو أن نعطى من الشعر فى هذا العصر صورة صحيحة موجزة بقدر الاستطاعة ، تتخذ نُموذَجا لما كان شائعا فيه من الشعر .

نموذج من الشعر الجاهلى

ولنختر ثلاث قصائد لثلاثة من هؤلاء العشرة وهى قصيدة لبيد التى مطلعها :

عفَتِ الديارُ محلُّها فمُقامُها   بِمِنًى تأبَّد غَولُها فرِجامُها

وقصيدة طَرَفَة التى أوَّلها :

لِخَوْلَةَ أطلالٌ بِبُرْقَــةِ ثهمدِ   تلوحُ كباقى الوشم فى ظاهِرِ اليد

وقصيدة زُهير التى أولها :

أَمِن أُمِّ أوفى دِمنةٌ لم تكلَّمِ   بِحَوْمَانَةِ الدَّرَّاجِ فالمتثلَّمِ

ولنلاحظ قبل كل شىء أننا لانعرف الا القليل من حياة هؤلاء الشعراء الثلاثة ، فأما لبيد بن ربيعة فكان عامريا ، من قبيلة قيس ، عاش دهرا فى العصر الجاهلى ، وكانت عيشته عيشة الشعراء الفُرسان الأغنياء ، وقال كل شعره أو أكثره فى هذا العصر ، ثم أدرك الاسلام ودخل فيه ، وشُغِل بحفظ القرآن وتلاوته عن الشعر ،

وعاش بعد فتح العراق فى الكوفة عيشة رجل وادع كريم ، يبذل ما ملك ليعين الضعفاء ويطعم الجائعين ، حتى كان بعض أمراء الكوفة يطلب الى المسلمين أن يعينوه على مروءته ، ويقال انه عُمِّر فى الاسلام نحو نصف قرن .

وأما طرفة بن العبد فكان بكريا من ربيعة ، لا نكاد نقطع من أمره إلا بأنه مات شابا ، كانوا يسمونه ابن العشرين ، وكانوا يختلفون بعد ذلك فى تحقيق سنه حينما قتل ، وكانوا يروون أنه نادم النعمان بن المنذر مع خاله المُتَلَمِّس الشاعر ، ثم ساءت الصلة بين الملك والشاعرين لأسباب يختلف فيها الرواة ، فدفع الملك الى كل منهما كتابا إلى أحد عُمَّاله ، وخَيَّل اليهما أنه يأمر عامله فى كتابه هذا بأن يعطى كلا منهما جائزة ، فانصرف الشاعران حتى إذا كانا فى طريقهما شك المتلمس فى كتابه فأقرأه غلاما من أهل الحيرة فاذا فيه أمر بقتل الشاعر فألقى كتابه فى النهر ، وهرب الى الشام ، وأنفق حياته فى هجاء النعمان والتأليب عليه ، وأبى طرفة أن يُقْرِئَ كتابه أو أن يشك فيه ، ومضى حتى انتهى الى عامل النعمان فقتله ، ومهما يكن من أمر هذه القصة فقد مات طرفة شابا ، وبقى لنا من شعره شىء قليل ولكنه على قلته قيِّم ممتع ، يمثِّل نفسا قوية أبيَّة كانت على حداثتها تنظر الى الحياة وتحكم عليها حكم المجربين .

وأما زُهير بن أبى سُلْمى المُزَنى فقيسى مضرى ، اشتهر بمدحه الجيد الكثير لرجل يقال له هَرِم بن سِنان ، كان سيدا غنيا توسط مع صاحب له يقال له الحارث بن عوف فى الاصلاح بين قبيلتى عبس وذبيان ، فعصماهما من الحرب وآلامها ، واحتملا الديات عمن وقع بينهما من القتلى ، فأدياها من مالهما الخاص فمدحهما بذلك زهير ، وانقطع لهرم فوقف عليه كثرة شعره ، وكان زهير رجلا حكيما طيب النفس ، موثرا للخير ، محبا للسلم داعيا اليه ، مات بعد أن أدرك عصر النبى صلى الله عليه وسلم وترك ابنين أسلما وحسن بلاؤهما فى الاسلام ، وكان لهما فيه شعر كثير .

تحليل لثلاث قصائد

فى شعر هؤلاء الشعراء الثلاثة أصدق صورة يمكن أن يعطيها الشعر القديم لحياة العرب فى آخر العصر الجاهلى ، ولما كانت تضطرب به هذه الحياة من أمل أو يأس ، ومن رجاء أو قنوط ، ومن اطمئنان واذعان أو طموح الى مثل أعلى بعيد المنال .

تحليل قصيدة لبيد

فأما قصيدة لبيد فمتينة اللفظ والأسلوب ، فيها ضخامة وصلابة حتى فى أبياتها السهلة اليسيرة ، وهى تمثل الحياة البدوية العادية وما يطمح اليه الرجل الكريم النبيل من مجد وسُؤْدُد وبعد صيت ، بدأها لبيد بذكر الديار وخلوِّها من أصحابها وتعرِّضها للرياح والأمطار تعبَث بها ومحو معالمها فلا تُبقى منها الا الشىء القليل . وانتقل من الديار الى صاحبته فألمَّ بذكرها إلمام اليائس من لقائها فقال :

مُرِّيَّةٌ حلَّت بِفَيْدَ وجاورت أهْلَ الحِجازِ فأينَ مِنكَ مرامُها

ولم يُطل الحديثَ عنها لأنه صاحب جِدٍّ وحزم لا يضيع وقته وجهده فيما لاسبيل اليه ، فهو يتركها الى ناقته التى يعتمد عليها حين يريد أن يسلى الهموم عن نفسه بالأسفار البعيدة الشقة فيقول :

بِطَليح أسفارٍ تركن بقيَّةً منها فأَحْنَقَ صُلْبُهَا وسَنَامُهَا

ثم يأخذ فى وصف هذه الناقة وصفا دقيقا ، يصف خَلْقَها وهيئتها ، ولكنه يُعنَى بسرعتها عناية خاصة ، وتُلهمه هذه العناية تشبيهاتٍ ثلاثة خصبة ممتعة ، فيشبِّه ناقته بالسحابة الخفيفة تندفع بها الريح فى سرعة قوية ، ويشبِّه ناقته بالأتان الوحشية المرِحة النشيطة الجادَّة فى العدو يطاردها قرينها ، ويشبه ناقته بالظبية الرءوم راعها الصائد وكلابه بَخَذَّت فى العدْو ثم لم تجد بدا من أن تَثْبُت للكلاب فجاهدتها وأبلت فى جهادها بلاء حسنا ، وهو يتخذ هذه التشبيهات وسيلة الى أن

يفصل من أمر حُمُر الوحش والظباء الشيء الكثير ، حتى اذا فرغ من هذه التشبيهات عاد الى نفسه فوصفها بالاباء والشمم فقال :

تَرَّاكُ أمكنةٍ إذا لم أَرضَها أو يرتبط بعضَ النفوسِ حِمامُها

وأعطانا صورا من حياته الهادئة والمضطربة . فاما اذا هدأت حياته واطمأنت بها السلم فهو صاحب لهو ، وعبث يشرب الخمر ويغالى فى ثمنها ، ويسمع للغناء ويلذ لسماعه ، وهو كريم جواد يطعم الجائعين ، ويؤوى البائسين ، ويحمى أهل الفاقة من شدة الزمان وعسف الخطوب ، وهو مقامر مسرف فى المقامرة . ولكنه لا يبتغى بمقامرته الا التنفيس على الفقراء والمعوزين . فهو يقامر ليشبعوا من جوع ويهدءوا بعد اضطراب وجزع ، وهو على هذا كله شديد المِرَّة عظيم البأس ، ان دهمته الحرب أسرع اليها شجاعا باسلا مخاطرا ، وهو ينتهز هذه الفرصة ليصف فرسه فيحسن الوصف فى ايجاز واقتصاد ، حتى اذا قضى حاجته من الفخر بنفسه فى الحرب والسلم فخر بعشيرته ، فوصف قومه بالنجدة والبأس والعزة والكرامة ، وبالجود والسخاء وبالأمانة والوفاء .

مِن معشرٍ سَنَّتْ لهم آباؤهم ولِكل قومٍ سُنَّةٌ وإمامُها

وعلى هذا النحو من الحياة التى يصورها لبيد كانت حياة الأفراد والجماعات فى البادية آخر هذا العصر ، ولست تجد فى قصيدة لبيد هذه غُلُوًّا ولا إسرافا ولا كذبا ، وانما هو شاعر قوى يستمد قوته من صدقه واخلاصه وشدة ايمانه بجمال هذه المُثُل الخلقية التى يسمو اليها .

تحليل قصيدة طرفة

وقصيدة طرفة تشبه قصيدة لبيد فى تأليفها وفى متانة ألفاظها . وان كانت تُكثر من الغريب فى بعض المواضع وتسهل جدا فى مواضع أخرى ، ولكنّ بين الرجلين فرقا ظاهرا لا شك فى أنه كان يميز جماعة من العرب المثقّفين ويرفعهم عن عامة الناس ، وسندُلك على هذا الفرق بعد قليل . فلننظر كيف تتألف القصيدة وعلام

تشتمل . أما أولها فمشبه لأول قصـيدة لبيد ، فالشاعر يذكر الديار كما ذكرها صاحبه ، ولكنه لا يطيل الكلام فى الديار ووصفها المادى ، وانمـا يشبه أطلالها بمـا بقى من الوشم فى ظاهر اليد .

لخولة اطلال ببُرْقَـةِ ثَهْمَدِ تلوح كباقى الوشم فى ظاهِرِ اليدِ

ثم يفرغ لنفسه وما تجد من حزن وأسى لفراق من تحب .

وُقُوفًا بها صَحْبِى علىَّ مَطِيَّهم يقولون لا تهلك أسًى وتجلدِ

ثم يصف صاحبته وصفا موجزا جميلا و ينتقل بجاءة إلى ناقته التى يسلى بها الهم اذا حضره .

وإنى لأمْضِى الهمَّ عند احتِضارِهِ بِعوجاء مِرقالٍ تروح وتغتـدى

ثم يصفها ويطيل فى وصفها متناولا أعضاءها عضوا عضوا ، ثم هيئتها ساكنة وسائرة فى بطء أو اسراع ، وهو فى هـذا الوصف يُؤْثِر الألفاظ الغريبة والمعانى الغامضة أكثر من لبيد ، حتى انك لتسأل نفسك وأنت تقرأ هذا الوصف : أليس من الممكن أن يكون صاحبه تعمَّد الاغراب ؟ ويفرُغ الشاعر لنفسه كما فعل لبيد، فيصفها فى السلم والحرب كما وصفها لبيد ، ولكن بين الشاعرين هذا الفرق الذى أشرنا اليه آنفا ، فلبيد يلهو وينعمَ فى السلم ، ويُبْلِى ويخاطر فى الحرب ، لأن فى هذا كله مثله الأعلى . أما طرفة فيلهو ويخاطر لأنه لا يدرى ماذا يستطيع أن يصنع غير هذا ، ولأنه قد يئس من الحياة وأنكر قيمتها وعرف أنه غير مخلَّد فهان عليه كل شيء ، وآثر أن يبادر الموت بمـا ملكت يده .

ألا أيهاذا الزاجِرِى أحضُرَ الوَغَى وأَنْ أشْهَدَ اللذَّاتِ هل أنت مُخْلِدِى

فان كنتَ لا تَسْـطِيعُ دَفْعَ منِيَّتِى فدعنى ابادِرْها بمـا ملكتْ يدِى

وأهون على طرفة بالحياة لولا لذات ثلاث يجد فيهن متعة تنفِّره من الموت بعض التنفير ، وهى لذة الخمر والحب والنجدة .

ثم يمضى الشاعر مفاخرا بنفسه عائبا على ابن عم له زاهدا فى الحياة يائسا منها ، حتى يختم قصيدته بهذا البيت المشهور :

سَتُبْدِى لك الايامُ ما كنتَ جاهلا　　ويأتيك بِالاخبارِ من لم تُزَوِّدِ

تحليل قصيدة زهير

أما قصيدة زهير فقد تشبه فى أول الأمر شعر صاحبيه ، ولكنها لاتلبَث أن تنقطع الصلة بينها وبين شعر لبيد ، وأن تبقى بينها وبين شعر طرفة صلة ضئيلة دقيقة ولكنها قَيِّمة ، ولنلاحظ أن زهيرا لم ينشىء قصيدته للوصف والفخر كما فعل لبيد وطرفة ، وانما أراد أن يمدح ، فهو اذا خليق أن يُفْنِىَ شخصيته فى شخصية من يمدحه ، ومع ذلك ظهرت شخصيته قوية جذابة مؤثرة كما سترى بعد حين .

بدأ زهير قصيدته كما بدأ لبيد وطرفة قصيدتيهما ، فذكر الديار وشبهها بالوشم ووصف ما بقى منها ، وذكر حزنه حين وقف عليها بعد عشرين سنة وتَعَرَّفها بعد مشقة :

وقفت بِها مِن بعدِ عشرِين حِجةً　　فَلَأْيًا عرفتُ الدارَ بعدَ تَوَهُّمِ

فلما عرفتُ الدارَ قلتُ لِرَبْعِها　　ألا آنعِم صباحا أيها الربعُ واسلِمِ

ثم ينتقل من الدار الى النساء اللاتى ارتحلن عنها فيتبعهن ببصره كئيبا محزونا ، ولكن حزنه هادئ مطمئن ، ويصف طريقهن التى سلكنها ، وابلهن التى ركبنها ، وهوادجهن التى استظللن بها ، ويصف الآثار التى يتركنها إذا نزلن منزلا للراحة ثم رحلن عنه . كل ذلك فى لفظ سهل عذب فيه كثير من الجمال والظَرف ، حتى اذا فرغ من قصته وانتهى بصاحباته الى حيث كن يُرِدْن ، وأنزلهن على الماء الذى أردن النزول عنده ، انتقل فى غير تخلص ولا حيلة الى صاحبيه هرِم بن سِنان والحارث بن عوف فمدحهما .

يمينا لنِعم السيدان وُجدتُما　　على كل حالٍ مِن سحِيل ومُبْرَمِ

ولكنه فى مدحه هادئ مطمئن مؤثر ، كما كان فى وصفه للديار والنساء، وهو يؤثر القصص فى المدح كما آثره فى الوصف ، فيذكر سعى صاحبيه إلى الاصلاح بين العشيرة بعد أن أفسدت الدماء ما بينها من ود وصفاء واخلاص ، ثم يشتد ويحتد ، واذا هو ينكر الحروب وآلامها وما تجر على الناس من شر ونكر .

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتَضْرَ إذا ضَرَّيتموها فتضرَمِ

ثم يعود إلى صاحبيه فيمضى فى مدحهما قويا هادئا فى لفظ متين ولكنه سهل يسير ، حتى اذا قضى لصاحبيه وعشيرتهما حقهم من المدح واللوم والنصح استراح قليلا ثم تجاوز هذين الحيين من عبس وذبيان وارتفع عنهما وعن صاحبيه وعن نفسه إلى الانسانية كلها فقال :

سَئِمْتُ تكاليفَ الحياةِ ومَنْ يعِش ثمانين حَوْلا ، لا أبالكَ ، يَسْأَمِ

ومضى فى طائفة من الحكم منها الانسانى الشامل كقوله :

وَمَنْ هاب أسبابَ المنايا يَنَلْنَهُ ولو رام أسبابَ السماءِ بسُلَّمِ

ومنها ما يصور طورا من أطوار الحياة العربية الخاصة كقوله :

وَمَنْ لم يَذُدْ عن حوضِهِ بِسلاحِه يُهدَّمْ ومن لا يظلِمِ الناس يُظْلَمِ

ولكنها كلها ، وهنا تظهر الصلة التى أشرنا اليها بينه وبين طرفة ، تمثل نفسا زاهدة فى الحياة ، كارهة لها ، ضيقة بها ، لا لأن الشاعر شيخ قد بلغ الثمانين كما يقول : بل لأن هناك شيئا قد بَغَّض الحياة إلى زهير الشيخ كما هَوَّن أمرها على طرفة الشاب ، وهذا الأمر هو أن الحياة لُغْز لم يستطع طرفة ولا زهير أن يتبين سره :

رأيت المنايا خَبْطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِبْ تُمِتْهُ وَمَنْ تُخْطِئْ يُعمَّرْ فَيهرَمِ

وأعلمُ عِلمَ اليومِ والأمسِ قبلَه ولكننى عن عِلمِ ما فى غدٍ عَمِ

هان أمر الحياة على طرفة فانصرف الى اليأس واللذة ، وهان أمر الحياة على زهير فلم ييئس ولم يتهالك على لذة أو لهو ، ولكنه كان يُحسُّ شيئا من الأمل لا يستطيع هو أن يبينه ، ولا نستطيع نحن أن نتبينه واضحا صريحا . انما هو شيء غامض خلاصته فيما يظهر أن هذه الحياة مضطربة قلقة ، لا تطمئن اليها النفس المستبصرة ، وما زال القليلون من أمثال زهير وطرفة فى البيئة العربية يَرَوْنَ مثل هذه الآراء و يتحدثون بمثل هذه الأحاديث حتى جاء الاسلام فحقق أمل الآملين ، ومحا يأس اليائسين ، وأخرج الأمة العربية كلها من ظلمتها القديمة إلى نوره الجديد .

النثر الجاهلى

كثير جدا ما يروى من الشعر الجاهلى ، ومنه الصحيح وغير الصحيح ، وهذا الشعر الكثير ليس شيئا بالقياس إلى ما ضاع من شعر العرب فى العصر الجاهلى ، لأنه لم يكتب ، فذهب به النسيان وموت الرواةِ ، أما النثر الذى يروى عن العصر الجاهلى فقليل جدا لا يكاد يذكر إلى جانب الشعر ، وكان القدماء يعللون قلة النثر وكثرة الشعر بأن وزن الشعر وقافيته يسهلان حفظه وروايته ، على حين أن حرية النثر وانطلاقه من القيود يجعلان حفظه عسيرا وروايته أعسر .

وقد تكون هذه العلة صحيحة فى نفسها ، ولكن ما قدمناه من أن الشعر أسبق إلى الظهور من النثر الفنى لأنه لغة العاطفة والخيال ، والنثر الفنى لغة العقل والتفكير ، يكفى لتعليل قلة ما يروى من النثر ، وكثرة ما يروى من الشعر عن العصر الجاهلى ، فقد كان العرب الى ظهور الاسلام أميين فى كثرتهم ، و يستطيع الشعر أن يعيش مع الأمية ولا يستطيع النثر الفنى أن يعيش معها . ومن الحق أن أفرادا من العرب كانوا يكتبون و يقرءون و يتخذون الكتابة أداة لمعاملاتهم الاقتصادية فى آخر العصر الجاهلى . ولكن الكتابة لم تكن شائعة الى الحد الذى يمكِّن من تدوين الشعر والنثر .

الخطابة فى الجاهلية

ومما لا شك فيه أن العرب قد عرفوا فى هذا العصر الجاهلى شيئا من الخطابة دعت اليه حياتهم الاجتماعية والسياسية ، وكان لهم خطباء مشهورون نذكر منهم أكثم بن صَيْفِى التميمى ، وقُسّ بن ساعِدة الإيادِى ، ولكننا لا نعرف من هؤلاء الخطباء الا أسماءهم وشهرتهم ، ونُتَفا ضئيلة جدا مِن أقوالهم . فمن العبث اذا أن يدرس النثر الجاهلى لأنه قد ضاع الا القليل .

الأمثال الجاهلية

واذا لم يكن بد من الكلام على النثر فى هذا العصر فليكن هذا الكلامُ عن الأمثال ، فقد كان للعرب فى جاهليتها أمثال شَعْبية كثيرة ، وكان كثير من هذه الأمثال قد شاع فى صيغة نثرية غير منظومة ، واذا لم نستطع أن نتخذ هذه الأمثال القصيرة مقياسا للنثر العربى فى ذلك العصر لقصرها واقتضابها فنحن نستطيع على كل حال أن نرى فيها العقلية العربية والخلق العربى . كما نستطيع أن نرى فى كثير منها الجملة العربية قوية ممتازة بحظ عظيم جدا من ظرف التعبير ، وإِصابة المعنى واتقان التشبيه ، وحسن الايجاز .

والواقع أن العرب قد أجادوا فى هذا النوع من الأدب وخلّفوا لنا منه الشىء الكثير ، وكان يمثّل حياتهم الاجتماعية فى بيئاتهم المختلفة أكثر مما يمثلها الشعر لأن الأمثال تنبَع من الشعب على اختلاف طبقاته . فاذا نبع المثل من طبقة راقية كان راقيا ، واذا نبع من طبقة وضيعة كان وضيعا ، على عكس الشعراء وهم — عادة — أرقى من مستوى العامة .

ولكن هذه الأمثال الجاهلية اختلطت بغيرها من الأمثال الاسلامية ، فكثيرا ما يصعب التمييز بين المثل الجاهلى والمثل الاسلامى ، وان كان هناك أحيانا دلائل تدلنا على نوع المثل ، كما اذا قيل فى حادثة تاريخية أو عرف قائله إذا كان جاهليا أو اسلاميا .

ومهما يكن من شيء فان الذين يريدون أن يدرُسوا النثر العربي ويحدِّدوا مكانته الأدبية ويتعرفوا حظه من الجمال الفني لا ينبغي أن يلتمسوا هذا النثر قبل ظهور الاسلام ، وإنما ينبغي أن يلتمسوه فيما صح من الحديث النبوي وخطب الخلفاء والأمراء أولا ، ثم في آخر العصر الأموي وفي عصر بني العباس حين أصبح النثر صناعة فنية .

مكة

مركزها التجاري

من أهم مدن الحجاز كما أسلفنا مكة ، والذي نعرفه عنها أنها كانت قبل القرن الخامس للميلاد بلدة صغيرة ، وظلت تنمو حتى كانت في النصف الثاني من القرن السادس مدينة عظيمة ، وترجع عظمتها ونموها السريع الى أسباب :

أولها — أنه كان في جزيرة العرب طريقان عظيمان للتجارة أهمهما لنا هنا طريق تبدأ من حَضَرموت ، وتسير محاذية للبحر الأحمر متجنبة صحراء نجد وهجيرها ، ومتجنبة هضاب الشاطيء ووعورتها ، وعلى هذه الطريق تقع مكة .

كانت مكة محطا لأصحاب القوافل الآتية من جنوبي جزيرة العرب تحمل بضائع الهند واليمن الى الشام ومصر ، ينزلون بها ويستقون من بئر شهيرة بها تسمى بئر زمزم ، ويأخذون منها حاجتهم من الماء .

وكانت التجارة قديما في أيدي اليمانين ، ولكن غلبهم عليها الرومانيون في البحر الأحمر فضعفت تجارة اليمن ، وانحط شأنها ، ولما حُفَّ طريق البحر بالأخطار التجأ التجار الى البر يسلكونه ، فعظم شأن المدن التي عليه ، وأهمها مكة ، وضرب الحجازيون بسهم كبير في التجارة فكانوا يشترون السلع من اليمن والحبشة ، ثم يبيعونها في أسواق الشام ومصر ، وكان العرب يؤمون الحجاز من

أطراف الجزيرة ، يجدون فيه حاجتهم مما تخرجه بلادهم ، ومن السلع الأجنبية، وكانت تقام فيه الأسواق كل سنة ، ومن أشهرها سوق عكاظ ، وكانت تقام على مقربة من مكة ، ولهذه الأسواق أثر كبير فى الأدب العربى ، فقد كان يحضرها شعراؤهم ينشدون و يتناظرون ، وكان التجار يخرجون بتجارتهم قوافل عظيمة ، حتى ذكر الطَّبَرىّ فى تاريخه أن قافلة من هذه القوافل بلغت خمسمائة وألف بعير ، وقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة فى هذه القوافل مرتين : مرة وسنه اثنتا عشرة سنة الى بصرى ومرة وسنه خمس وعشرون .

كان لهذه التجارة أثر كبير فى أهل مكة ، فقد أثرى كثير منهم واقتنوا الأموال والضياع والعبيد ، وفشا بينهم التعامل بالربا ونحو ذلك مما عرض له الاسلام بعدُ. وفوق هذا كان لرحلة المكيين الى الشام ومصر أثر كبير فى عقولهم ، فقد رأوا أنواعا من الحضارة اقتبسوا منها ما استطاعوا ، وأثر كبير فى لغتهم فقد كان منهم بحكم التجارة من يعرف اللغات السائدة فى الشام ومصر فأدخلوا منها فى لغتهم مارأوا أنفسهم فى حاجة اليه .

مركزها الدينى

والسبب الثانى فى نمو مكة وعظمتها سبب دينى . ذلك أن فى مكة الكعبة، وهى بيت الله الحرام يقصدها العرب من جميع أنحاء الجزيرة. ولاهلها من الحرمة فى نفوس العرب ما ليس لغيرهم . وكان ذلك أحد الأسباب التى دعت الى نجاح قريش فى التجارة . فقد كان الطريق التجارى فى الجزيرة مهدَّدا بالسلب والنهب ولكن حرمة العرب للكعبة وقريش جعلتهم يخشون بأسهم ، و يؤمِّنون تجارتهم .

يقول الله تعالى "لإيلافِ قُرَيْشٍ إيلافِهِم رِحْلَةَ الشتاءِ والصيفِ فليعبدوا ربَّ هذا البيتِ الذِى أطعمهم مِن جوعٍ وآمنهم مِن خوف" .

قبيلة قريش

أهم قبيلة كانت تسكن الحجاز وخاصة مكة قبيلة قريش ، وقريش لقب لفهر ، وهو من نسل معد بن عدنان الذى ينتسب إلى اسماعيل عليه السلام ، وكان فهر هذا يعيش فى القرن الثالث الميلادى ، على ما يُظَنُّ ، وسميت القبيلة التى نَسَلَها باسمه فقيل "قبيلة قريش" وقد فخرت قريش بنسبها وحسبها وخدمتها للكعبة على سائر القبائل ، حتى عدت أنبلها ، وظهر من بينها على توالى العصور رجال زادوا فى عظمتها مثل قصىّ الذى أطعم الحاج وسقاهم ، وبنى دار الندوة قرب الكعبة يجتمع فيها مع كبار قومه يتشاورون فى شئونهم ، وعاش على ما يظهر فى النصف الثانى من القرن الخامس الميلادى . وجاء الإسلام وقريش هى صاحبة السلطان على مكة ، وموضع الاجلال من العرب . قد وزعت مصالح الحكم والولاية على رؤساء البيوت الظاهرة فيها .

لغة قريش

كان للقبائل العربية المختلفة لغات مختلفة ، فلأهل اليمن لغة ، ولهوازن لغة ، ولأهل عُمَان لغة ، وللخزرج لغة ، وهكذا ، وكلها تسمى لغات عربية ، وتختلف فيما بينها باختلاف الكلمات أحيانا ، فبعضهم يستعمل فى المعنى الواحد كلمة ، على حين أن قبيلة أخرى تستعمل فى هذا المعنى لفظا آخر ، فمثلا كندة تستعمل بخاجا ، وقريش تستعمل بدلها " طرقا " ولخم تستعمل " املاقا " وقريش "جوعا" وقبيلة تستعمل " نكص" وأخرى تستعمل " رجع " وقبيلة تستعمل (اِحْتَنَكَ) وأخرى (استأصل) وهكذا . كذلك تختلف فيما بينها فى اللهجات ، وذلك كان تُدْغِم قبيلة حيث تفكُّ أخرى ، فقبيلة تقول (آشدد) وأخرى (شد) وقبيلة تميل وأخرى لا تميل ، على نحو ما تراه فى القراءات المختلفة للقرآن الكريم .

وقد امتازت لغة قريش من بين لغات العرب بوفرة كلماتها وسهولتها وحسن لهجتها ، وخلوها من عيوب كانت فى لغات أخرى ، كعجعجة قُضاعة وعنعنة تميم [1] ويرجع ذلك الى السببين اللذين ذكرناهما قبل ، فاشتغال القرشيين بالتجارة بينهم وبين الأمم الأخرى من ناحية ، وبينهم وبين قبائل العرب من ناحية أخرى ، جعلهم يدخلون فى لغتهم ألفاظا جديدة يرون أنفسهم مضطرين اليها ، فلما رأوا الإِسْتَبْرَقَ مثلا ولا كلمة عندهم تدل عليه أخذوا لفظه من الفرس ، وكذلك كلمتا السُّنْدُس والكافور ، كما أخذوا كلمات أخرى عن الرومية والحبشية والقبطية والسريانية ، أضف الى ذلك أن التجارة وكثرة الرحلات ومخالطة الأمم المتحضرة رققت ذوقهم وجعلتهم ينفرون من الكلمات الغليظة ، واللهجات المستهجنة ، وقل مثل ذلك فى السبب الدينى ، فحج العرب الى الكعبة من كل فج عميق مكن القرشيين من سماع اللغات العربية الأخرى يتخيرون ألطفها ، وحسبك دليلا على سعتها ورقتها أن القرآن الكريم نزل بها ، وهذا الذى ذكرنا من سعتها ورقتها هو الذى جعلها تسود اللغات العربية الأخرى فى الحجاز وغير الحجاز ، فكما كان الذين يحجون الى الكعبة ويقصدون الى الأسواق يُمِدُّون لغة قريش بخير ما فى لغتهم كانت قريش تمدهم بلغتها ولهجتها حتى زاحمتها وغلبت عليها ، وحتى كان مما يستوقف النظر أن ما نقل الينا من شعر الشعراء وخطب الخطباء وجيد الأمثال انما نقل بلغة قريش ، ولو لم يكن قائله قرشيا ولا حجازيا

---

[1] العجعجة قلب الياء المشددة جيما فيقولون فى على « علج » وفى كرسى كرسج . والعنعنة قلب الهمزة إذا وقعت فى أول الكلمة عينا ، فيقولون فى « أن » « عن »

محمد صلى الله عليه وسلم

حياته الأولى

فى مكة التى ذكرنا ، وفى بيت من خير بيوت قريش ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب فى سنة ٥٧٠ م .

تزوج عبد الله بن عبد المطلب الهاشمى القرشى بسيدة قرشية كذلك هى السيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف ؛ وبعد قليل من زواجه توفى شابا فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، وكان خارجا فى تجارة إلى الشام ، ولم يترك الا خمسة من الابل وقطيعا من الغنم وجارية ، وبعد وفاته بأيام وضعت آمنة غلاما سماه جده "محمدا" ، وكان من عادة الأشراف من نِساء العرب ألا يرضِعن أولادهن بأنفسهن ، بل يدفعنهم إلى المراضع ، وكثيرا ما يقع اختيارهن على المرضِعات من أهل البدو لينشأ الأطفال فى البادية أفصح لسانا ، وأجلد جسما ، وأبين حرية ، وكذلك نشأ "محمد" فقد دفع إلى حليمة من بنى سعد بن بكر من هوازن ، فأخذته بعد تلكؤ ، لفقره ويتمه فأقام عندها بين بنى سعد فى البادية نحو خمس سنوات كان لها أثر كبير فى فصاحة لسانه وقوة جسمه وعظيم جَلَدِه ، قال له مرة أبو بكر ما رأيت أفصح منك ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "وما يمنعنى وأنا من قريش وأرضِعت فى بنى سعد" وكان يقول لأصحابه "أنا أعربكم" أنا قرشى واسترضِعت فى بنى سعد" .

وماتت أمه بعد سنة من عودته ، ومات جده عبدالمطلب وهو ابن ثمان ، فكان فى كفالة عمه أبى طالب ، وكان أبوطالب كثير العيال فقير المال .

نشأ "محمد" صلى الله عليه وسلم محبا للعزلة حتى لَيَرْوُون أنه لما قدمت به حليمة مكة وسنه خمس سنوات افتقدته فلم تجده ، فأرسل عبد المطلب من يبحث عنه فاذا

هو بأعلى مكة ، ومحبا للحرية حتى ليذكرون أنه كان يوضع لعبد المطلب فِراش فى ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه ، فاذا خرج لم يبق أحد من بنيه على الفراش اجلالا له الا محمدا ، فيأتى أعمامه ليؤخروه فيقول لهم عبد المطلب دعوه .

ولما بلغ الخامسة والعشرين تزوج السيدة خديجة بنت خويلد وهى فى الأربعين من عمرها ، وكانت من أشراف قريش وأغنيائها وتجارها ، فأعانته بعطفها وإخلاصها على ما يحب من عزلة وتفكير ، وشجعته بعدُ على ما يلاقى من أعدائه فى سبيل دعوته ، ووقفت بجانبه فى أحرج ساعاته تثبته وتؤيده .

بعثته صلى الله عليه وسلم

وقد اعتاد أن يقضى شهرا كل عام فى غارٍ قرب مكة يسمى " غار حِراء " يتعبد فيه ، ويعيش عيشة روحية ، ففى ليلة ، وقد بلغ الأربعين ، وهو نائم نزل عليه الوحى ، ثم أمر بتبليغ ما أوحى اليه ، ومِن ثَمَّ بدأت حياته فى دعوة الناس إلى الإسلام ، وتركهم عبادة الأصنام ، وأدائهم حقوق الله وحقوق الناس .

وكان من أسرع الناس قبولا لدعوته زوجه خديجة وابن عمه على بن أبى طالب ، وأبو بكر ، وهم أكثر الناس كانوا خُلْطَة به ومعرفة بصدقه وأمانته .

فلما شرع يدعو قومه أخذوا يسخَرون منه وقالوا "ساحر أو مجنون" فلما جدّ فى دعوتهم جدّوا فى اضطهادهم له ولمن آمن به ، وأمعنوا فى تعذيبهم والتضييق عليهم ، فنصح رسول الله لبعض أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ، وقد قال أحدهم للنجاشى لما سألهم عن حالهم "كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، يأكل منا القوى الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار

والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ... فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان . فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك" .

فلما يئس محمد صلى الله عليه وسلم من إيمان قومه وجه نظره الى قوم آخرين لعلهم يكونون أقبل لدعوته . فدعا أهل الطائف فكانوا أقسى من قريش ، أغروا به سفاءهم فرجموه بالحجارة حتى اختضبت نعلاه بالدماء — ثم عرض دعوته على القادمين من يثرب فى موسم الحج فآمنت طائفة منهم ، وآمنت أخرى بعدها فى الموسم التالى وبايعوه على نصرة دينه .

هجـــرته

وفى سـنة ٦٦٢ م هاجر من مكة مع أبى بكر يريد يثرب مسـتخفيا من قومه لأنهم يريدون قتله ، وبعد ثلاثة أيام وصل اليها فأحسنوا لقاءه وفشا الاسـلام فى أكثر بيوتهم .

وكان أهل يثرب من قبيلتين متعاديتين "الأوس والخزرج" فألف رسول الله بينهما وسموا "الأنصار" كما سمى الذين جاءوا من مكة مع النبى وبعده "بالمهاجرين" وآخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار، وسميت يثرب من ذلك الحين بالمدينة، أى مدينة الرسول ، وأرخ المسلمون بعد بهذه الهجرة [١] .

من ذلك الحين كان رسول الله داعيا الى الاسـلام ورئيسا للدولة الاسلامية الناشئة معا ، فكان يشرع لهم ويصلح من حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والدينية

(١) كانت الهجرة فى سبتمبر ، وقد أرخ بها المسلمون بعد ١٧ عاما من حدوثها فى عهد عمر بن الخطاب ، وقد كان ذلك يوافق ربيعا الأول ، فبدأ عمر التاريخ الهجرى من أول السنة التى حصلت فيها الهجرة أعنى من محرم تلك السنة .

بمـا أوحى الله اليه — وكان بين أهل المدينة يهود ظلوا متمسكين بدينهم ، فكتب رسول الله عهدا وَادَعهم فيه، وأقرهم على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم ألا يعينوا أعداء المسلمين عليهم . وأن يدافعوا عن المدينة كما يدافع المسلمون ، وعلى اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم .

حياته صلى الله عليه وسلم بالمدينة

وبنى بالمدينة مسجدا يعبد الله فيه هو وقومه، وهو أحد الحرمين الشريفين — لم يكن ضخما فى بنائه ، فقد بنى باللَّبِن وجعلت عمده من جذوع النخل ، وسُقِّف بالجريد ، ولكن كان يدَعمه ايمـان قوى ومبادئ قوية .

وقد عادى أهل مكة النبي وأصحـابه وأهل المدينة لحمـايتهم له ولهم ، فبـدأ القتال بين الفريقين ، وانتهى بأن كانت كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا، وفتح النبي مكة سنة ٦٣٠ م ووقعت قريش فى يده فعفا عنهم وقال "يامعشر قريش ان الله أذهب عنـكم نخوة الجاهليـة ، وتعظُّمَها بالآ باء ، الناس من آدم وآدم من تراب ، ثم قال يامعشر قريش ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال "اذهبوا فأنتم الطُلَقاء" ودخل الكعبة فأزال ما بها من أصنام ، وصور وتمـاثيل ، وأسـلم فى ذلك اليوم أكثر قريش ، ولم يتخلف منهم الا قليل ، وقد كانت قريش فى نظر العرب هم حماة الدين القديم وأنصاره، فلما أسلموا تبعهم من أصر على دينه من القبائل الأخرى ، وسميت السنة التاسعة من الهجرة "عام الوفود" فكان العرب يأتون من أنحاء الجزيرة يدخلون فى الاسلام وكان النبي يُعلِّم من وفد اليه ويرسل معهم من يعلم قبيلتهم أمور دينهم .

ويذكر الرواة أنه صلى الله عليه وسلم أرسل من قِبله رسلا الى الملوك ، ومنهم ملك الروم وملك فارس فانه أرسل يدعوهمـا الى الاسلام ويحمِّلهما تبِعة قومهما اذا لم يجيبا الدعوة فرد الأول الدعوة فى لطف، ومزق الثانى الكتاب المرسل .

حجة الوداع

وفى سنة ٦٣٢ م حج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة حجة الوداع وقد دخل الناس فى دين الله أفواجا ، فكان معه فى حجته أكثر من مائة ألف دانوا بدينه ، وخطب فى الناس خطبته المشهورة التى جاء فيها "أيها الناس اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا ، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وشهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلّغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون . واستوصوا بالنساء خيرا . . وقد تركت فيكم ما ان اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا أمرا بيّنا كتاب الله وسنة نبيه ، أيها الناس اسمعوا قولى وافعلوه تعلَمُنّ أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين أخوة ، فلا يحل لامرئ من أخيه الا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تَظْلِمُنَّ أنفسكم .

ولما عاد صلى الله عليه وسلم من مكة ظلّ يعمل فيما أرسل من أجله من قضاء على الوثنيين ونشر الدعوة الاسلامية . ونزل عليه قوله تعالى "اليومَ أكملتُ لكم دِينَكم وأتممتُ عليكم نِعمتى ورَضِيتُ لكم الإسلامَ دِينا" ثم لم يلبث قليلا حتى أخذ يشكو المرض من حمى اشتدّت به ، فلما كان يوم الاثنين ١٣ ربيع الأول سنة ١١ هجرية ٨ يونيه سنة ٦٣٢ ميلادية توفى صلى الله عليه وسلم بعد أن رأى فى حياته ما وفقه الله له من اجتماع العرب على دينه ، وما وصلوا اليه من رقى دينى وخلق واجتماعى ، ورأى أن دعوته أخذت تشعّ على الممالك الأخرى حوله ، وذهب أبو بكر يخبر الناس بموته فقال "أيها الناس من كان يعبد محمدًا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فأن الله حى لا يموت ، "وما محمدٌ إلّا رسولٌ قد خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ على أعقابِكم ومن يَنْقَلِبْ على عقبيه فلن يَضُرَّ اللهَ شيئا وسيجزِى اللهُ الشاكِرِينَ" .

شيء من أخلاقه

وهكذا خُتِمت حياة حافلة بجليل الأعمال ، ونُبْل الخصال ، حب للحق يَهب له حياته ، وقوة ايمان فلو اجتمع الناس كلهم ووضعوا الشمس في يمينه والقمر في شماله على أن يحولوه عن دعوته ما استطاعوا ، واحتقار لنعيم الدنيا وحُطامها حتى لقد مات ودِرْعه مرهونة لنفقة عياله ،والدنيا تساق اليه بحذافيرها وتترادف عليه فتوحها ،وأدب وحياء وتواضع حتى لقد كان موضع الحب والاجلال والاعجاب من كل من اتصل به ، وقدَّم كثير منهم نفسه وماله وولده دفاعا عنه وعن عقيدة تَلَقَّوْها منه ، ولا تزال الانسانية على مرور القرون والأجيال ، مدينة له بما أتى من دين وإصلاح ودعوة الى الخير العام .

وبعدُ فقد كان صلى الله عليه وسلم في فصاحة قوله وبلاغة لسانه [١] "بالمحل الأفضل ، والموضع الذى لا يجهل ، سلاسة طبع ،وبراعة منزَع ، وإيجاز مقطَع ، وفصاحة لفظ ، وجزالة قول ، وصحة معان ، وقلة تكلف ، أوتى جوامع العلم ، وخُصَّ ببدائع الحِكم وعِلْم ألسنة العرب ، يخاطب كل أمة منها بلسانها ،ويحاورها بلغتها ، ويباريها في منزع بلاغتها...ومن أقواله ما لا يوازى فصاحة ، ولا يبارى بلاغة كقوله : المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يدٌ على من سواهم ، الناس كأسنان المُشْط ،لا خير في صحبة من لا يرى لك ما لا ترى له ، الناس معادن ، ما هلك امرؤ عرف قدره ، المستشار مؤتمن وهو بالخيار ما لم يتكلم ، ورحم الله من قال خيرا فغنم ،أو سكت فسلم ، اتق الله حيث كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالِق الناس بخلق حسن ،لا يُلْدَغ المؤمن من جُحْرٍ مرتين ، والسعيد من وُعِظ بغيره .

وقد قالت أم معبد في وصفها له : حلو المنطق فصل ، لا نَزْر ولا هَذْر ، كأن منطقه خرزات نُظِمْن .

---

(١) عن الشفاء للقاضي عياض .

القرآن الكريم

نزوله منجما على حسب الحوادث

القرآن كتب الله الذى أنزل على رسوله ، وقد نزل منجما فى ثلاث وعشرين سنة تبتدئ من يوم أنزل عليه الوحى بغار حراء ، وتنتهى بوفاته صلى الله عليه وسلم وكان بدء ما نزل عليه (إقرأْ بِاسمِ ربِّك الذى خَلَقَ خَلَقَ الإنسانَ مِن عَلَقٍ اقرأْ وربُّكَ الأكرَمُ الّذى علَّم بِالْقَلَمِ علَّمَ الإنْسانَ مَالَمْ يَعْلَمْ) وآخر ما نزل (اليومَ أكملتُ لكم دِينَكم وأَتْمَمتُ عليكُمْ نِعْمَتِى ورضِيتُ لَكُمُ الإسْلاَمَ دِينًا) .

وقد نزل أكثر سور القرآن والنبى صلى الله عليه وسلم فى مكة قبل أن يهاجر الى المدينة ، فقد كان فيها داعيا نحو ثلاث عشرة سنة ، ونزل بعضه فى المدينة بعد الهجرة ، وظل ينزل فيها نحو عشر سنوات ، وكان ما نزل منه بالمدينة باتفاق عشرين سورة ، واختلف فى موطن نزول اثنتى عشرة سورة ، وما عدا ذلك مكىّ باتفاق .

كان ينزل القرآن على الرسول بطريق الوحى ، وكان ينزل على حسب ما يعرض من الحوادث ، فكان بعضها يستدعى الآية أو الأكثر ، وبعضها يستدعى السورة بأجمعها ، فمثلا : يخرج النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة من الغزوات فينزل عليه من القرآن ما يتصل بها من تعاليم ، ويُسأل عن حكم الله فى الميراث فتنزل الآية أو الآيات توضح أحكامه ، وهكذا .

وكان اذا نزل عليه شىء من القرآن تلاه على من حضر من أصحابه فيحفظه بعضهم ، فهذا يحفظ جملة من الآيات ، وذلك يحفظ آيات أخرى وهكذا ، وفوق ذلك كان للنبى صلى الله عليه وسلم كتبة يكتبون ما ينزل من الايات يُسمَّوْن كتبة الوحى ، فكانوا يكتبونه فى سعف النخل أو فى حجارة رقيقة أو عظام مسطحة ، وقد توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن ليس مجموعا فى مصحف واحد ، وانما كان محفوظا فى صدور الصحابة أو مكتوبا فى الرقاع .

جمعه فى الرقاع

وفى عهد أبى بكر كانت حروب الردة وقد تفرق الصحابة فى البلدان وكثر فيهم القتل ، وخاصة فى وقعة اليمامة ، فخاف عمر أن يذهب بعض الآيات بقتل بعض الصحابة فأشار على أبى بكر بجمع الرقاع المكتوبة وكتابة ما لم يكتب من صدور الرجال ، وعهد أبو بكر فى هذا العمل الى زيد بن ثابت أحد كتبة الوحى للنبى صلى الله عليه وسلم ومن خير الأنصار دينا وعلما وصدقا ، فتتبع زيد القرآن بجمعه من الرقاع ومن صدور الرجال ، وكان يكتب مالم يكن مكتوبا بعد التحرى الدقيق ، وجمعت الصحف كلها وربطت بخيط بعضها مع بعض ، وحفظت فى بيت أبى بكر مدة حياته ، فلما توفى حفظت فى بيت عمر ، فلما توفى حفظت فى بيت حَفْصَة زوج النبي وبنت عمر .

كتابة المصاحف

وفى عهد عثمان انتشر القراء فى حواضر الأمصار كالعراق والشام ومصر ، وقد احتاج المسلمون إلى مصحف يجتمعون عليه ولا يشذُّ أحد عنه .

فأرسل عثمان الى حفصة أن ارسلى الينا الصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها اليك ، ففعلت ، وعهد عثمان الى زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وغيرهما فى أن يكتبوه ، فلما نسخوا الرقاع فى المصاحف أرسل الى كل مصر من الأمصار المشهورة مصحفا وألزمهم القراءة على حسب ما فيه ، وكانت هذه المصاحف غير منقوطة ولا مشكولة ، فلما اخترع الشكل بعدُ نقطت المصاحف ثم شكلت على النحو الذى نراه اليوم .

أغراضه ومعانيه

قدمنا أن فى القرآن آيات وسورا مكية أى أنها نزلت بمكة ، وأخرى مدنية أى أنها نزلت بالمدينة ، فاذا نظرنا الى السور المكية لاحظنا أن أوضح غرض فيها هو دعوة الناس أن يتركوا عبادة الأصنام والأوثان ، ويعبدوا الله وحده ، ومنهج

القرآن الكريم فى هذه السبيل ذكر الله و بيان صفاته وتوضيح آثاره فى الكون ، وسِيَرَ الأمم السابقة ، وكيف كانت عاقبة المؤمنين والكافرين ، وبازاء هذا كله ذكر الأصنام وكل ما يعبد من دون الله ، و بيان أنها لا تسمع ولا تعقل ، وأنها لا تملك لمن يعبدها نفعا ولا ضرا ، وأكد القرآن الكريم فى مواضع عدة من هذه الآيات عاقبة المؤمنين وما أعده لهم من جنات النعيم ،ووصف الجنة أبلغ وصف وأشده ترغيبا ، وما أعد للكافرين من جحيم ، ووصف النار أبلغ وصف وأشده ترهيبا ، وعرضْ لرؤساء مكة الذين كانوا يقفون فى سبيل الدعوة فسخّف آراءهم ، وندد بهم و بأعمالهم .

و يمكننا أن نلخص المبادئ التى تشتمل عليها السور المكية فيما يأتى :

الدعوة الى أن لا إله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وأن القرآن كلام الله ، وأن هناك حياة أخرى وراء هذه الحياة يلقى فيها كلٌ جزاءَ عمله ، فاما عمل صالح جزاؤه الجنة ورضوان من الله أكبر ،و إما عمل سيئ جزاؤه النار وسخط الله وغضبه .

أما السور المدنية فترى فيها ، زيادة على ما تقدم ، الاشتراع الدينى والاجتماعى والسياسى ، وذلك لما علمت من أنه بعد الهجرة قد توطدت دعائم الاسلام وأصبح محمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا ورئيس أمة. فشرع فى المدينة الصوم والزكاة والحج وقوانين الزواج والطلاق والميراث . وشرع قتال من ناهض دعوته ، ولم يكن فى المدينة صناديد لحماية الأوثان والدفاع عنها كما كان الشأن فى مكة ، انما كان فى المدينة يهود يقاومون الدعوة ومنافقون يبطنون الكفر و يظهرون الاسلام فتعرض القرآن لتبيين موقفهم ورد كيدهم .

أسلوبه

وللقرآن أسلوب عجيب يخالف ما كانت تنهجه العرب فى نظمها ونثرها ، لحسن تأليفه ، والتئام كلماته ، ووجوه ايجازه ، وجودة مقاطعه ، وحسن تدليله ،

وانسجام قَصَصه ، وبديع أمثاله ، كل هذا وغيره جعله فى أعلى درجات البلاغة، وجعل لأسلوبه من القوة ما يملأ القلب روعة ، لا يمل قارئه ولا يخلَق بترديده ، يسجّع أحيانا ولا يلتزم السجع ، ويوازن أحيانا ولا يلتزم الموازنة ، قد امتاز بسهولة ألفاظه حتى قل أن تجد فيها غريبا ، وهى مع سهولتها جزلة عذبة ، وألفاظه بعضها مع بعض متشاكلة منسجمة ، لا تحس فيها لفظا نبا عن أخيه . فاذا أضفت الى ذلك سموّ معانيه ، أدركت سر بلاغته واعجازه .

ونلاحظ أن أسلوب القرآن كان يتبع موقف الناس ازاء الدعوة ، فهو فى أكثر السور المكية كسورة ص و ق قصير الآيات ، قوى المقاطع ، قوى المعانى فى تهديد ووعيد .

وهو فى السور المدنية فى غير الغزوات ، طويل الآيات ، هادئ المقاطع يفيض لينا ورحمة يبعثان الأمل ، ويذهبان باليأس .

وهو فى شدته ولينه ، وطول مقاطعه وقصرها لا يُبارَى ، قد تحدَّى العرب أن يأتوا بمثله بل بعشر سور مثله مُفْتَرَيات بل بسورة من مثله فما فعلوا ولا قدروا .

وقد كان للقرآن الكريم الأثر الكبير فى حفظ اللغة العربية ونمو علومها ورقى آدابها فقد سحر الناس بيانه فعكفوا عليه يحفظونه ويقتبسون منه ويحاكونه ، ويتأثرون أساليبه وألفاظه وتراكيبه وعكف قوم على تدوين العلوم كالبلاغة والنحو خدمة له ومحاولة لفهم أسراره ، ولما دخلت الأمم المختلفة فى الاسلام رأوا تعلم اللغة العربية وسيلة من وسائل فهم الدين فأقبلوا عليها وعدوا تعلمها دينا ، وهجر كثير منهم لسانهم ولغتهم من أجلها ، ولما اختلفت الأمم فى اللهجات ، وأصبح لكل أمة لغة عامية ، يتخاطبون بها ظلت اللغة الأدبية والكتابية بينهم مشتركة ، وكان أكبر الفضل فى ذلك للقرآن .

الحـــديث

تدوينه

يراد بالحديث ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قولٍ قاله ، أو حكاية فعلٍ فعله ، وقد أضيف إلى ذلك بعض أخبار حكيت عن الصحابة .

وهذا الحديث لم يدون فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم كما دون القرآن ، بل كان يرويه الصحابة من ذاكرتهم ، غالبا ، فكانوا يَرْوُون أن النبى صلى الله عليه وسلم قال كذا أو فعل كذا بناء على ما شاهدوه أو سمعه بعضهم من بعض ، ومضى العصر الأول ولم يكن تدوين الحديث شائعا انمـا كانوا يروونه شِـفاها وحفظا . نعم ان بعض الصحابة كعبد الله بن عمرو كان يدون ما يســمع ولكنه كان يدونه لنفسه لا ليكون مؤلفا عاما للناس ، وفى القرن الثانى الهجرى شرع الناس يجمعون الحديث ويدونونه فى الكتب .

أغراضــــه

وللحديث منزلة دينية عظمية تلى منزلة القرآن ، فهو يبين ما ورد فى القرآن مجملا ، فمثلا أمر القرآن بالصـلاة ، ولكنه لم يبين كيفياتها ولا أوقاتها . وفرض القرآن الزكاة ولم يبين مقدارها ، ولا نوع المـال الذى تجب فيه الزكاة والذى لا تجب فجاء الحديث فأوضح ذلك كله ، وجاء الحديث فى الأغراض التى جاء من أجلها القرآن متمما له شارحا لمـا أجمِلَ منه ، مفصِّلا لمـا ورد فيه .

بلاغتــــه

وقد كان رســول الله صلى الله عليه وسلم من الفصاحة بالمكانة التى رأيتَ فلا غرو أن كان ما روى عنه من الحديث فى منزلة عالية من البلاغة مع ما قد علمت من أن الرواة كانوا يعتمدون على ذاكرتهم فكثيرا ما يوضع لفظ مكان لفظ وجملة مكان جملة ، بل قد أجاز قوم رواية الحديث بالمعنى فلم يكونوا يتقيدون التقيد التام بألفاظ الرسول صلى الله عليه وسلم .

أثره فى اللغة والآداب

كان للحديث فضل على اللغة والأدب فقد وسع المادة اللغوية بادخال ألفاظ فقهية ودينية لم تكن معروفة فى هذه المعانى من قبل ، وكان للنبي صلى الله عليه وسلم تعبيرات جديدة فنية مثل "الآن حمِى الوطِيس"، وهُدْنة على دَخَن ، وهذا يوم له مابعده ، وإن مّن البيان لسحرا" وكثير من أمثال ذلك مما عد ذخيرة أدبية قيمة .

وقد عاون الحديث القرآن الكريم فى حفظ اللغة وانتشارها ، وكان لتضافر العلماء على الحديث يجمعونه ويشرحونه ويستنبطون منه ، أثر كبير فى نشر الثقافة العلمية والأدبية .

وحدة الأمة العربيـــة

أثر الفتوح فى انتشار اللغة

الفتوح

رأيت قبلُ أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم توفى وكان الاسلام قد انتشر فى جزيرة العرب ، ولكنه لم يكن جاوزها ، ثم تتابعت الفتوح على أيدى الخلفاء من بعده ، ففتح العراق ، وفتحت فارس ، وفتح الشام ، وفتحت مصر . وفى عهد الوليد بن عبد الملك فتحت السند و بخارى وخوارزم وسمرقند الى "كشغر" وفتحت كذلك الأندلس .

كانت هذه البلاد ذات مدنية عظيمة ، ووارثة لحضارات الأمم القديمة ، فالعراق وارث الحضارة البابلية والأشورية ، والشام وارث الفينيقيين والأموريين والكنعانيين ، ومصر وارثة الحضارة المصرية القديمة واليونانيــة والرومانيــة ، وكانت هذه الممالك تتكلم لغات مختلفة فارسية وقبطية وسريانية وعبرية ويونانية وهكذا ، وهى مكونة من أجناس مختلفة سامية وحامية وآرية وتدين بأديان مختلفة سماوية وغير سماوية ، ولها عقليات مختلفة هى نتاج بيئاتهم وحضاراتهم .

انتشار الاسلام واللغة العربية فى البلاد المفتوحة

جاء الاسلام فأخضع هذه الأمم جميعا لحكمه ، ونشر فيها تعاليمه ، وكان العرب بحكم الفتح وبحكم أنهم ناشرو الدعوة هم العنصر السائد فى هـذه الممالك ، وهم القابضون على زمام الحكم ، وهم الولاة والقضاة ، ورؤساء الجند .

اختلط العرب بغيرهم من الأمم المفتوحة فى السكنى وفى التزاوج وفى كل مرافق الحياة ، ولم تعد الأمة الاسلامية أمة عربية فقط ، بل أمما مختلفة لها نزعات مختلفة ولغات مختلفة ، وكان من نتائج هذا أن أصبحت رُقْعة البلاد الاسلامية معرِضا تعرِض فيـه كل أمة ما كان لها من لغة وعلم ونُظُم سياسية واجتماعيـة ، وأحس العرب وهم فى هذا المعرض أنهم دون غيرهم من الأمم علما وفلسفة ونظما اجتماعية واقتصادية فلم يأنفوا من اقتباس ذلك منهم وصبغه بِصِبْغتهم ، و إلقاء مَسْحَة عليه من روحهم ، وتعديله على حسب مِزاجهم ، ولكنهم أحسوا ، بجانب ذلك ، أن لهم دينا ولغة أعلى شأنا وأعز مكانا ، وأن لهم الحق أن يفخَروا بهما ويدعوا اليهما ، وقد نجحوا ، فعلا ، فى هذه الدعوة ، وظل هذا النجاح حليفهم إلى اليوم ، فقد ساد الاسلام هذه الأقطار ، وقل من ظل متمسكا بدينه القديم ، وسادت اللغة العربيـة فاجتاحت ما صادفتـه أمامها من لغة قبطية فى مصر إلى لغة سريانيـة وعبرانية فى الشام والعراق ، وزاحمت اللغة الفارسية فى فارس ، وانتشرت هذه اللغة العربية فى أنحاء آسيا وإِفْرِيقِيَة وبعض أنحاء أوربا انتشارا يدعو إلى الاعجاب وفَنِيَت ، أو كادت ، جميع فروع اللغات السامية الأخرى ، وأصبحت اللغة العربية هى الأداة لنشر الثقافة والحضارة بين هذه الأمم المختلفة الأصقاع المتنائية الأطراف ، وذلك بعد أن اقتبست من اللغات المقهورة ما رأت نفسها فى حاجة اليه ، وبعد أن زادت فى مادة لغتها وتراكيبها وأساليبها ما دعا اليه ارتقاء الحضارة واتساع العمران ، وأصبح الأدب العربى هو أدب الفرس والمصريين والشاميين والمغاربة والأندلسيين وغيرهم ، وزاده ثروة أن صار نِتاجا لهذه الأمم جميعا .

الحياة الاسلامية

مظاهرها الدينية والاجتماعية والسياسية

المظاهر الدينية

دعا الاسـلام الى عبادة اله واحد ، هو إله كل شيء فى الوجود ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، وهو عالم بكل شيء ، قادر على كل شيء ، كما دعا إلى أن وراء هذه الحياة حياة أخرى يكافأ فيها كل انسان على ما أتى من خير وشر ، وقرر أن لا قيمة لانسان الا بعمله ، فليس خير الناس أكثرهم مالا وأعزهم نفرا ، ولكن أكرم الناس أتقاهم .

وهذه التعاليم تخالف مخالفة كبيرة ما كان عليه العرب فى جاهليتهم من عبادة أوثان وتكاثر بالمال والبنين ومناداة بالعصبية ، فالاسلام يهدم القبيلة ويُحلُّ محلها الرابطة الدينية ويقول الله تعالى (إنما المؤمنون إخوة) وفى الحديث «ليس منا من دعا إلى عصبية أو قاتل عصبية» .

كان للاسلام أثر كبير فى حياة العرب فقد نقلهم من عبادة صنم أو وثن لا يضر ولا ينفع إلى عبادة إله واسع السلطان ، واسع العلم (لَاتُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ) كذلك ألف بين قبائل العرب المختلفة المتحاربة ودعاهم إلى أن يكونوا كلهم كتلة واحدة ويتناسَوْا ما بينهم من إِحَن وأحقاد .

قوم الاسلام الأخلاق من جديد ، فعد رذيلة بعض ما كان يُعده الجاهليون فضيلة كالخمر والميسر والانتقام ، وعد فضيلة بعض ما كانوا يعدونه رذيلة كالصفح والمسالمة وردع الظالم عن ظلمه ، ولو كان من أقرب الناس اليك ، ووضع للحياة مثلا أعلى غير المثل الأعلى الجاهلى ، فقد كان ذلك فى الجاهلية الشهامة التى لا حد لها ، والكرم الى حد الاسراف ، والاخلاص التام للقبيلة ، والقسوة فى الانتقام ، والأخذ بالثار ، فجاء الاسلام يقول (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ

وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وابنَ السبِيلِ والسائِلِينَ وفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي البأساءِ وَالضَّرَاءِ وحِينَ البأسِ أولئِكَ الذِينَ صَدَقُوا وأولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) .

مع هذا فالنزعات الجاهلية لم تُمْحَ محوا تاما ، فالعصبية الجاهلية ، مثلا ، كانت تظهر فى كثير من البيئات ، وزادت نموا فى الدولة الأموية ، فكان النزاع بين القحطانيين والعدنانيين فى كل قطر ، وكان النزاع بين بنى هاشم وبنى أمية وأثرت هذه العصبية فى الأدب الأموى فقد انحاز الشعراء الى قبائل ثم أخذوا يشيدون بذكر قبائلهم ويهجون غيرهم ، كما سترى ، وكان بعض شبان بنى أمية وبنى هاشم يعيشون عيشة هى الى الجاهلية أقرب منها الى الاسلام من شراب وصيد وغزل ، ولكن هذا كله لايغير ما قررنا من أن الاسلام ، صبغ الناس ، الى حد كبير ، صِبْغة جديدة ووجه نزعاتهم ورغباتهم إلى وجهة جديدة ، وكانت الحياة الدينية من عبادة ومدارسة للقرآن والحديث ونحو ذلك متجلية فى أكثر البيئات .

المظاهر الاجتماعية والسياسية

نقل الاسلام العرب الى طور اجتماعى جديد فكوّن منهم أمة اسلامية واحدة تدين بدين واحد ، وتتكلم بلغة واحدة ، وتخضع لنظام واحد ، هو الشرع الاسلامى واخذ العرب يتحضرون وأصبح كثير منهم ينتمون الى المواطن بدل انتمائهم الى القبائل ، فكانوا يقولون جند قِنِّسْرِين وجند دمَشق وكانوا يستنكفون من الرجوع إلى البداوة .

أصلح الاسلام كثيرا مما كانوا عليه فى الجاهلية من النظم الاقتصادية ، كانوا يتعاملون بالربا ويفرطون فيه فجاء الاسلام يقول (يَأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) . وكان منهم من يحاول أن يبتز الأموال من أى طريق فاذا باع نقص الوزن واذا اشترى زاد فيه فجاء الاسلام يقول

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) . وكانوا يتلاعبون بالديون فيؤخرون آجالها أو يقدمونها أو يضيفون اليها ، أو ينكرونها بتاتا . فنزل القرآن يقول (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ) الى كثير من أمثال ذلك .

كذلك تعرض لكثير من النظم الاجتماعية فأصلحها ، فقد كان كثير منهم يتزوج غير مقيّد بعدد فحصر الاسلام الزواج فى عدد محدود ونص على أن الزوج اذا لم يستطع العدل بين الزوجات وجب عليه ألا يزيد على واحدة (فان خِفتم ألّا تعدلوا فواحدةً) وزاد الاسلام فى حرية المرأة فجعل لها من حقوق التصرف فى أموالها ما للرجل ؛ وشرع توريث المرأة ، وما كانت ترث من قبل لأن نظام الارث فى الجاهلية كان مبنيا على العصبية والذود عن القبيلة والأسرة فكانوا لا يورثون إلا من يلاقى العدو ويقاتل فى الحرب ، وليس للمرأة مجال فى شىء من ذلك ، وهذه الأنواع من الاصلاح ونحوها رفعت مستوى العرب الخلقى والاجتماعى حتى وصلوا فى ذلك الى شأوٍ بعيد .

وثَمَّ شىء آخر ، وهو أنه كان من أثر هذا الاتحاد ، وقوة العقيدة ، وخضوع العرب لحكومة تنظم أمورهم أنهم لما وُجِّهوا الى نشر الدعوة وفتح الممالك أَتَوْا من ذلك بما أدهش التاريخ ، فتغلبوا على الفرس وأزالوا دولتهم ، واقتطعوا جزءا كبيرا من الدولة الرومانية .

وهذا الفتح الكبير جعل مدنيـة الفرس ومدنية الروم تحت أعين العرب ، فتسربت مدنيتهما الى المسلمين ، فامتزجت العادات الفارسية والرومانية بعادات العرب ، وكذلك الشأن فى كل مرافق الحياة والنظم السياسية والاجتماعية والطبائع العقلية . وأصبحت الأمة الاسلامية مكونة من عناصر مختلفة ، وتزاوجت الأفكار والنظم والقوانين والعادات ، كما امتزجت الدماء ، وكانت هذه الممالك غنية بطبيعة أرضها وبكثرة خيراتها ورقى صناعتها ، فنَعِم العرب أيضا بهذا الغنى ،

واقتنوا الأموال والضياع والعبيد وعاش كثير منهم عيشة ترف ونعيم . وكان لذلك أثر كبير فى حياتهم الاجتماعية ، وكما اقتبس العرب من الفرس والرومان كثيرا من نظمهم السياسية كتدوين الدواوين وتنظيم الجيوش أخذ كثير من الفرس والرومان عن العرب ، الدين واللغة فدخلوا فى الاسلام أفواجا ، وتعلموا اللغة العربية وحذقوها وتأدبوا بآدابهم ، كما أسلفنا .

الأدب الاسلامى

تطور الشعر

بينما كانت حياة العرب الأدبية على الحال التى وصفناها آنفا ظهر الاسلام فى أوائل القرن السابع للمسيح فأثر ظهوره فى هذه الناحية من الحياة العربية كما أثر فى غيرها من أنحاء الحياة أشد تأثير وأبلغه ، أو قل إنه إنما أثر فى الحياة الأدبية فغيّرها وصوّرها صورة جديدة ، لأنه أثر فى نواحى الحياة الأخرى فبدّل الكثير منها تبديلا ، فقد رأيت أن الاسلام شرع للعرب نظما اجتماعية وسياسية واقتصادية لم يكن لهم بمثلها عهد من قبل . قاوموها أول الأمر مقاومة تختلف قوة وضعفا باختلاف الظروف والبيئات ، فما هى إلا أن أذعنوا لها طائعين أو كارهين حتى أثرت فى حياتهم العقلية والشعورية شيئا فشيئا . واذا كان الأدب مرآة العقل والشعور فليس غريبا أن يكون الأدب العربى بعد ظهور الاسلام مغايرا قليلا أو كثيرا للأدب الجاهلى ، لأنه يصف حياة غير الحياة الجاهلية ويصور عقلا غير العقل الجاهلى ، وشعورا غير الشعور الجاهلى ، على أن تأثير الاسلام فى الحياة الأدبية للعرب لم يحدث بجاءة ولم يتم مرة واحدة ، وانما حدث قليلا قليلا ، وظهر شيئا فشيئا ، وقضى العرب عصرا مستمسكين بأدبهم القديم لا يعدلون أو لا يكادون يعدلون عنه إلى غيره ، وقد بدأ عصر الانتقال هذا بشىء من الحيرة حين تلى القرآن عليهم فأنكروه وأكبروه . لأنه جاءهم بنحو من القول غريب لم يكونوا

يألفونه ، لا من جهة أغراضه ومعانيه ولا من جهة أساليبه وتفصيل آياته وإحكامها ، انما كانوا يألفون هذا النوع الأدبى القديم وهو الشعر يعبرون به عن أغراضهم ويصورون به خواطر نفوسهم ودخائل قلوبهم ، قد ألفوا أوزانه وقوافيه وتقطيعاته ، وألفوا فنونه ومعانيه وموضوعاته يتصرفون فيها على النحو الذى صورناه لك منذ حين ، فاذا هم يسمعون كلاما يتحدث اليهم فى الدين وما يستتبعه من جدال ونضال ، ومن نذير وتبشير . ومن اشتراع فى أمور الحياة على اختلافها ، فى أسلوب لا هو بالموزون المقفى ولا هو بالمرسل المطلق ، ولكنه قد فصل تفصيلا وانسجم انسجاما جديدا يطول حينا ويقصر حينا آخر ، فأنكروا هذا كله أول الأمر ، ثم تدبروه فبهرهم جماله وقهرتهم قوته فأحبوه واطمأنوا اليه ، وما هو إلا أن يمضى ربع قرن حتى تؤمن به الأمة العربية كلها وتتخذه لها نظاما وقانونا ومثلا أعلى فى حياتها الأدبية والسياسية والدينية والاجتماعية . وليس من شك فى أن انكار بعض العرب للقرآن واكبار بعضهم ، واجلالهم اياه منذ البعثة الى أن قبض النبى صلى الله عليه وسلم هما الظاهرتان اللتان تختصران الحياة الأدبية للعرب فى عصر النبوة ، فقد انقسم العرب الذين وصلت اليهم الدعوة الاسلامية وتلى عليهم القرآن إلى فريقين، فريق يُكبره ويذود عنه، وفريق آخر ينكره ويقاومه ، وظهر أثر ذلك كله فى الشعر ، فنهض جماعة من الشعراء يذودون عن النبى ودينه ، وظهرت جماعة أخرى يناضلون عن الدين القديم ويعادون النبى وأصحابه، ومهما يكن من شيء فقد كان هذا الشعر الذى صوّر الخصومة بين قريش وأنصار النبى جاهليا فى ألفاظه ومعانيه ، وفى أساليبه وأغراضه ولكنه ، على هذا كله اشتمل على أشياء لم يكن يشتمل عليها الشعر من قبل ، فتناول معانى دينية قلما كان عرب الحجاز يُعْنَون بها أو يلتفتون اليها ، وكثرت فيه ألفاظ لم تكن تتردد على ألسنة الشعراء من قبل ، وانما ظهرت لأن القرآن استعملها وأذاعها بين الناس ، فذُكرت الجنة والنار ، وذكر الايمان والكفر ، وذكر الثواب والعقاب والصلاة والزكاة والصيام وما يشبه هذه الألفاظ والمعانى ،

وتفاوتت حظوظ الشعراء من استعمال هـذه الألفاظ والقصد إلى هذه المعانى ، فمنهم من كان يكثر من ذلك ويلح فيه كعبد الله بن رَواحة من شعراء الأنصار ، ومنهم من كان يذكره حينا ويعرض عنه حينا آخر كحسان بن ثابت ، ومنهـم من كان لا يلم به إلا لِمـاما كشعراء قريش المعارضين للنبي ودينه الجديد، وقد استتبعت هجرة النبي إلى المدينة حروبا بينه وبين قريش وحلفائها، ونشأت عن هذه الحروب ظروف دعت إلى قول الشـعر والاكثار منـه ، دعت الى الفخر والمدح والرثاء والهجاء ، وليس من شك فى أن الشعر العربى قد نهض فى هـذا العصر من حياة النبي صلى الله عليه وسلم نهضة لم يعرفها فى العصر الجاهلى الخالص ، وآية ذلك أن الشعر كثر فى قريش ولم تكن قريش تعرف بالشعر وكثرته قبل ظهور الاسـلام ، وقبل اشـتداد الخصومة بينها وبين النبي وأصحـابه ، ثم جمع الله كلمة العرب على الاسلام وقُبِضَ النبي وثارت العرب مرة أخيرة فى حروب الردة، فاضطرها أبو بكر رضى الله عنـه الى الاذعان للدين الجديد ، ثم دفعها الى الفتح ، ومضى على سنته الخلفاء من بعده فانقطعت المعارضة للاسلام فى بلاد العرب ، وزالت الخصومة الدينية فى الحجاز ، واشتد عمر على الذين كانوا يذكرون الخصومة القـديمة ويروون ما قيل فيها من الشعر أيام النبي صـلى الله عليه وسـلم حتى نهى حسان فى بعض الأحيان عن انشاد شعره فى مسجد النبي، فضعُفت العناية بالشعر بعض الضعف، وانصرف الناس عن الانتاج الفنى إلى الحروب والفتوح وتأسيس الدولة وتمصير الأمصار واستقبال هـذا السلطان العظيم الذى بسـطه الله للعرب على الأرض ، ضعفت العناية بالشعر بعض الضعف ولكن العرب لم تنصرف عنـه الانصراف كله ، وانمـا ظل فيها شعراء يقولون على النحو الجاهلى القديم ، يمدحون ويرثون ويهجون ويفخرون ولا سيمـا بالغزو والفتوح ، ظل الحُطَيْئةُ وكعب بن زُهَـيْرٍ والشَّماخ بن ضِرار والنابغة الجَعْدى وغيرهم يقولون الشعر كما كانوا يقولونه من قبل ، وربما كان من الحق أن نلاحظ أن جماعة من الشعراء انصرفوا أو كادوا ينصرفون عن الشعر بعد وفاة النبي كحسان ولبيد، وأن قوما آخرين مضوا فيه لم يتأثروا بهذه

الحياة الجديدة أو تأثروا بها كارهين كالحطيئة الذى ظل فيما كان فيه من هجاء وايذاء وتكسب بالشعر فى غير مروءة ولا تعفف عن المسألة والالحاف فيها حتى اضطُر عمر الى حبسه فى ذلك ، وكضابىء بن الحارث البُرْجُمِى الذى أقذع فى الهجاء حتى اضطر عثمان إلى حبسه فمات فى السجن ، هؤلاء الشعراء احتفظوا بجاهليتهم احتفاظا شديدا فى حياتهم الخاصة ، وفى تفكيرهم ، وفيما كانوا ينظمون من شعر، ولكنهم مع هذا تأثروا فى ألفاظهم و بعض معانيهم بالقرآن والحياة الاسلامية الجديدة فظهرت فى شعرهم ألفاظ ومعان لم تكن مألوفة من قبل والناس جميعا يذكرون قول الحطيئة فى هجاء الزِّبْرِقان بن بدر :

من يفعلِ الخير لا يعدَم جوازِيه ... لا يذهب العرف بين اللهِ والناسِ

تكوّن الأدب الاسلامى

وانقضت خلافة أبى بكر وعمر وشطر من خلافة عثمان فى حرب وفتح و بسط لسلطان الاسلام على بلاد الفرس والروم، فكان شباب الأمة العربية وأولو البأس منها منصرفين عن القول إلى العمل، وكان شيوخ هذه الأمة وذوو الرأى منصرفين إلى تدبير الدولة والعناية بسياستها ، وكان جماعة من شيوخ البادية محتفظين فى باديتهم بحياتهم الجاهلية خاضعين للنظام الجديد ، منهم من يحبه و يطمئن اليه، ومنهم من يكرهه و ينفر منه، وهم يقولون الشعر و يرددونه و يتخذون قوله وروايته سَمَرَ الليل ولهو النهار، وفى أثناء هذا كله كانت الأحداث تنشأ و يتلو بعضها بعضا، وكان نشوءها وتعاقبها يغيران من حياة هذا الجيل العربى، و يكوّنان الجيل الناشئ تكوينا جديدا ، فلم تكد تنتهى خلافة عثمان حتى كانت الحروب والفتوح وما أفاء الله على المسلمين من فىء وما امتلأت به أيدى العرب من مال ، وما نشأ عن هذا من اختلاط العرب بالأمم الأجنبية اختلاطا شديدا قد أخذت تعمل فى حياة العرب عملها ، وتحدث فيها آثارها الطبيعية ، فظهر التنافس واشتد ، وعظُم الجهاد بين العرب ، وانصرفت سيوفهم عن العدو إلى أنفسهم، وكانت بينهم فتن سياسية

ودينيـة سُفِكت فيها دماء الآلاف من المسلمين ، وقُتِـل عثمان وعلى ، ونشأت خصومة عنيفة قسمت هـذه الأمة الى أحزاب وشيع ، بعد أن كان الاسلام قد وحّد رأيهـا وجمع كلمتها وأخضعها لسلطان واحد وهو سلطان الخلافة ، وكما أن الخصومة التى كانت بين النبي وقريش أنطقت الشـعراء بكثير من الشعر وبعثت فيهم روحا قويا ، أنطقت الخصومة التى نشأت بين المسلمين فى أيام عثمان وعلى الشعراء بكثير من الشعر أيضا وظهر فيه هذا الروح القوى الذى يظهر عادة فى الآثار الأدبية شـعرا ونثرا كلمـا اشتدت الخصومة وعظُم الجهاد بين الأحزاب ثم استقر الأمر بعد ذلك لخليفةواحد هو معاوية بن أبى سفيان زعيم الأمويين نحو عشرين سنة هدأت فيها ثائرة الخصومة وعادت فيها كلمة المسـلمين إلى الاجتماع ولكنه انمـا كان هدوءا موقتا ، هدوء من يسـتجمع قواه ليحسن الوثوب ، فمـا كاد يموت معاوية سنة ٦٠ للهجرة حتى عاد العرب إلى ما كانوا فيه من خصومه وصراع لا يشبههما إلا ما كانوا عليه من الشر قبل ظهور الاسـلام ، فكثرت أحزابهـم السياسية واشتدت الحروب بين هذه الأحزاب بالسيف واللسان ، وكثر الفساد ، واضطرب أمر الدولة ، وطمع فيهـا الأجنبى ، واستيئس الناس من الأمن والعافية ، وظهر فى هـذا الاضطراب أمر الشعر قويا كما كان إبّان الفتن الأولى بين على ومعاوية ، ولكن الشـعر الذى ظهر قويا فى هـذا العصر مخالف مخالفة شديدة للشعر الذى نعرفه عن الجاهليين قبل الاسلام وإبّان ظهوره وأيام الخلفاء الراشدين ، ذلك لأن عصر الانتقال كان قد انقضى ، وكان هذا الانتقال قد تم ، وكان الجيل العربى الذى أدرك الجاهلية والاسلام قد انقرض أوكاد ، ونشأ مكانه جيل آخر اسـلامى خالص ، ولد فى الاسلام ونشأ فى ظله وأخذ بآدابه وأصوله ونظمه ولم يشهد من الحياة الجاهلية شيئا ولم يعرف من أمرها إلا ما كان يَقُصُّه عليه الآباء والأمهات ، ورأى حياة جديدة فيها سعة فى العيش ولين ، وفيها نعمة ويسر ، واتصل بأجيال من الناس لم يكن آباؤه يتصلون بهم ، اتصـل بالفرس والروم ورعايا الفرس والروم ، ونشأ على هـذا كله نشأة العزيز المتسلط وقد دانت

له الأرض وذلت له الأمم ، فليس غريبا أن يكون لهذا الجيل الجديد عقل جديد مخالف لعقل الجيل الذى سبقه ، وشعور مغاير لشعور هذا الجيل ، وليس غريبا أن تكون لهذا العقل الجديد ، والشعور الجديد مرآة جديدة هى هذا الأدب الذى نسميه بالأدب الاسلامى ، وهو أدب اسلامى حقا ، لأنه كما رأيت قد نشأ نشأة اسلامية خالصة . ومن هذا تعوّد القدماء من علمـاء المسلمين اذا ذكروا الشـعر الجاهلى أن يدلوا بهذا اللفظ على كل الشـعر الذى قيل منذ العصر الجاهلى إلى أن ظهر هذا الجيل الجديد من شعراء الاسلام ، وعلى هذا الجيل الجديد وحده كانوا يطلقون لفظ الشعراء الاسلاميين .

صورة من الحياة العربية الجديدة

ولأجل أن تفهم هذا الشعر الاسلامى على وجهه ، وتضعه من الشعر العربى كله فى موضعه ، وتتبين الأغراض التى كان يقصد اليها ، والألفاظ والأساليب التى كان يصطنعها ، لأجل أن تفهم تطور الشـعر الجاهلى إلى هذا الطور الجديد يحسن أن نعطيك صورة موجزة صحيحة بقدر الاستطاعة من الحياة العربية الجديدة التى كان يصورها الشعر العربى الجديد ، فقد بعُد عهد العرب بتلك الحياة القديمة التى كان السلطان فيها للقبيلة ورؤسائهـا ، وخضعت الأمة العربية كلها لسلطان سياسى واحد منظم قائم على أسس جديدة ، وأصبح العربى لا يكسب حياته من الغزو والغارة كما كان يفعل من قبل ، وانمـا يكسبها من طرق أخرى كان يجهلها فى أكثر الأحيان قبل الاسلام فشُرِعت له بعده ، ومُهِّدت له السبل اليها ، منها التجارة ومنها استثمار الأرض ، ومنها الجندية وما كانت تضمن لصاحبها من عطاء فى بيت المـال ، ومنها أعمال الدولة على اختلافها فى السياسة والادارة والقضاء ، واتسع أفق الحياة أمام العربى فتجاوز بلاد العرب إلى البلاد الاسلامية التى بعُدت حدودها فى الشرق والغرب ، واشتملت على أمم كان لها قبل الاسلام البأس والقوة ، وأصبحت منذ الفتوح خاضعة مغلوبة تدين لهـذه الأمة الفاتحة ، وتنفق ما تملك

من جهد وقوة فتملأ خزائنها بالمال وتمكنها من الحياة اليسيرة اللينة ، وبعد أن كان العرب المقيمون فى العراق خاضعين أو كالخاضعين لسلطان الفرس أصبحوا سادة لهؤلاء الفرس، وبعد أن كان العرب المقيمون فى مشارف الشام خاضعين أو كالخاضعين لسلطان الروم أصبحوا سادة للشام،وأصبح الروم المقيمون فى الشام رعايا لهم،وبعد أن كان العربى لايزور مصر الا لماما استقرسلطان العرب فى مصر واندفعت اليها أفواجهم يقيمون ويستعمرون ، ثم تجاوزوها إلى إفريقية الشمالية ، ثم عبروا المضيق إلى أسبانيا فاستقروا فيها سادة منتصرين ، كل هذا غيّر من نفوس العرب وأخلاقهم وحياتهم ، ثم لم تلبث هذه الأمة كما قدمنا أن ظهر فيها التنافس فى السلطان ، فانقسمت أحزابا وشيعا ، يجاهد بعضها بعضا ، وينصب بعضها الحرب لبعض، وقد كانت بعد أن مات معاوية منقسمة الى أحزاب قوية نستطيع أن نسميها ونحصيها ، فحزب قد التف حول بنى أمية فى الشام يناصرهم ويريد أن يثبت لهم الملك ، وحزب قد التف حول عبد الله بن الزبير فى الحجاز يذود عنه ويعينه على ما يطمع فيه من سلطان ، وحزب قد التف حول أهل البيت النبوى من بنى هاشم فى العراق يدعو إلى أن تكون لهم الخلافة ، وحزب رابع ينكر هذه الأحزاب كلها ويرميها بالكفر ، ويصفها بالمروق من الدين ، ويُشب عليها أشد الحروب نكرا ، وأقبحها أثرا ، وهو حزب الخوارج الذين ينكرون أن تكون الخلافة فى قبيلة أو شعب دون شعب ، ويريدون أن يكون الأمر كله شورى بين المسلمين ، وكان الجهاد بين هذه الأحزاب الأربعة متصلا عنيفا منكر الأثر، ولا سيما بعد أن مات معاوية واضطرب الأمر على يزيد ، وبعد أن مات يزيد ابن معاوية بنوع خاص ، وكان الأدب أداة من أدوات هذا الجهاد ، لكل حزب شعراؤه وخطباؤه،ثم انتصر حزب الأمويين على حزب الزبيريين فمحاه محوا، وانتصر على الشيعة فاضطرها إلى معارضة تظهر متى استطاعت وتخفى متى اشتد البأس ، ولكنها قائمة على كل حال لها أنصارها ولها شعراؤها ، وخطباؤها ، ولم يثبت لبنى أمية الا حزب الخوارج يجاهدهم جهادا عنيفا ، حتى اذا انتصروا عليه لم يضعف أمره إلا ريثما يقوى مرة أخرى .

مواطن الأدب الاسلامى

وعلى كل حال قد انبسط سلطان الأمويين على أقطار البلاد الأسلامية وعادت وحدة الدولة العربية أيام عبد الملك بن مروان وبنيه الى شئ يشبه ما كانت عليه أيام معاوية ، وأصبحت مراكز القوة العربية منذ ذاك الوقت ثلاثة : الشام وفيها الخلافة وما تستتبعه من جلال وبأس وسطوة . والعراق وفيه الشيعة والمعارضة ، وفيه فريق من الذين كانوا ينصرون ابن الزبير، وفيه كثرة من الفرس وأخلاط من أمم أخرى ، وفيه مال كثير وأرض خِصْبة وفيه لهذا كله اضطراب متصل ومعارضة مستمرة ، وصراع بين الآراء السياسية والدينية لا يكاد ينقطع . والحجاز ، وهو مهد الاسلام وفيه مكة موطن قريش ، والمدينة موطن الأنصار ، وقد اقتضت سياسة بنى أمية أن يصبح موطنا للشباب المُتْرَف من أبناء المهاجرين والأنصار ، يقيمون فيه لا يتركونه الا باذن من الخليفة ، وقد فرضت لهم من بيت المال أرزاق ضخمة ، وأخذ الخلفاء أنفسهم بالتوسعة عليهم فى العطاء ، وورثوا عن آبائهم الفاتحين أموالا لاتكاد تحصى ، فهم أهل نعمة وترف وفراغ وفيهم فصاحة ولَسَن ، ولهم شعور رقيق ، وحس دقيق ، وعواطف ملتهبة ، وفيهم شيء من اليأس والامتعاض والسخط على الدولة القائمة يظهرونه متى وجدوا إلى اظهاره سبيلا ، ويخفونه حين لا يكون من اخفائه بدّ ، واختلف حال الأدب فى هذه المراكز الثلاثة باختلاف شئونها السياسية والطبيعية والاقتصادية .

الأدب فى الأمصار

فأما الشام فلم يكن فيه أدب الا ما كان ينقل اليه مع الوافدين على الخلفاء من أهل العراق والحجاز ، لأن كثرة العرب التى كانت تقيم به كانت يمانية لاحظ لها من فصاحة ولا لَسَن ، وليس لها ما للعرب العدنانية من هذا المزاج المنتج الذى نراه فيما ورثنا عنهم من أدب جاهلى واسلامى ، وأما العراق فكان بطبيعة ظروفه السياسية والاجتماعية والاقتصادية موطنا لهذا الأدب المضطرب الخصيب الذى

كان فى غليان مستمر، وانتاج متصل . فيه معارضة سياسية، ونضال بين الأحزاب ففيه اذن خطابة سياسية وشعر سياسى ، وفيه جهاد بين القبائل وتنافس بين الأفراد على نحو ما كان يقع بين العرب فى جاهليتهم، ففيه اذًا شعر يكثر فيه الهجاء للأفراد والجماعات ويكثر فيه الفخر ، ويكثر فيه المدح أيضا، وأما الحجاز فكان بحكم ظروفه التى قدمناها موطنا لشيئين متناقضين أشد التناقض . كان موطنا للنُّسك والتقوى والجد فى درس العلوم الدينية وتحصيلها لمكان مكة والمدينة من ذلك، وكان موطنا للهو والعبث والمجون لمكان هؤلاء الأشراف من قريش والأنصار وثروتهم واضطرارهم إلى الفراغ .

أغراض الشعر الاسلامى

كل هذا يعطيك صورة من الحياة العربية فى أواسط القرن الأول للهجرة ، وهو فى الوقت نفسه يبين لك الأغراض التى كان يقصد اليها الشعر الاسلامى فى ذلك العصر ، فقد احتفظ بفنونه القديمة التى كان يصطنعها فى الجاهلية . احتفظ بالمدح والهجاء والفخر والرثاء وما اليها ، واضاف اليها فنونا لم تكن . كما غير بعض الفنون القديمة تغييرا قويا أو ضعيفا .

الغَــزَل

فمن الفنون التى قويت فى هذا العصر الغزل ، ولم يكن حظ الجاهليين منه الا شيئا يسيرا اذا قيس بحظ الغزل فى هذا العصر ، وذلك أنه لما كانت الحياة الاسلامية الجديدة، وكثر ترف الأشراف فى الحجاز ، ورق مِزاج أهل البدو من هذا الاقليم بتأثير القرآن والحياة الجديدة ظهر هذا الفن فى الحجاز على أنه فن يقصد لنفسه ، ويصف عواطف الشاعر وما يعبَث بنفسه وقلبه من الأهواء والميول ، واختلفت مذاهب الشعراء الحجازيين فى هذا الفن باختلاف بيئاتهم ، فأما أهل البادية منهم فكان شعرهم عُذْرِيا عفيفا لا اثم فيه ولا فجور ، ولا تجاوز للمألوف من أخلاق الناس ، وانما هو الحب الطاهر القوى الحاد ، يتسلط على قلب

الشاعر ونفســه فيملك عليه أمره ، ويرقى به إلى طور من أطوار النفس يشبه الهيام ، فيصور هذا الطور فى شعر عذب لذيذ لا حرج فى قراءته على أحد ، وفى قراءته لذة لكل إنسان ، وزعيم هؤلاء الغزلين من أهل البادية جميل بن مَعْمَر الذى اشتهر (بصاحب بثينة) ، والذى تغنت بادية الحجاز بغزله عصر بنى أمية ورُوِى لنا من شعره الشئ القليل نجده متفرقا فى كتب الأدب .

وأما أهل المدن فى مكة والطائف والمدينة فكان منهم كما قدمنا أصحاب ثروة ضخمة ولهو كثير ، وكان شعرهم يصف حياتهم هــذه وصفا صادقا ، ويصور ما فيها من لهو تصويرا دقيقا ، فظهر فيه شىء من الاثم والعبث يختلف باختلاف مِزاج الشعراء . ومن هؤلاء الأَحْوَص بن محمد الانصارى الذى مازال به اسرافه فى اللهو والتعرض لأهل بلده وولاة المــدينة حتى عُذِّب ونفى أيام سليمان بن عبد الملك ، وكالعَرْجىّ فى الطائف ومكة وقد كان فاتكا مسرفا فى الفتك والتعرض لولاة مكة والسخط على خلفاء دِمَشْق حتى عذب وحبس ومات فى السجن .

عمر بن أبى ربيعة

وكعمر بن أبى ربيعة وهو زعيم هؤلاء الغزلين من أهل المدن بل زعيم الغزلين فى هذا العصر بوجه عام ، وقد يصح أن نعتبره زعيم الغزلين فى الشعر العربى إلى هذا العصر الذى نعيش فيه ، فلا بد من وقفة قصيرة عنده نلم فيها بشىء من شعره إلماما .

أما أخباره فكثيرة مبثوثة فى الكتب ، جمع منهـا صاحب الأغانى مقدارا لا بأس به ، منها الصحيح ومنها المخترع ، والمعروف أنه ولد فى اليوم الذى مات فيه عمر بن الخطاب سنة ٢٣ هـ ومات سنة ٩٣ هـ ونشأ فى أسرة غنية من بنى مخزوم فى مكة نشأة حسنة ، فيها ترف ونعمة ، وكان أخوه الحارث بن أبى ربيعة رجلا صالحا تقيا ، وكان من ولاة عبد الله بن الزبير على البصرة ، ولما شب عمر بن ابى ربيعة انصرف إلى الشعر عن كل شىء إلا حياة المترفين ، وكان فيما يقول الرواة يقضى عامه بمكة فى لهو وقول للشعر ، حتى اذا كان موسم الحج خرج من مكة

فى زينة حسنة فاستقبل الحاج من حيث يأتون من العراق والشام والمدينة ، وتعرض لنساء الأشراف وبناتهم حتى يراهن ، ولم يكن يتحرج أن يرقبهن فى أثناء الطواف بالكعبة حتى إذا انصرفن عن مكة قال فيهن الشعر ، وظل كذلك إلى أن مات .

وليس من شك فى أن عمر قد ابتدع فى الشعر فنا جديدا بكل ما تحتمل هذه الكلمة من معنى ، فقد جعل الغزل غرضا يقصد لنفسه لا لشىء آخر كما جعله الشعراء الغزلون من أهل البادية ، وسلك إلى هذا الغرض طرقا مختلفة ولكنها كلها طريفة ، وأظهر ما تمتاز به هذه الطرق أنها كانت قَصَصِيّة ، فلم يكن عمر يتحدث عن النساء كما تعوّد الشعراء أن يتحدثوا عنهن ، وانما كان يتحدث عن نفسه ، ويقص ماوقع له معهن ، أو ما تخيل أنه قد وقع له معهن ، فكانت قصيدته لذلك قصة غرامية قصيرة ، ولكنها من العذوبة والرقة ودقة الوصف وتصوير ما يجده الحس والقلب بحيث تملؤك اعجابا بها واطمئنانا إليها

ولم يكن فى أكثر حالاته يقص كما يقص غيره من الشعراء ، وانما كان يبعث فى قصصِه حياة قوية ، فيُنطق الأشخاص ويُحدِث بينهم من الحوار الدقيق ماَ يلَذ ويسحَر ، ولوأتيح له أن يطيل وينوع لوصل إلى اختراع الشعر التمثيلى من بعض النواحى . وديوانه ضخم فيه شعر كثير وليس من شك فى أنه لا يجمع كل ما قال عمر

تحليل قصيدة لعمر

ولنأخذ من هذا الديوان الضخم قصيدة مشهورة يتخذها الأدباء عنوانا لشعره وان كان فى شعره الكثير ما قد يكون أجمل منها وألذ موقعا فى النفس ، وفى هذه القصيدة يتمثل روح عمر وما فيه من خفة وظَرْف ، كما يتمثل حظه الغريب من تيسير الشعر وتسهيله ، واختيار الألفاظ الحلوة المألوفة التى لا تبلغ بها السهولة إلى الإسفاف ، ولا تصل بها القوة إلى الغلظة والغرابة ، والتى تمثل أحسن تمثيل لغة قريش فى هذا العصر ، ولغة النساء من قريش بنوع خاص ، وهذه القصيدة قصة صغيرة ولكنها ممتعة مؤثرة ، فقد بدأها الشاعر بذكر صاحبته "نُعْم"

وسؤال نفسه أهو منصرف عنها فى يوم من الأيام ؟ ثم يذكر حاجته اليها وكَلَفَهُ بهـا ، وتعذر الاتصال بينه وبينها ، واستحالة سُلُوّهِ عنها ، وعجزه عن الصبر عن لقائها .

تهيم إلى نُعْمٍ فلا الشـملُ جامِـعٌ ولا الحبلُ موصولٌ ولا القلبُ مُقْصِر
ولا قُرْبُ نُعْمٍ إن دنتْ لك نافِـعٌ ولا نأيُهـا يُسلِي ولا انت تصـبِرِ

وأحب أن تلاحظ تكرار "نُعم" والالحاح فى التكرار ، لا فى هذين البيتين وحدهما ، بل فيهما وفيما قبلهما من الشعر ، فهو لم يكثر من ذكر هذا الاسم عبثا وانما هو اسم حبيب اليه ، كريم عليه ، فهو يردده لأنه يجد فى ترديده لذة وراحة ، ثم يذكر الشاعر أن هناك عقبة دون ما يريد من حب "نُعم" لو عرضت لغيره لانتهى عن هذا الحب إلى يأس مريح ، ولكنه لا يرعوى ولا يزدجر ، ولا يفكر فيما يعترض حبه من صعاب ، وهذه العقبة هى أنه لا يستطيع أن يزور نُعما أو يدنو منها حتى يحس من ذى قرابة لها بغضا له وحقدا عليه ومكرا به وتهيئوا لايذائه ، وهو مع ذلك يتجنب أو يحـاول أن يتجنب زيارتها رفقا بها واشفاقا عليها ، فقد عُرِف حبه إياها وتبعه الرقباء لا يفارقونه ، فهم يُشَهِّرُونَ به ان زارها ويشهرون به فى شىء من النُكر لا يحبه .

أَلِـكْنِي إليهـا بِالسلام فانه يُشَهَّرُ إلمـامِى بِها وَيُنَكَّرُ

فانظر اليه كيف يتجنب زيارة "نُعم" مخافة التشهير والنكير ثم لا يلبث هو أن يشهِّر بها نفسُه فيقول .

بِآيةِ ما قالتْ غدَاة لقِيتُهـا بِمَدْفَعِ أَكْنانٍ أهـذا المُشَهَّرُ

ثم انظر اليه كيف يصور ما يقع بين النساء من حِوار اذا عرض لهن رجل كن يعرفنه فأنكرنه لِمـا تغير من شأنه .

قِفِي فانظرِى أَسْماءُ هل تعرفينه أهذا المُغيرِىُّ الذى كان يُذْكَرُ
أهذا الذى اطرَيْتِ نعتا فلم اكن وعيشِكِ انساه الى يومِ أُقْـبرُ
فقالت نعم لاشك غَـيَّر لونَه سرى الليلِ يُحْيِي نصَّه والتهجُّرُ
لئن كان اياه لقد حال بعدنا عنِ العهدِ والإنسانُ قـد يتغير

فنعم تنكره ، وأسماء تعرفه ، وتعالى ما كان من تغيره بكثرة ما هو فيه من سُرَى الليل وسفر النهار ، ثم يدفع هو عن نفسة و يصدق ما ذهبت اليه أسماء من تعليل فيقول ان نُعما إنما رأت رجلا لا يستقر ، فهو متعرض لحر الشمس ، متعرض لبرد الليل ، أخو سفر ، جواب أرض ، تتقاذفه الفلوات ، فهو أشعث أغبر ضئيل نحيل ، لولا أن عليه بقيةمن نعمة ، ثم يستلذ هذا التشهير لما فيه من ذكرى محببةٍ اليه فيمضى فيه ، و يستأنف قصة حلوة كثر أمثالها فى شعره حتى عرف بها ، وحتى ذ كركلما قرىء مثلها فى شعر شاعر آخر .

ومجمل هذه القصة أنه أراد لقاء صاحبته ليلة وهى نازلة مع أهلها بذِى دَوْرانَ فتجشم سرى الليل ، ثم أخذ يصف ملاقاتها وما دار بينهما من حوار فى أسلوب قصصى رائع إلى أن يقول

فلما أَجَزْنا ساحةَ الحيّ قلنَ لِى   ألم تتقِ الأعداءَ والليلُ مُقْمِر

وَقُلْنَ أهذا دابك الدهرَ سادِرا   اما تستحى أو تَرْعَوِى او تُفَكِر

اذا جئت فامنح طرفَ عينيكَ غيرنَا   لِكى يَحْسَبوا ان الهوى حيثُ تنظر

وعلى هذا النحو من الغزل القصصى أو القصص الغزلى يمضى عمر بن أبى ربيعة فى كل شعره ، وسواء أكان قصصه هذا تصويرا لما وقع أم خيالا صرفا أم مزاجا من الحق والخيال فهو يصور على كل حال حياة المترفين فى الحجاز وميولهم وأهواءهم ومذهبهم فى التعبير عن هذه الميول والأهواء كاأنه يصور حياة بعض نساء العرب وميولهن وأهواءهن وطائفة من أخلاقهن .

وقد رأيت فى لغته من السهولة واللين ومن المتانة والقوة ما قدمنا الاشارة اليه ، وأمثال عمر بن أبى ربيعة من الغزلين فى الحجاز يذهبون مذهبه أو مذهبا يقارب مذهبه ، وقد كثر هذا النحو من الغزل فى الحجاز كما قدمنا ، وكانت نشأته وكثرته نتيجة للحياة الحجازية .

الغناء

فليس غريبا اذًا أن يظهر مع هذا الغزل وينمو معه أيضا فن آخر ملازم له هو أيضا نتيجة حياة الترف واللهو وصفاء المزاج ورقة الطبع وحدة العاطفة ، وهو الغناء والحق أن الغناء ظهر فى الحجاز فى نفس الوقت الذى ظهر فيه الغزل ، ولم يعرف فى الأقاليم العربية الأخرى إلا حين انتقل اليها من الحجاز ، كما أن الذين تغزلوا من أهل العراق والجزيرة ونجد انما كانوا يتأثرون أصحاب الغزل من أهل الحجاز . وليس هنا موضع البحث عن أصل الغناء وتاريخه ، ولكن شيئا لا بد من الاشارة اليه ، وهو أن كثرة الموالى من الفرس والروم رجالا ونساء فى الحجاز كان لها أثر قوى جدا فى نشأة الغناء ونموه كما كان لها أثر ما فى نشأة الغزل ونموه أيضا .

الشعر السياسى

ومن الفنون التى استُحدِثت فى الاسلام الشعر السياسى . وقد كانت نشأته ظاهرة طبيعية دعت اليها الحياة الجديدة التى قدمنا تصويرها وما كان فيها من صراع بين الأحزاب ، وجهاد بين آرائها المختلفة فى نظام الحكم ، وأشخاص الناهضين به من الزعماء ، واتصال هذا النظام وهؤلاء الأشخاص بالدين الذى هو أساس الحكم عند المسلمين ، على أن هذا الشعر السياسى الجديد إنما هو طور انتهى اليه الشعر العربى من بعض نواحيه ، فقد كانت الخصومة تقع فى الجاهلية بين القبائل ، فيقول فيها الشعراء مدافعين عن قبائلهم أو محرِّضين لها على الحرب والقتال ، أو داعين لها إلى الصلح والسلم . وقد نشأت الخصومة بين المسلمين والوثنيين أيام النبوة فقال الشعراء فيها الشعر كما قدمنا . ونشأت كذلك الخصومة بين المسلمين أنفسهم حين ظهرت الفتنة السياسية أيام عثمان فقيل فيها الشعر . فظاهر أن الشعر السياسى الذى نريد أن نتحدث عنه الآن إنما هو نتيجة التطور الطبيعى لهذا الشعر الذى كان يقال فى الخصومات بين القبائل والجماعات .

ويمكننا أن نميز هذا الطور من أطوار الشعر السياسى بأنه طور تنظيم الأحزاب السياسية واستقرارها على قواعد معينة ثابتة ، فلم يكن هذا الشعر خاضعا للظروف التى تعرض لحياة الافراد والقبائل ، وانما كان صورة صحيحة لحياة الأحزاب التى يناضل عنها وينطق بلسانها ، فحزب الشّيعة كان يقوم على أن الخلافة يجب أن تكون فى بنى هاشم ، أو بعبارة أدق يجب أن تكون فى أبناء على من بنى هاشم ، لأنهم أحفاد النبى صلى الله عليه وسلم وأبناء عمه ، ولأن النبى قد أوصى لأبيهم علّى بالحكم كما يذكرون ، وحول هذا الأصل الأساسى نشأت أصول أخرى إضافية تعرضت للتغيير والتطور ، ولكن الأصل الأساسى ظل قائما فيما تقرأ من شعر الشيعة فستراه مدافعا دائما عن هذا الأصل ، مناصرا للذين ينهضون به من الزعماء ، مناضلا عنهم خصومهم من زعماء الأحزاب الأخرى ، وقل مثل ذلك فى حزب الأمويين ، الذى كان يقوم على أن الحكم يجب أن يكون فى بنى أمية ، لأن خليفة أمويا وهو (عثمان) تولى خلافة المسلمين من طريقها الشرعى فقتل ظلما ولم يُثْأَر به ، وبنو أمية أولياؤه الأقربون ، فلهم المطالبة بدمه ، ولهم اقرار الأمر فى نصابه بعد مقتله ، وهم بعدُ أقوى قريش وأشدها بأسا ، وقد ظاهرتهم من المسلمين جماعة ضخمة ليست أقل من الجماعة التى ظاهرت خصومهم . ومن هنا لا تكاد تقرأ شعرا سياسيا يدافع عن بنى أمية أو يمدحهم الا رأيت فيه اشارة ما إلى هذا الأصل الذى يعتمد عليه الأمويون فى النهوض باعباء الحكم . ومثل هذا يقال فى حزب الزبيريين الذى نهض ينكر على بنى أمية استئثارهم بالحكم ونقله إلى أبنائهم دون استشارة للامة أو عناية برأيها فيه ، مع أن نظام الخلافة الاسلامية يقوم على الشورى لا على هذا النحو الأجنبى الذى تُتَوارث فيه أمور الدولة كما كان يفعل القياصرة والأكاسرة ، فلا بد اذًا من أن ينزل بنو أمية عن هذا الحكم الذى اغتصبوه اغتصابا ، وأن يردوه الى الأمة تجعله لمن تشاء وتختار من زعمائها وأعلامها . وكان حزب الخوارج يقوم أول الأمر على انكار التحكيم بين الخصمين علّى ومعاوية ، والجهر بأن هذا التحكيم خطأ ، وبأن الخصمين

اللذين قبلاه قد تجاوزا بقبوله حدود الدين. أما معاوية فلأنه لم يكن صاحب حق شرعى فى الخلافة وانما كان واليا بغَى على الخليفة ، فلما خاف الهزيمة لجأ الى التحكيم خديعة وكيدا ، وأما على فلأنه حين قبل هذا التحكيم شك فيما كان يعتقد من أنه صاحب الحق الشرعى فى الخلافة ، وما كان له أن يشك فى هذا الحق ، فأما وقد فعل فليس من الخلافة فى شئ بل هو قد تجاوز الدين ولابد من من أن يعترف على نفسه بالكفر ثم يتوب الى الله منه والا فالخوارج عدوٌّ له وحرب عليه .

على هذه الأصول قامت هذه الأحزاب السياسية الأربعة وأخذت تختصم ، ويجاهد بعضها بعضا ، وظفر كل منها بحظٍّ قليل أو كثير من الحكم . فكانت له فيه سياسة خاصة ميزته عن غيره من الأحزاب ، ودافع الشعراء عن سياسة الحزب فى الحكم كما دافعوا عن الأصل الذى قام عليه .

وليس هنا مكان التفصيل فى درس هذه الأحزاب ، ومن ينطق بلسانها من الشعراء وما كان يمتاز به كل شاعر منهم فى فنه وأسلوبه الشعرى ، انما يكفى أن نختار شاعرا من هؤلاء الشعراء السياسيين ونعطيك صورة موجزة من حياته وفنه تكون نَمُوذَجا لغيره من الشعراء . وليكن هذا الشاعر عبيد الله بن قيس الرقيات ، فهو أخف هؤلاء الشعراء ظلا ، وأعذبهم روحا ، وأيسرهم شعرا .

عُبَيْدُ الله بنُ قَيْسِ الرُّقَيَّاتِ

كان قرشيا من بنى عامر بن لؤى وكان حريصا قبل كل شئ على قرشيته معتزا بها محبا لها ، وكان مذهبه السياسى ملائما لهذا كله ، فكان يرضيه أن تستقر العزة والبأس فى قريش ، وأن تكون وحدها صاحبة السلطان على الأرض ، يؤيدها فى ذلك أقرب العرب اليها وهم المضريون ، فمذهبه السياسى اذاً لا يعتمد على دين وانما هو مذهب قوامه العصبية لقبيلته ، وهو من أجل ذلك يحب القرشيين

جميعا ، و يألَم لما وقع بينهم من الفرقة، و يودّ لو ظلت كلمتهم مجتمعة كما كانت أيام أبى بكر وعمر ، وهو اذا كره الأمويين وهجاهم أشد الهجاء وأقذعه وأحب الزبيريين وناصرهم فانما يفعل ذلك لأن الأمويين كانوا يعتزون باليمنية على المضرية فهم طغاة يعتزون بالأجنبي على حين كان ابن الزبير قرشيا يدعو الى سلطان قريش ويعتز فى تأييد هذا السلطان بمضر ، لهذا انضم عبيد الله الى الزبيريين،ولزم مُصْعَب بن الزبير فى العراق مجاهدا بسيفه ولسانه حتى انتصر عبد الملك وقُتِل مصعب، ففر عبيدالله الى الكوفة واستخفى عند امرأة انصارية يقال لها "كثيرة" فلبث عندها دهرا لا يعرفها ولا تعرفه ، حتى سمع ذات يوم مناديا يعلن أن بنى أمية يَهْدِرون دمه و يُبرئون ذمتهم ممن آواه ، فأشفق على صاحبته و رحل عنها بعد أن حملته وزودته ، وانتهى الى المدينة فاستجار بعبدالله بن جعفر من زعماء الهاشميين فما زال عبدالله يجدّ فى الشفاعة له عند عبدالملك حتى ظفر له بالأمان، ثم دخل على عبدالملك ومدحه فلم تطب نفس الخليفة بالرضا عنه، فلزم عبد العزيز ابن مروان والى مصر لأخيه عبدالملك ، وأقام معه فى مصر حتى مات . ومن هذا الوصف القصير لحياته تتبين أنه كان أول الأمر زبيرى المذهب ، فلما انقضى أمر الزبيريين التجأ الى هاشمى واستعان به حتى اتصل ببنى أمية فلازم زعيما من زعمائهم وهو عبدالعزيز بن مروان،وليس فى هذا شىء من التناقض أو الاضطراب فى المذهب السياسى ، فقد عرفت أن الرجل كان قرشى المذهب ، وأنه كان يدعو الى أن يظَلّ السلطان لقريش كما كان قبل الفتنة والى أن تكون أهواء قريش مؤتلفة ،وآراؤها مجتمعة ، وقد تحقق هذا بعد قتل ابن الزبير ، فاجتمعت قريش كلها حول بنى أمية ، واستقر السلطان كله لقريش ، فلا جُناح على عبيد الله أن يمدح من شاء من أعلام قريش ، و يلزم من أحب من زعمائها ، وانظر الى هذه الأبيات التى تمثل رأيه السياسى صريحا جليا إبان الخصومة العنيفة بين الزبيريين والأمويين .

حبذا العيشُ حينَ قومِي جميعٌ لم تفرّق أمورَها الأهواءُ
قبل أن تطمَع القبائِلُ فِي مُلْك قرَيشٍ وتشمَتَ الأعداء
أيها المشتهي فَنَاءَ قريشٍ بيد الله عُمْرُها والفناءُ
إنْ تُوَدِّعْ مِن البِلادِ قريشٌ لا يكنْ بعدهم لحيٍّ بقاءُ

*
* *

نحنُ منا النبيُّ الأُمِيُّ والصِّدِّيقُ مِنا التقيُّ والخُلفاءُ
وقتِيلُ الأحزاب حَمْزَةُ منا أسَدُ اللهِ والسَنَاءُ سناءُ
وعلِيٌّ وجعفرٌ ذو الجَنَاحَينِ هناك الوصِيُّ والشهداءُ
والزبيرُ الذِى أجاب رسولَ اللهِ فِي الكرب والبلاءُ بلاءُ
والذِى نَغّصَ ابنَ دُومةَ ماتو حي الشياطِينُ والسيوفُ ظماء (١)
فأباح العِراقَ يضرِبهم بالسيفِ صَلْتًا وفى الضراب غَلاَء
غيبوا عن مواطِنٍ مُقْطِعاتٍ ليس فِيها إلا السيوفَ رَخاءُ

فهو كما ترى يذكر ذلك العهد القديم فى شىء من الأسف شديد ، لافتراق الرأى واختلاف الهوى ، وهو يفخر بملك قريش و يرى أنه قِوام الدولة ، وحياة الشعوب الاسلامية ، وهو يذكر أبطال قريش الذين ناصروا النبي فى حياته وأسسوا دولة قريش بعد وفاته وهو إذًا انما يمدح مصعب بن الزبير ويناصره لأنه ماض فى هذه السُنّة سنة الاحتفاظ بالملك والسلطان لقريش وحدها .

وعبيد الله بن قيس الرقيات مبتكر فى الشعر السياسى حسن الابتكار ، سن للشعراء من بعده سنة وفق بعضهم إلى الاجادة فيها وأخطأها بعضهم الآخر ، فقد كان عبيد الله غزِلا محبا للنساء يكاد يشبب بهن جميعا ، وكأنه كان منقطعا للغزل قبل أن يشترك فى الخصومات الحزبية ، فلما اشترك فيها استغل فنه الغزلى فى

---

(١) يريد بابن دومة المختار الثقفى و بالذى نغصه مصعب بن الزبير .

جهاده الحزبى فغاظ خصومه السياسيين بالتغزل بنسائهم وبناتهم ، ولكنه فى الوقت نفسه كان حريصا على ألّا يسيء إلى هؤلاء النساء لأنهن من قريش، ولأن عبيد الله صاحب نفس كريمة وقلب ذكى ، وعلى هذا النحو تغزل بأم البنين بنت عبد العزيز بن مروان وامرأة الوليد بن عبد الملك ، فغاظ عبد الملك وابنه وأخاه ولكنه أرضى أم البنين نفسها لأنه مدحها ولم يسئ اليها ، ويقال إنها جدّت فى الشفاعة له عند عبد الملك حتى وُفِّقت .

وعبيد الله بن قيس الرقيات رقيق اللفظ سهله الى حد غريب فى العصر الذى عاش فيه، وربما كان لمخالطته النساء واسرافه فى هذه المخالطة أثر فى هذه الرقة. وقد لاحظها عليه عبد الملك فاستجاد بعض معانيه ، ووصف قافيته فى القصيدة الآتية بالخنوثة فاحتج عبيدالله بأنه انما يتأثر القرآن الكريم فى هذه القافية. والواقع أنه تأثر القرآن فى شعره كله فاكتسب من هذا التأثر لينا وسهولة وعذوبة لم تكن لغيره من الشعراء الذين عاصروه ، ولكنه لم يبلغ من ذلك ما كان يحسن أن يبلغه، فقد شذّ عن المألوف من أصول النحو أحيانا، وهو إلى رقة لفظه وسهولته رقيق المعانى يسيرها، ولاسيما حين يبكى أو يرثى ، ويكفى أن تقرأ هذه القصيدة لتشعر شعورا قويا بأنها انما صنعت للنائحات .

ذهب الصبا وتركت غَيَّتَهْ ... ورأى الغواني شَيْبَ لِمَّتِيه
وهجرنِي وهجرتُهن وقد ... غَنِيَتْ كرائمها يطُفْنَ بِيه
إذا لِمتِي سوداءُ ليس بِها ... وَضَحٌ ولم أُفْجَعْ بِإخوتِيه
الحاملين لِواءَ قومِهِم ... والذائدِين وراءَ عورَتِيه
إن الحوادثَ بالمدينة قد ... أَوْجعْنَنِي وقرعْنَ مَروَتِيَه (١)
وجَبَبْنَنِي جَبَّ السنَامِ فلم ... يتركن رِيشا فِي مَنَاكِبِيه
وأتى كِتَابٌ مِن يزِيدَ وقد ... شُدَّ الحِزامُ بِسَرْجِ بَغْلَتِيه
يَنْعَى بنِي عبدٍ وإخوتَهم ... حَلَّ الهلاكُ على أَقَارِبِيه

(١) تقول العرب قرع مروته أى أصابه بالشر .

ونعى أسامَةَ لي وإخوتَه   فظَلِلْتُ مُستكًّا مَسامعيه
كالشاربِ النشوانِ قطَّرَهَ   سَمَلُ الزِقاقِ تَفيض عَبرَتيه
سَدمًا يُعزِّيني الصحيحُ وقد   مرَّ المنونُ على كريمتيه
كيفَ الرقادُ وكلما هَجَعَتْ   عيني ألمَّ خيالُ إخوتيه
تبكي لهم اسماءُ مُعوِلةً   وتقولُ لَيـلَى وارزيَّتيَه
والله أبرحُ في مُقَدَّمـةٍ   أهْدِى الجيوشَ،عَلَيَّ شِكَّتيَه
حتى أُفَجِّـعهم بإخوتِهِم   وأسوقَ نِسوتَهم بنِسوتِيه

وقد قال هذه القصيدة حين وصلت اليه أنباء الحَرَّة ، وهى الوقعة التى كانت لجيش يزيد بن معاوية مع أهل المدينة من المهاجرين والأنصار ، والتى قتل فيها كثير من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم واستبيحت فيها المدينـة ثلاثة أيام حتى أذعنت ، وبايع أهلها على أنهم عبيد ليزيد ، وليست هذه القصيدة فى حاجة إلى تحليل أو شرح فهى واضحة سهلة تفسر نفسها ، وتمثل مزاجا رقيقا ونفسا حساسة ، وشاعرا يعرف كيف يحزن ، وكيف يصف حزنه ، وكيف يشْرك غيره معه فى هذا الحزن .

الأخطل

وشاعرا آخر أنفق حياته وفنه فى السياسة ، ولكنه على ذلك اشترك فى فنون أخرى من الشعر ، فبرع فيها حتى عدَّ من زعماء الشعراء السياسيين ، ومن فحول الشعراء الاسلاميين بوجه عام ، وهو أبو مالك غياث بن غوث المعروف بالأخطل التغلَبى

وُلد أيام عمر بن الخطاب فى قبيلة تغلب التى كانت تسكن الجزيرة والعراق ، وكانت من القوة والعزة وشدة البأس بحيث لم ترض أن تدخل فيما دخل فيه العرب كافة من الاسلام ، وتنزل عن نصرانيتها حين دهمتها جيوش المسلمين ، فأقرها عمر على نصرانيتها ، وقبل منها الجزية ، وآثرت هى أن تشترى دينها بشىء من

المال تؤديه إلى الحكومة فى كل عام . وقد نشأ الأخطل نشأة بدوية فى الجزيرة ، ويتحدث الرواة أنه بدأ قول الشعر طفلا فهجا امرأة أبيه ثم أمضى شبابه يقول الشعر فيما يعرض لأهل البادية من الخصومة بين الأفراد والقبائل ، فلما كانت أيام معاوية وظهر الشر بين الأنصار وبنى أمية احتاج يزيد بن معاوية ولى العهد حينئذ إلى شاعر يهجو له الأنصار ، فدُلّ على الأخطل فكلفه ذلك وقَبِله بعد أن نكَل عنه غيره من الشعراء المسلمين تحرجا من هجاء قوم آووا النبى صلى الله عليه وسلم وكانت لهم فى الاسلام هذه السابقة الحسنة ، قبِل الأخطل هذه المهمة لنصرانيته ، فهجا الأنصار وألحّ فى هجائهم وتفضيل قريش عليهم حتى شفى نفس يزيد ، وتعرض هو لخطر عظيم ، وانقطع بعد ذلك ليزيد فلزمه أميرا وخليفة حتى مات ، ثم اتصل بخلفاء بنى أمية بعده ولا سيما عبد الملك بن مروان ؛ وفى عصر عبد الملك هذا ظهر تفوق الأخطل ونبوغه فى الشعر ، حتى هابه الشعراء المضريون ، وحسبوا له حسابا ، وحتى آثره عبد الملك على غيره من شعراء عصره جميعا ، وأمر من يعلن بين الناس أنه شاعر بنى أمية وشاعر أمير المؤمنين ، ذلك أنه ناصر بنى أمية وناضل عنهم حزب الزبيريين كما ناضل عنهم الأنصار من قبل ، وبينما كان نضاله للانصار أيام معاوية ويزيد عمل شاعر مأجور يريد أن يتصل بالقصر وينال الحظوة فيه كان نضاله حزب الزبيريين أيام عبد الملك عَمَلَ صادق مخلص يدافع عن مصالح قبيلته ومكانتها .

كان الأخطل من تغلب ، وتغلب قبيلة من ربيعة كانت تسكن الجزيرة وشمالى الشام ، فلما كان الإسلام أقبلت على هذه البلاد قبائل مضرية من قيس فزاحمت فيها ربيعة كما زاحمت فيها العرب اليمانية ، وكانت هذه القبائل القيسية والمضرية قد مالت مع ابن الزبير على بنى أمية فاتفقت مصلحة الأمويين واليمنيين والتلغبيين على محاربة القيسية والمضرية فى الشام والجزيرة والعراق حتى تم النصر لعبد الملك على مصعب بن الزبير .

ومن هذا كان شعر الأخطل السياسى ذا مظهرين مختلفين ، فأما أحدهما فالدفاع عن حزب بنى أمية والنضال عن سلطانها ، وتثبيت حقها فى هذا السلطان ، وأما الثانى فالدفاع عن قبيلته تغلب وحلفائها من عرب اليمن المقيمين فى الشام ، والالحاح فى هجاء القيسيين خاصة والمضريين عامة .

حياة الأخطل هذه وما أحاط بها من الظروف المختلفة ضمنت له التفوق فى فنون من الشعر لم يكد يبلغ حظه منها شاعر من الذين عاصروه ، فقد كان بحكم اتصاله بالقصر وانقطاعه للأمراء والخلفاء أمدح أهل عصره للملوك ، وكان بحكم هذا الاتصال أيضا أقدر أهل عصره على النضال السياسى ، وكان بحكم حياته الخاصة فى قبيلته واشتراكه الفعلى فيما كان يعرض لهذه القبيلة من بأس الحرب ولين السلم أقدر أهل عصره على وصف الحرب وتصوير ما يعرض فيها من الهزيمة والانتصار ، وكان يستبيح الخمر ويشربها فيسرف فى شربها و يستعين بها على قول الشعر ، فكان أقدر أهل عصره على وصف الخمر وأبرعهم فيه لا سيما وقد أعرض كبار الشعراء فى ذلك العصر عن وصف الخمر خوفا من السلطان وتحرجا من الاشادة بما نهى عنه الاسلام .

وديوان الأخطل ضخم ، فيه الشعر الجيد الكثير ولكننا نقف عند قصيدة منه تكاد تختصر فنونه الشعرية كلها ، وهى التى مدح بها عبد الملك بن مروان بعد انتصاره على مصعب بن الزبير وكان لها ولأخرى مثلها فى الأدب العربى وحياة القبائل العربية شأن عظيم ، بدأ الأخطل هذه القصيدة بذكر أحبته الذين فارقوه وارتحلوا عنه فقال :

خَفَّ القَطِينُ فراحوا مِنك أو بَكَرُوا وأزعجتْهُم نَوًى فى صَرْفِها غِيَرُ

ثم وصف حزنه لفراق هؤلاء الأحبة وذهوله وهو ينظر فى آثارهم ويُتْبِعهم طرفه كئيبا مولَّها : فشبه نفسه فى هذه اللحظة بالسكران قد عبثت به الخمر ، أو المسحور قد ملك السحر عليه أمره وانتهز هذه الفرصة فوصف الخمر وصفا

قصيرا جيدا، ثم انتقل الى صاحباته اللاتى ارتحلن فشبب بهن تشبيبا قصيرا حسنا، وألم بشئ من أخلاق النساء وايثارهن للشباب وانصرافهن عن الكهول والشيوخ فقال :

يا قاتل الله وصلَ الغانياتِ إذا أَيْقَنَّ أنك ممن قد زها الكِبَرُ
أعرضن لما حنى قوسِي مُوَتِّرُها وابيضَّ بعد سوادِ اللِّمَةِ الشَّعَرُ
ما يرعوين إلى داعٍ لحاجتهِ ولا لهنَّ إلى ذِى شَيْبَةٍ وَطَرُ

ثم يصف طريقهن ويخلُص من هذا كله إلى مدح عبد الملك وتهنئته بالفوز واثبات حقه فى الخلافة فيقول .

إلى امرئٍ لا تُعَرِّينا نوافِلُهُ أظفره الله فليهنىء له الظفر
الخائِضِ الْغَمْرَ والميمونِ طائرُه خليفةِ الله يُسْتَسْقَى بهِ المطر

ويمضى فى مدح عبد الملك فيصفه بالبأس والنجدة والجود، وإيثار المسلمين بالخير والمهارة فى تدبير الأمور ، وقيادة الجيوش وقهر العدو ، ويقص من ذلك ما كان فى حرب عبد الملك لمصعب حتى يتم له النصر، فاذا أرضى عبد الملك انتقل إلى بنى أمية عشيرته فمدحهم أحسن مدح وأجمله ، وصور من أخلاقهم ما أُعْجِب به المعاصرون جميعا حتى عدوا الأخطل فيه أشعر العرب وذلك قوله .

حُشْدٌ على الحقِ عَيَّافو الخنا أُنُفٌ إذا ألمَّت بهم مكروهةٌ صَبَرُوا
وإن تَدَجَّت على الآفاقِ مُظْلِمةٌ كان لهم مَخْرَجٌ منها ومُعْتَصَرُ
أعطاهم الله جَدًّا يُنْصَرون بهِ لا جَدَّ الا صغيرٌ بعدُ مُحْتَقَرُ
لم يَأْشَرُوا فيهِ إذ كانوا مواليَه ولو يكون لِقومٍ غيرِهم أَشِروا
شُمْسُ العداوةِ حتى يُستقادَ لهم وأعظمُ الناسِ أحلاما إذا قَدَروا

على أن الحرب قد وضعت أوزارها بين عبد الملك وأنصار ابن الزبير، ولكن لها آثارا سيئة لم تزُل بعد ، وما زال فى المنهزمين مكر وخداع وكيد ، فالأخطل

يحذر بنى أمية من هؤلاء المنهزمين ، ويذكرهم بنصحه لهم وحسن بلائه حين دافع عنهم الأنصار ، فيقول .

بنى أميــة قد ناضلتُ دونكم أبناءَ قومٍ همُ آووْا وهمُ نَصَروا
أفحمتُ عنكم بنى النجارِ قد علِمت عُلْيا مَعَدّ وكانوا طالما هَدَروا
حتى استكانوا وهم منى على مَضَضٍ والقولُ ينْفُـذُ مالا تنفذ الإبَرُ
بنى أميــة إنى ناصِـح لـكم فـلا يبيتنّ فِيـكم آمِنا زُفَرُ

والأخطل شديد الحرص على أن تجنى قبيلته ثمرة النصر فهو يذكر عبد الملك ببلاء تغلب فى الحرب فيقول :

وقد نُصِرتَ أميرَ المؤمنِـين بِنا لما أتاك بِبطنِ الغُوطَةِ الخَـبَرُ

ويمضى بعد ذلك فى هجاء قيس وتصوير ما أصابهم من ألوان الهزيمة فى المواقع المختلفة تصويرا دقيقا فيه شدة وسخرية لاذعة ، حتى اذا فرغ من قيس التفت الى أنصارهم من كليب رهط جرير ، الذى كان يدافع عن قيس بلسانه ، فيهجوهم هجاء مرا مُقْذِعا .

وقد اضطرت هذه الخصومة بين تغلب وقيس الأخطل الى أن يهجو جريرا ويدخل فيما بينه وبين الفرزدق من خلاف سنحدثك عنه بعد حين ، فأصبح الأخطل بذلك من شعراء "النقائض" ، وذوى الشأن النابه فى الهجاء ، ولكن هجاء الأخطل يمتاز عن هجاء صاحبيه بشئ من القصد والاعتدال ، وتجنب الإقذاع الذى يتجاوز حدود الخلق ، وفى أيام الوليد بن عبد الملك مات الأخطل وقد تقدمت به السن ، واستطاع أن يكسب لنفسه مركز الزعيم السياسى فى قومه وعند الخلفاء .

الى جانب هذين الفنين اللذين استحدثا فى الاسلام ، فن الغزل وفن الشعر السياسى تطورت الفنون القديمة تطورا ظاهرا ، فاتسعت أغراضها باتساع أفق الحياة العربية فبعد أن كان الشاعر القديم اذا مدح لم يكن يتجاوز أفق القبيلة التى

يمدح زعيمها أصبح فى هذا العصر يمدح الولاة، ويمدح الأمراء، ويمدح الخلفاء، وما أبعد الفرق بين سلطان الوالى والأمير والخليفة فى الاسلام وسلطان الزعيم من زعماء القبائل فى الجاهلية ، وجَدَّت معان يحرِص الناس عليها ويتنافسون فيها ومعان أخرى ينفر الناس منها ويكرهونها أشد الكره ، فتغيرت مذاهب الشعراء فى الفخر والمدح والهجاء والرثاء تغيرا يختلف قلة وكثرة باختلاف حظ الشعراء من المحافظة على السنن الجاهلية القديمة فى الشعر .

وبينما كان أصحاب الغزل يمعنون فى غزلهم وأصحاب السياسة يمعنون فى سياستهم كان هناك شعراء آخرون يحتفظون بالسُنَّة الجاهلية القديمة فيقصدون إلى فنون الشعر كلها ، ويتصرفون فيها خاضعين على كل حال لهذا التطور الذى أشرنا اليه آنفا .

وأظهر هؤلاء الشعراء ، مع الأخطل ، الفرزدق وجرير .

الفرزدق

فأما الفرزدق فهو أبو فِراس هَمَّام بن غالب من دارِم ، ثم من تميم ، يعرف بالفرزدق لجهومة كانت فى وجهه على ما يقول الرواة . لا تعرف سنة مولده بالدقة . ولكنه كان شابا يقول الشعر سنة ٣٦ للهجرة ، فقد قدّمه أبوه الى علىّ بعد وقعة الجمل فنصح له علىّ بحفظ القرآن ، وكان شابا تقدم به الشباب فى أيام معاوية . وأكبر الظن أنه ولد فى خلافة عثمان أو آخر خلافة عمر . وقد ظهر ميله الى قول الشعر منذ طفولته فحفظ عنه شعر جيد يمثل نفسا كريمة طامحة الى المجد قاله حينما كان طفلا يرعى الغنم لأمه .

وكانت نشأته كنشأة الأخطل فى قبيلة عزيزة شديدة البأس ، كثيرة العدد ، ضخمة الثروة ، وكانت أسرته الخاصة من أقوى أسر تميم وأغناها وأكرمها ، حتى ان كرمها ليشبه الاسراف ، وكان الفرزدق قد ورِث عن أسرته وقبيلته عزة النفس وشدّة البأس ومضاء العزيمة والنفور من الخضوع للنظام والاذعان للسلطان ،

وكان الى ذلك طويل اللسان حديده شكسا محبا للخصومة يهجو الأفراد والجماعات من قومه حتى يشكوه الى أبيه، ثم يسرفُ فى الهجاء حتى يرفع أمره الى زياد والى العراق لمعاوية فاذا طلبه زياد فر وأخذ يتنقل فى مدن العراق وقراه وقبائله يقول فى ذلك الشعر الجيد ، حتى تضيق به الأرض فيترك العراق كله لزياد ، ويلجأ الى المدينة فيمدح واليها سعيد بن العاص ، ويستجير به فيجيره ويستمر فيما هو فيه من هجاء وتعريض بزياد ، حتى اذا مات زياد عاد الى وطنه واستمر فيما هو فيه حتى يموت معاوية ويزيد، وتفسد أمور الدولة بكثرة الحروب الداخلية، ويشتد الاضطراب فى العراق . وهنا يظهر الفرزدق مرة أخرى شكسا شديد الشكيمة ، حديد اللسان قد عجز السلطان عن تقويمه واضطراره الى الاعتدال ، ولكن ظهر له خصم سيكون أشد على نفسه من السلطان ، وسيضطره الى أن يفكر قبل أن يقول ، كما أنه سيضطره الى أن يُجَوِّد الشعر ويُعْنَى به حتى ينبغ فيه .

جرير

وهذا الخصم هو جرير بن عطية بن الخَطَفَى من كليب ثم من يربوع ، ثم من تميم ، كان أحدث سنا من الفرزدق ، وكان من قبيلة قوية عزيزة ولكنها دون قبيلة الفرزدق ، وكانت أسرته الخاصة فقيرة قليلة الحظ من الشهرة والصيت بالقياس الى أسرة الفرزدق وكان أبوه معدِما أو كالمعدم ، فلم تخل نشأته اذًا من البؤس والضيق ، وكأنَّ هذه الظروف نفسها قد أعانت ما فى هذا الصبى من استعداد للتفوق والنبوغ على أن يظهر ويؤتى ثمره، فقد قال الشعر صبيا كصاحبيه، وأظهر حدة وشدة على خصومه من قبيلته ومن القبائل التى كانت تخاصم قبيلته ، حتى ظهر الشرُّ بينه وبينهم ، وعظم أمره ، فتعرض له الشعراء فغلبهم جميعا ، وما زال الهجاء يجر عليه الشر شيئا فشيئا حتى وقعت الخصومة بينه وبين شاعر من رهط الفرزدق ، يقال له البَعِيث ألح عليه جرير فى الهجاء فاضطر الفرزدق الى أن يذود عنه ، فانصرف جرير عن البعيث الى الفرزدق ، وانصرف الفرزدق عن البعيث الى جرير .

واستطارت بين الشاعرين خصومة منكرة ، تجاوزا فيها حدود الأخلاق والنظام والدين ، وعجزت السلطات كلها عن ردهما عنها ، وأصبحت همّ الناس ولهوهم ، وموضوع البحث الأدبى حياتَهما ثم الى الآن ، وقد استمرت هذه الخصومة بين الشاعرين نيفا وأربعين سنة،منذ مات يزيد الى أن مات الشاعران سنة أربع عشرة ومائة ، وكان كل من الشاعرين يمدح ويفخر ويرثى ويعرض للسياسة ويتغزل،ولكنهما كانا يهجوان بنوع خاص ويتفوقان فى الهجاء،والناس مختلفون فى تقديم أحدهما على الآخر ولكنهم يكادون يتفقون على أن الفرزدق انفرد بالفخر ، وعلى أن جريرا تفوق بالهجاء وعلى أن حظ الفرزدق من الغزل دون حظ جرير ، أما الرثاء فلجرير فيه قصيدة مأثورة رثى بها امرأته فوفق الى شىء من الاجادة عظيم ، على حين لم يكن رثاء الفرزدق الا كلاما متينا رصينا لا أثر للحزن فيه .

مقارنة بين الفرزدق وجرير

وشعر الفرزدق صُلْب خشن الألفاظ،غليظ المعانى ، فى أكثر الأحيان،حتى انه ليتغزل فيثقل لفظه على الأذن ، وتجفو معانيه عن القلب ، وفى شعر جرير رقة ولين وعذوبة ، ومعانيه حلوة سائغة محببة الى النفس ، وقد كان الفرزدق فاجرا جافى الغزل ، وكان جرير عفيفا حلو النسيب ، والفرزدق اذا هجا مال بهجائه الى الفخر، وجرير اذا هجا مال بهجائه الى اللذع،أى أن الفرزدق ينظر الى نفسه وهو يهجو خصمه، فيكبرنفسه ويصغر عدوه،وجرير ينظر الى خصمه يستقصى نقائصه وعيوبه ، فاذا أعياه الاستقصاء اخترع من العيوب والنقائص ما شاء .

النقائض

وقد سميت القصائد التى تبادلها الشاعران فى الهجاء (النقائض) وشاع هذا النوع من الشعر فى العصر الأموى شيوعا شديدا،وقد كان معروفا من قبل ولكنه لم يكن كثيرا مطردا ، والأصل فى ذلك أن يقول الشاعر قصيدة فينقضها عليه

خصمه ، أى يردّ عليها ، ويلتزم فى ذلك ما التزمه صاحبه من الوزن والقافية ، وكثيرا ما يعرض لنفس تلك المعانى التى قصد اليها الشاعر فينفيها أو يقلبها أو يفسدها بأى وجه من الوجوه، وأول قصيدة عرض فيها الفرزدق لجرير بالهجاء يائيته التى أولها :

أَلم ترأنى يوم جَوّ سُوَيْقَةٍ   بَكَيْتُ فنادتنى هُنَيْدَةُ ماليا

فقلت لها إنّ البكاءَ لراحةٌ   به يشتفِى من ظنّ أن لا تلاقِيا

ثم يمضى الشاعر فى ذكر صاحبته ، وما يجد من حب لها ولوعة لفراقها ، حتى اذا فرغ من ذلك فى أبيات قصيرة التفت الى البعيث الذى استعان به على جرير فهجاه هجاء مرا ووصفه بالضعف والجبن وسوء النسب ، ثم ينتقل الى جرير نفسه فيشتمه ، ويصفه بالذلة والقلة ويفخر عليه بحسبه ونسبه ، ولا يطيل فى هذه المرة ، فرد عليه جرير بيائيته التى أولها :

أَلَا حَىِّ رَهْبًا ثم حَىِّ المَطَالِيا   فقد كان مأنوسا فأصبحَ خاليا

وفيها غزل طويل عذب رقيق ، يصلح للغناء ، لأنه يصور نفسا عذبها اليأس وعبث بها الوجد فى غير طائل ، ثم يعاتب أباه أو جده وأسرته الأدنين لكثرة ما يسيئون اليه ويخذلونه ، مع أنه لا يلقاهم الا بالود والمعروف والذود عنهم، ويفرغ بعد ذلك لأسرة الفرزدق فيهجوها لأنها أسرة صُنّاعٍ قُيونٍ لا شرف لهم ولا بلاء ، ويفخر بقومه قليلا وبنفسه كثيرا ، ويصف خصومه بالغدر واسلام الجار .

والهجاء بين جرير والفرزدق والأخطل وغيرهم من الشعراء كله على هذا النحو ، فيه فخر واشادة بفضائل الشاعر وقبيلته فى الجاهلية والاسلام ، ثم فيه ذم وتشهير بالخصم وقبيلته فى القديم والحديث ، وفى هذا الشعر جنايات منكرة على الأخلاق والأعراض والدين، ولكنه على الرغم من هذا كله من أنفع المصادر التاريخية لحياة العرب فى جاهليتهم وإسلامهم، كما انه مرآة صادقة لأخلاق هذه البيئات من العرب فى القرن الأول للهجرة ، وبفضل هذا الشعر حفظ أكثر اللغة من الضياع .

الخطابة

دواعي الخطابة

العربي بطبعه فصيح ، ذَلِق اللسان ، مفطور على حب القول والتصرف فى ضروبه ، إذا تكلم أعجبته لغته فأطال ، وإذا استمع أعجبته لغته فاستزاد ، تحس هذا جليا واضحا فى كل ما تقرأ من أخبار العرب حين كانوا يتحاورون ويتجادلون أو يختصمون ، فليس غريبا أن تكون طبيعتهم هذه مستعدة للتفوّق إذا دعتها ظروف الحياة إلى العناية بالقول ، والحرص على الاجادة فيه ، واتخاذه وسيلة إلى الاقناع ، وأداة للتأثير فى النفوس ، وسبيلا إلى الغَلَب والفوز ، وقد كانت حياة العرب كلها فى القرن الأول للهجرة تدعو إلى أن يُعْنَوا بالقول هذه العناية ويسلكوا به هذه السبل ، فقد قامت هذه الحياة على الاسلام وهو دين اجتماعى قبل كل شيء ، عنى بحياة الجماعة عناية شديدة ، بجمعها فى الصلاة ، وجمعها فى الحج ، وجمعها فى الأعياد ، وأقام الصلة بينها وبين أولى الأمر فيها على نحو من التشاور يضطر الحاكم إلى أن يتحدث إلى المحكومين ، ويضطر المحكومين إلى أن يتحدثوا إلى الحاكم ، ثم لم يكد يظهر الاسلام حتى كان له أنصار وخصوم ، وحتى اشتد الجدال بين أولئك وهؤلاء فى أندية عامة يشهدها كثير من الناس ، تختلف حظوظهم من الذكاء والفهم ، ومن الجمود وقصور الطبع ، ويحتاج المتكلم فيها إلى أن يكون بصيرا بمواقع القول من هؤلاء الأنصار والخصوم ، ثم قُبِضَ النبي صلى الله عليه وسلم وكانت الفتوح ، فكثرت مصالح المسلمين ، واختلفت الآراء فى تقديرها وتدبيرها ، واحتاج هذا كله إلى التشاور والتناظر ، ثم كانت الفتن ونشأة الأحزاب السياسية وما استتبعته من خصومة وجهاد ، واحتاج زعماء الأحزاب إلى أن يشاوروا أنصارهم ويقنعوهم بما كانوا يرون من رأى ، ويدبرون من خُطّة ، وإلى أن يناظروا خصومهم ويأخذوهم بالحجة ، ثم ضعُف أمر الأحزاب بعض الضعف

من الناحية الحربية ، فأغمدت السيوف طوعا أو كرها ، ولكن سُلَّت مكانها الألسنة ، فكان للدولة معارضون أذكياء أقوياء ينكرون سياستها ويذيعون عنها قالة السوء ، واضطر الخلفاء والأمراء والولاة إلى أن يدفعوا عن أنفسهم وعن سياستهم باللين حينا ، وبالعنف حينا ، وبالحزم بين هذا وذاك حينا آخر .

فكل هـذه الظروف جعلت حظ العرب فى هـذا العصر من الخطابة عظيما موفرا ، لم تبلغ مثله أمة قديمة إلا ما كان من أمر اليونان والرومان ، والواقع ان الأسباب التى دعت إلى تفوق اليونان والرومان فى الخطابة مشبهة فى الجملة للأسباب التى دعت إلى تفوق العرب فيها ، فالخطابة انما تظهر وتقوى ويعظم سلطانها فى الأمم والبيئات التى يعظم حظها من الحياة الأجتماعية القوية من جهة، ويعترف فيها بحرية الفرد وكرامته من جهة اخرى . وقد ضمن الاسلام للعرب حياة اجتماعية قوية وضمن فى الوقت نفسه حرية كاملة ، وكرامة موفرة ولاءم بين حرية الفرد وسلطان الحكومة،وصادف هذا النظام أمة صافية الطبع حادة المزاج، خِصْبة الشعور فصيحة اللسان فظهر فيها خطباء مُفَوَّهون ولم يضعف أمر الخطابة عند العرب إلا بعد أن فسد هذا النظام فى العصر العباسى ، فتجاوز سلطان الدولة حدود الاعتدال ، وأفنى أو كاد يفنى سلطان الحكومة حرية الفرد .

لغة الخطابة

وكانت لغة الخطابة العربية فى أول الأمر يسيرة ساذجة لا تكاد تمتاز من لغة التخاطب الا بهذه العناية الطبيعية التى يصطنعها الناس عادة حين يريدون الاقناع والتأثير فى نفوس السامعين ، فلما كثرت المصالح وكثر فيها اختلاف الآراء،واشتد حولها النزاع والجدال ، اشتدت عناية الخطباء بتخير الألفاظ والأساليب الملائمة لهـذه الحاجات الجديدة ، والمُعِينةِ على ما كانوا يريدون من إقناع وفوز ، وكان أمامهُم مثل أعلى لخطاب الجماعات والتأثير فيها على أبلغ أسلوب وأرقاه ، وأشد ملاءمة للنفوس فى الظروف المختلفة التى تكتنفها وتحيط بها . وهو القرآن ، الذى

هو اجتماعى بأدق ماهـذه الكلمة من معنى ، فقد وُجِّه كله الى الجماعة وتُلِىَ كله على الجماعة ،ورأى الناس كيف أذعن له خصومه مقهورين،وانصاره مُعْجَبين، وكيف بلغ من نفوس الناس مالم يبلغه قبله أو فى عصره أو بعـده لون من ألوان الكلام مهما يكن حظه من القوة والبراعة ، فأسرع الخطباء إلى تأثره والانتفاع به والاقتباس منه ، وأنتج لهم هـذا قوة ولينا لم يكونا مألوفين فى خطابة الذين سبقوهم من العرب ، وأنت إذا أردت تمييز الخطابة العربية الاسـلامية وجدتها كلها تمتاز بهـذه الروعة الجذابة التى تبهرك وتمـلك عليك أمرك . وتحبب اليك الاستمـاع المتصل،وبهذا السحر الغريب الذى يُخَيِّل اليك على بعد العهد وانقطاع الصلة انك تسمع الخطيب فتحبه، وتطمئن اليه، مستعذبا قوله، مفتونا بأسلوبه ، أو تخافه وتفزع منه ، ولكنك تحب أن تسمعه على كل حال ، فاذا بحثت عن مصدر تلك الروعة وهذا السحر وجدته أو أكثره فى تأثر الخطباء للقرآن،وحرصهم على أخذ معانيه ، واستعارة ألفاظه واقتباس مَبَانيه ، وتقمص هـذا الروح الحلو الذى أفاضه على المسلمين ما بعث القرآن فى نفوسهم من سكينة وإيمـان .

عادات العرب فى الخطابة

وكانت للعرب عادات موروثة فى الخطابة احتفظوا بها طوال هـذا العصر ، فكانوا يخطبون قائمـين يشرفون على الناس من نَشَز من الأرض أو صخرة مرتفعة أو من المنـابر فى المساجد ، وكانوا اذا قاموا للخطابة اعتمدوا على السيف أو على القوس أو اتخذوا المخاصر، وكانو لايكثرون من تحريك أجسامهم ،ولا يسرفون فى الاشارة ، وكانوا يكرهون التردد فى القول ، واضطراب اللسان . وفساد مخارج الحروف ، وكانوا يكرهون التنحنح والسعال والاسـتعانة على البيان بشىء غيره ، ويقال ان الوليد بن عبدالملك أول من خطب جالسا وتبعه فى ذلك بعض الخلفاء والأمراء والولاة ، ولكن القيام ظل سنة مطردة فى الخطابة إلى الآن .

خطباء هذا العصر

وخطباء هذا العصر كثيرون ،دعت إلى كثرتهم تلك الظروف التى أشرنا اليها آنفا ، وقد كان منهم المطنب الذى يستغرق بخطبته بياض النهار ، وكان منهم الموجز الذى يبلغ ما يريد فى جملة من القول لا ينفق فيها الساعة القصيرة ، وثلاثة من خطباء العرب فى هذا العصر طبعوا الخطابة العربية بطابَعهم .

علىّ بن أبى طالب

أولهم علىّ بن أبى طالب ، وقد ولد قبل ظهور الاسلام بسبع سنين وأدركه الاسلام صبيا فنشأ فيه ، وكان اتصاله بالنبى صلى الله عليه وسلم فى طفولته وشبابه مصدرا لهـذا الروح القوى الحلو الذى نجده كلما قرأنا شـيئا من كلامه ، وكانت حياته كلها خليقة أن تجعل منه رجلا قوى النفس ، شديد البأس ذكى القلب ، كثير العلم ، مستعدا كل الاستعداد للتفوق والنبوغ ، فقد اشترك مع النبى صلى الله عليـه وسلم فى حلو الحياة ومرها ، اذ كان ابن عمه وصهره ، ثم حيل بينه و بين الخلافة بعد وفاة النبى فصبّر نفسه على مالم تحب ، وراضها على ما كرهت ، وأخلص فى النصح لمن سبقه من الخلفاء ، حتى اذا كانت الفتنة وقتِل عثمان ونهض بالأمر تفرق المسلمون من حوله فأنكرته عائشة أم المؤمنين ، ومعها طلحة والزبير ، وأنكره معاوية بن أبى سـفيان ومعه أهل الشام ، ثم أنكره بعـد ذلك جماعة من أصحابه خرجوا عليه حين قبل ما عرض معاوية من التحكيم ، واضـطر الى أن ينفق آخر أيامه فى حرب منكرة موئسة ، الهزيمة فيها شر ، والفوز فيها شر أيضا ، حتى قتله أحد الخوارج غِيلة سـنة ٤٠ للهجرة . فأنت ترى أن حياته أيام النبى كانت حياة جهاد كله أمل ، وأن حياته أيام الخلفاء الثلاثة كانت حياة اذعان ورضا بقضاء الله ونصح واخلاص للخلفاء ، وأن حياته فى آخر أيامـه كانت حياة جهاد وحزن و يأس ، وقد عرف علىّ بالشجاعة والبأس أيام النبى ، وعرف بالعلم وجودة الرأى أيام الخلفاء الثلاثة ، وعرف بالخطابة فى أيام خلافته القصيرة ، ولا غرابة فى هذا فقد كانت حياته كلها تُعِدُّه لهذه الأيام التى وَلِىَ فيها السلطان .

وظهرت مواهبه واحتاج إلى القول فقال وأجاد، وقد نسبت اليه طائفة ضخمة من الخطب أكثرها يظهر فيه التكلف والصنعة لأنه منحول؛ وقليل منها تظهر فيه شخصية حلوة جذابة شديدة الايمان بالدين والاقتناع بالحق؛ حريصة على ماترى من رأى؛ الا أن تُكْرَه على خلافه، فتنصرف عنه فى شئ من اليأس والاذعان لاراحة فيه إلا الرضا بقضاء الله والثقة بأن ما عند الله خير وأبقى مما عند الناس.

وأكثر ماصح من خطبه متصل بالسياسة. فقد كان يتحدث إلى أصحابه محرضا لهم على قتال عدوهم. مظهرا حقه فى السلطان. مبينا ضلال خصومه عن سواء السبيل، وكان فى هذا كله موفقا، ولكن توفيقه الخطابى قلما كان يستتبع التوفيق العملى؛ لأن ظروف الحياة فى عصره كانت أقوى من الخطابة وأقوى من الحق، وأقوى من الصواب، وكانت نفوس الناس قد تغيرت، ومُثُلُهم العليا فى الحياة قد تغيرت أيضا، وأصبح نظام الحياة كما كان يريده علىّ وكما كان يريده الخلفاء الثلاثة من قبله مغايرا لما كان الناس يرجون ويأملون.

زياد ابن أبيه

والخطيب الثانى زياد ابن أبيه او زياد بن سمية أو زياد بن أبى سفيان، ولد فى السنة الأولى للهجرة على ما يقول الرواة من امةٍ للحارث بن كَلَدة الثقفى. ولم يكن معروف الأب ونشأ نشأة إسلامية خالصة. ولكنه لم يبلغ الشباب حتى ظهرت فيه خصال امتازت بها قبيلة ثقيف فى الاسلام. منها ذكاء القلب وسعة الحيلة وحزم الأمور وحدة اللسان وشدته وميل الى العنف يبلغ الطغيان فى كثير من الأحيان.

عمل زياد مع ابى موسى الأشعرى حين تولى البصرة لعمر فظهر ذكاؤه وتفوقه وأعجب به الناس، وأعجب به عمر نفسه، ولعله أشفق من دهائه وإقدامه فحال بينه وبين العمل السياسى المتصل، ثم استعان به علىٌّ أيام خلافته على اخماد ثورة فارسية فأحسن البلاء ووفق إلى ما أراد، ووَفَى لعلّى حتى اذا قتل على لم يزل معاوية يجِدُّ حتى استماله اليه بعد جهد، واستلحقه بعد أن شهد ناس من المسلمين

أنه ابن أبى سفيان ، ثم ولاه البصرة ثم الكوفة وكان زياد يريد أن يوليه معاوية الحجاز ولكنه مات بالطاعون سنة ٥٣ .

وقد ظهرت خصاله التى أشرنا اليها كلها ناضجة حين تولى العراق فاشتد على المعارضة العنيفة حتى اضطرها الى الهدوء والاذعان، ولم يتردد فى اتخاذ الطرق التى رآها مؤدية إلى ذلك ، و بطش بالغواة والمفسدين حتى أقر الامن فى نصابه ، وثَّبت فى العراق نظاما كان العراق قد فقده منذ حين ، وقد حفظت له خطبة تسمى البتراء لأنه لم يبتدئها بحمد الله كما كان يفعل الخطباء عادة ، ألقاها حين قدم البصرة واليا من قبل معاوية فوجم لها الناس ، فمنهم من اذعن خائفا، ومنهم من أثنى متملقا ومنهم من حاول الانكار ، ولكن السياسة العملية لزياد لم تلبث أن بينت للناس أنه كان جادا غير هازل فيما أعان من نذير .

تحليل خطبة زياد

بدأ هذه الخطبة بانكار ما كان عليه أهل البصرة من معصية لله وفسوق عن الدين وتجاوز لأمر السلطان، ثم أعلن بأن أمور المسلمين لن تصلُح فى آخر أيامهم إلا بما صَلحت به فى أولها ، من لين فى غير ضعف، وشدة فى غير عنف ، على نحو ما كان يفعل عمر ،ثم أعلن أن أهل العراق قد استحدثوا آثاما لم تكن ، وأنه سيحدث عقوبات تلائم هذه الآثام ، وأعلن هذه العقوبات فاذا هى مجاوِزة لما عرف المسلمون من حدود الله وعقوباته " من غرق قوما غرقناه ، ومن أحرق قوما أحرقناه ومن نقب بيتا نقبنا عن قلبه، ومن نبش قبرا دفناه فيه حيا" وفى هذه الخطبة جعل القتل عقوبة لمن ظهر فى الطريق بعد مضى ساعة معينة من الليل ، وقطع اللسان عقوبة لمن دعا بدعوى الجاهلية ، ثم ألغى ما كان بينه و بين الناس من عداوة وضِغْن ،وطلب اليهم أن يستأنفوا أمورهم مطيعين ناصحين، ثم أثبت حق بنى أمية فى السلطان وطلب إلى الناس أن يذعنوا له فى غير حقد ولاضغينة فذلك أنفع لهم وأجدى عليهم من طاعة مدخولة لاتستقيم عليها الأمور .

وقد ضُرِب المثل بزياد فى الشدة والعنف ، وضرب المثل به فى الفصاحة واللسن ، وضرب المثل به فى الدهاء والمكر

الحجّاج بن يوسف

وثالث هؤلاء الخطباء الحجاج بن يوسف الثقفى ، ولد فى أيام معاوية ونشأ نشأة إسلامية فى الطائف ، فهو لم يشهد خلافة الخلفاء الراشدين ، وانما شب فى ظل خلافة معاوية وما كانت تقوم عليه من ملك عضوض ، وشهد شهرة زياد بالقسوة والعنف ، وكأنه أحب زيادا واتخذه مثلا ولاءم ذلك ماقدمنامن طبع ثقيف فنشأ الحجاج بعيد الأمل ، عظيم المطامع ، جريئا شديدا ، لا يعرف التردد .

عمل فى حرس روح بن زِنباع من زعماء الشام ، ثم اتخذه عبد الملك منظما لعسكره ، فلم يلبث ان أظهر من الجد والحزم ما رفع مرتبته عند عبد الملك . و إذا هو قائد الجيش الذى وجه لحرب عبد الله بن الزبير فى الحجاز ، واذا هو يحصر مكة ويأخذها عنوة بعد أن يهدم الكعبة ويقتل ابن الزبير ويمثل به ، واذا هو والى عبد الملك على العراق ليقر فيه النظام بعد أن أفسدته الحروب الداخلية ، فيظهر من الشدة والطغيان ما يضبط الأمر ويسكت المعارضة ، ويخيف الناس ، ثم يبسط سلطانه على الشرق الاسلامى كله فيكسر شوكة الخوارج ويبسط سلطان المسلمين على بلاد لم تكن لهم ، وكان لسانه جريئا كقلبه ، أو قل كان لسانه الجرىء ترجمان قلبه الجرىء ، كان أشد من زياد وأحب منه اسفك الدماء ، فكان لسانه أشد من لسان زياد ، وكانت خطبه تمثل الطغيان الذى لاحد له ، وكان أظهر ما تمتاز به خطبه الشدة فى الألفاظ وفى المعانى وكثرة الاقتباس من القرآن والشعر القديم ، وكان يقطع جمله فى الخطبة تقطيعا ؛ ويلقيها على الناس فكأنما يرميهم بالصخر والجلامد ، وإذا هم ذاهلون ، وإذا هو قد أفسد عليهم عقولهم ، فصور اليهم الحق باطلا والباطل حقا ، وغلبهم على أنفسهم فسيرها كما يحب ، وساقها إلى ما يريد . وقد وطد الحجاج سلطان بنى أمية و نمن لهم أمن الشرق حتى مات فى آخر أيام الوليد بن عبد الملك .

وظل أمر الخطابة بعد الحجاج قويا ظاهرا ، وكأن الناس كانوا قد اتخذوا منه ومن زياد ومن جماعة آخرين من الخطباء مُثُلا عليا لاجادة القول واتقانه ،

وأخذوا يتساءلون عن مصادر هذه الاجادة والاتقان ، ويلتمسونها إذا أرادوا القول ، ونشأ عن ذلك أن بدأت تُقَرَّر بينهم أصول للخطابة وقواعد يعتمد عليها الخطباء إذا خطبوا ، ثم كثرت المقالات الدينية والسياسية ، وكثرت حولها المناظرة ، واستحالت الخطابة آخر أيام بنى أمية إلى طور جديد هو إلى الجدل العلمى أقرب منه إلى الخطابة السياسية ، وأخذ هذا الجدل يقوى شيئا فشيئا حتى قام مقام الخطابة أيام بنى العباس .

النثر الفنى

لم يُؤْثَر عن الجاهلية نثر فنى بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة كما قدمنا ، وانما كانت لهم لغة غنية عذبة فى آخر العصر الجاهلى وأول الاسلام ، كانوا يتخذونها فى مخاطباتهم وأحاديثهم ، ولم تكن الكتابة قد شاعت فيهم بعد ، على انهم كانوا يصطنعون الحروف فى أعمالهم التجارية ، وربما كانوا يكتبون الرسائل القصيرة فى شئونهم وحاجاتهم ، فكانت اللغة التى تصطنع فى هذه الكتب والرسائل هى لغة التخاطب نفسها ، فلما ظهر الاسلام وهاجر النبى إلى المدينة شاعت الكتابة بعض الشيوع ، وحث النبى صلى الله عليه وسلم على تعلمها لأنها أصبحت من حاجات الدولة ، وصدرت عن النبى والخلفاء كتب مَثَّلت فصاحتهم الطبيعية وطريقتهم الخاصة فى التعبير ، وكانت لغتها هى اللغة التى كان يستعملها النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء والصحابة إذا تحدث بعضهم إلى بعض فى الأحاديث الخاصة والعامة ، أى لم يكن هناك فرق ظاهر بين لغة الكتابة ولغة الخطابة ولغة الحديث .

على أن كثرة مصالح الدولة واختلاف الآراء فى هذه المصالح ، وظهور التنافس بين الأحزاب ، دعت إلى رقى الخطابة وتطورها ، ونفس هذه الأسباب جعلت حاجة الدولة إلى الكتابة قوية شديدة لبعد المسافات واحتياج الخلفاء إلى أن يتصلوا بالولاة والعمال ، على أن بين حال الخطابة والكتابة فى هذا العصر فرقا لابد من ملاحظته ، فقد كانت الخطابة عربية خالصة فى نشأتها وتطورها ، طول

القرن الأول للهجرة ، أما الكتابة فظلت عربية خالصة حتى كثرت المصالح وتعقدت ، وكانت الفتوح ، واضطر المسلمون إلى تنظيم الدولة ووضع الأصول والقواعد التي تجرى عليها الادارة وأمور الجيش والخراج . ولم تكن للعرب سابقة في شيء من هذا فاستعانوا بالأمم المغلوبة ، واستعاروا لذلك نُظُمَها أول الأمر ، فكان النظام فارسيا واللغة فارسية فى دواوين (دفاتر) العراق وفارس ، وكان النظام يونانيا واللغة يونانية أو قبطية فى دواوين الشام ومصر ، حتى إذا مضى الجيل الأول ونشأ جيل من العرب يعرف اللغات الأجنبية ،وجيل من الأجانب يحسن اللغة العربية نقلت الدواوين شيئا فشيئا إلى اللغة العربية فى أقطار الدولة كلها . بدأ ذلك فىأيام عبد الملك ، وتم قليلا قليلا ، وكان الأجانب الذين أحسنوا اللغة العربية أكثر من العرب الذين تعلموا اللغات الأجنبية ، فاستمر الخلفاء والأمراء يستعينون بالكتاب والعمال من الموالى ، وأصبحت كتابة الدواوين صناعة عُنِيَ بها الموالى عناية شديدة ، واتخذوها وسيلة يحفظون بها على أنفسهم شيئا من السلطان ، ويرقّوْن بها إلى مرضاة الخلفاء والولاة ونيل الحُظوة عندهم ، ومن اتقان هؤلاء الكتاب الموالى لصناعتهم الفنية واتقانهم للغة العربية ، وعلمهم بأن العرب حِراصٌ على جودة القول والبراعة فيه ظهرت فى التاريخ العربى هذه الظاهرة التى قلما نجدها فى تاريخ الأمم القديمة الأخرى وهى أن الرسائل الرسمية الفنية أصبحت مظهرا للجمال الفنى الأدبى ، يجد القارىء فيها من اللذة مثلما يجده من يستمع للشاعر المجيد، أو الخطيب الفذ .

وربما كان من الاسراف أن يقال إن النثر الفنى قد ظهر فى شيء غير هذا طَوَال العصر الأموى ، إلا ما كان يجرى على ألسنة الفصحاء من الحِكم والأمثال، وما كان يصطنعه القُصَّاص والعلماء حين يقصون على الناس أو يعلمونهم من هذه اللغة العذبة القوية التى لانزال نجدها فى كتب الأدب والتاريخ ، ولاسيما مااعتمد فيه أصحابه منها على الرواية . ويقال ان أول من ظهر تفوقه فى صناعة الكتابة الرسمية هذه سالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه ، ثم تلميذه عبد الحميد بن يحيي

كاتب مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، وقد اتفق الناس على أن عبدالحميد هذا زعيم الكتاب لأنه فيما يظهر أول من وضع للكتابة الأصول والقواعد وأخذ الكتاب باتباعها .

ومهما يكن من شيء فقد ظهر هذا النوع من النثر الفنى قويا واضحا فى أواخر العصر الأموى ، ولكنه كان فى أول أمره لم يبلغ أشده ولم يبلغ حظه الصحيح من الرقى إلا حين تقدم القرن الثانى للهجرة أيام بنى العباس ، على أنَّ النثر الفنى إذ ذاك مهما يكن عربى اللغة والأسلوب قد اشترك فيه الأجانب إلى حد بعيد .

الثقافة العلمية الاسلامية

الى آخر الدولة الأموية

علمنا من قبل أن العرب فى جاهليتهم لم يكن لهم علم بالمعنى المعروف الآن لهذه الكلمة ، وانما هى أخبار يتناقلونها ، أو نظر فى النجوم أو الطب أو نحو ذلك دلتهم عليه التجارب الناقصة ، ولكن شيئا من ذلك لم ينظم ولم توضع له قواعد حتى يسمى علما ، وكانت الأمية فاشية فيهم ، حتى ندر أن ترى بينهم القارئ الكاتب ، وهذا طبيعى فان العلم من آثار الحضارة والعمران ، ولا يمكن أن يرقى ويتقدم إلا فى ظل المدنية .

فلما جاء الاسلام شجّع على تعلم القراءة والكتابة ، وحثّ النبى صلى الله عليه وسلم على تعلمهما ، لأن نشر الدين كان يتطلب القارئين الكاتبين ، فقد كانت آيات القرآن تكتب ، ويتلوها من يعرف على من لم يعرف ، بل حثّ النبى بعض أصحابه أن يتعلم لغة غير اللغة العربية ، فقد أمر زيد بن ثابت أن يتعلم العبرية والسريانية .

وقد رأيتَ قبلُ أن الاسلام نقل العرب من طور البداوة الى طور آخر انتظمت فيه أمورهم ، وتكونت منهم أمة تخضع لسلطان واحد وقانون واحد ، كل هـذا أسرع فى مدنيتها وحضارتها ، أضف إلى ذلك أن الفتح الاسلامى مكن العرب من الاطلاع على ما كان للفرس والروم من حضارة ، وكوّن ممن خضع للاسلام من هذه الأمم مملكة واحدة ، تستخدم وسائل الرقى حيثما وجدت .

كل هذا أسرع فى حضارة الأمة الاسلامية ، واستتبع ذلك نشوء العلم وسيره السريع الى التقدم والارتقاء .

واذا نحن تتبعنا الحركات العلمية فى هذا العصر وجدناها أنواعا ثلاثة :

فأولا — وهو أهمها وأوسعها نطاقا العلوم الدينية . فقد أقبل كثير من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم على القرآن يتدارسونه ويتفهمونه ويستنبطون منـه الأحكام للحوادث التى تعرض لهم ، واشـتهر من هؤلاء الصحابة العلماء عمر وعلى وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وعبدالله بن عباس وزيد بن ثابت وعائشة ، وهؤلاءوغيرهم تفرقوا فى الأمصار المختلفة فالتف حولهم الناس فى كل قطر يتعلمون منهم معانى القرآن وأحاديث رسول الله، وكيف يستنبطون الأحكام منها ، فكان عبد الله بن مسعود مثلا فى العراق ، وعبدالله بن عباس فى مكة ، وعبدالله بن عمرو ابن العاص فى مصر وهكذا ، وكان لكل منهم تلاميذ ينقلون عنهم العلم،وقد سميت الطبقة التى أخذت عن الصحابة "بالتابعين" .

وقد زاد هذه الحركة ظهورا وسعة الموالى ، وهم الذين كانوا من أصـل غير عربى كالفرس والروم ودخلوا فى الاسلام ، فانهم لحضارتهم القديمة ومعرفتهم علوم قومهم استطاعوا لمـا دخلوا فى الاسلام أن يشـتغلوا بالعلوم الاسلامية على النمط الذى كان عليه علم قومهم ، وقد اشتهر من هؤلاء التابعين كثيرون كمجاهد بن جبر وعِكْرِمة بمكة ، وسعيد بن جُبَيْر بالكوفة والحسن البصرى ومحمد بن سِيرِين بالبصرة .

ثانيا — من المعارف التى بدأت فى ذلك العصر الحركة التاريخية ، وذلك أن بعض الأمم التى دخلت فى الاسلام أخذت تذكر تاريخ أممها بين المسلمين ، فانتشر فى ذلك العصر كثير من أخبار الفرس واليهود ونحوهما . وأهم من ذلك أن المسلمين بدءوا يُعْنَون بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته وأعمال أبى بكر وفتوح عمر ونحو ذلك مما كان أساسا بنى عليه فى العصر العباسى ما ألف من كتب التاريخ .

ثالثا — الفلسفة وما اليها ، وسببها أن المسلمين فتحوا مدنا فيها مدارس سريانية مثقفة بالثقافة اليونانية وأشهرها مدرسة الرُّها ، ونصيبين ، فلما جاء الاسلام ظلت هذه المدارس تؤدى عملها فى نشر هذه الثقافة . ومن هذه المدارس أكثر الأطباء الذين كانوا فى قصور بنى أمية ، فان الدراسة الطبية كانت متصلة بالدراسة الفلسفية اتصالا كبيرا . ومن أشهر هؤلاء ابن أثال وكان طبيبا نصرانيا لمعاوية ، وماسرجويه وكان طبيبا اسرائيليا فى زمن عمر بن عبد العزيز ، وهكذا .

وهذه الأنواع كلها من العلوم كانت فى عهد الدولة الأموية ، ساذجة بسيطة لم تنضَج ويكثر التدوين فيها إلا فى العصر العباسى .

العصر العباسى الأول

الحياة العربية فى القرن الثانى للهجرة

كانت المائة الأولى للهجرة عصر تطور خضعت له الأمة العربية من جهة ، والأمم الأجنبية المغلوبة من جهة أخرى ، وكان أهم الأسباب التى بعثت هذا التطور الاسلام والاختلاط بين العرب وغيرهم من الشعوب ، وكان الأدب العربى فى القرن الأول مظهرا صادقا لتغير النفس العربية ، وتأثرها بالحياة الجديدة التى استتبعها الاسلام ، على حين كان الأدب العربى فى القرن الثانى مظهرا صادقا لتغير النفس الأعجمية الأجنبية بهذه الحياة ، ومعنى ذلك أن الأدب العربى فى القرن الأول ظل عربيا فى جوهره ، وتأثر بالاسلام وهو دين عربى تأثرا قويا ،

ولم يؤثر فيـه اختلاط العرب بغيرهم من الأمم الا قليلا . أما فى القرن الثانى فقد أصـبح الأدب أجنبيا فى الجملة ، لغته العربية ، وأخذ تأثير العرب فيه يضعف شيئا فشيئا لأن الأدباء الذين أنشئوه كان أكثرهم من الأجانب الذين تعلموا العربية و برعوا فيها ، أو نشئوا فى حجور آباء وأمهات تعلموا العربية و برعوا فيها . والواقع أن الأدب ظل عربيا طوَال القرن الأول ريثما يتاح للأمم المغلوبة أن تُسْلِم وتتعرب وتشترك فى الحياة الاسلامية العامة ، وما كاد القرن الأول ينقضى حتى كان الاسلام قد أخذ يبسط ظله الدينى على النفوس بعد ما بسط ظله السياسى على أقطار الأرض ، وحتى كان كثير من الأجانب قد فزِعوا الى الاسلام ليظفَروا بالمساواة فى الحقوق السياسية والاجتماعية ، والى اللغة العربيـة لينفقوا كفاياتهم فى خدمة الفاتحين ، و يأخذوا بحظوظهم من مناصب الدولة وسلطانها ، وقد ظهرت آثار ذلك فى العصر الأموى نفسه ، فرأينا جماعة من الموالى يجيدون الشعر و يتفوقون فيه ، و يقربهم ذلك من الخلفاء ، و يضمن لهم الحُظوة لديهم ، ورأينا جماعة آخرين ينشئون النثر الفنى انشاء ، و يمكنهم ذلك من أن يشغَلوا مناصب الكتابة فى الدواوين والاشراف على أعمال الدولة ، وكان ظهور هذا فى العصر الأموى مؤذنا بما سيؤول اليه أمر العرب اذا لم يحزموا أمورهم ، و يحتفظوا بسلطانهم من الفناء والاضمحلال ، وقد عجز العرب عن حزم أمورهم ولم يحتفظوا بسلطانهم ، بل أصـبح بعضهم لبعض عدوا بتأثير العصبية وما دعت اليه من جهاد وصراع وتنافس ، فضعفوا وقوى الأجنبى ، وكانت الثورة التى انتهت بالادالة من بنى أمية لبنى العباس فى حقيقة الأمر ثورة أجنبية ، سجلت انتصار العنصر الأعجمى الفارسى على العنصر العربى ، وضمنت للمتصرين ما كان العرب يستأثرون به من ألوان السيادة وضروب السلطان وليس غريبا أن تظهر هذه الثورة فى شرق البلاد الاسلامية و يتم فيها الفوز للأمة الفارسية ، وتظل الأمم المغلوبة الأخرى هادئة مذعنة فى الشام ومصر ، فقد كان الفرس حين ظهر الاسلام أهل سيادة و بأس وسلطان ، وكانت هذه الأمم مغلوبة خاضعة لسلطان الروم ، فلا جرم أن كان الصراع عنيفا بين العرب والفرس

ويسيرا فاترا بين العرب والأمم الأخرى ، وكان ميدان هذا الجهاد إبّان القرن الأول العراقَ ، حيث التقى الشعبان وظهر ما بينهما من اختلاف الأهواء وتباين المنافع وتناقض الأغراض ، ومن هنا كان العراق فى العصر الأموى موطن المعارضة السياسية الحادة ، ومهد الحركة الفكرية الخصبة ومستقر الحياة الأدبية القوية ، ومن هنا كانت نتيجة الثورة وانتصار الفرس أن انتقل مركز السلطان من الشام إلى العراق ومن دمشق إلى بغداد .

اختلاط الحضارات الأجنبية وتأثيرها فى الأدب العربى

ولأجل أن نتبين طبيعة الأدب العربى الجديد وما بينه وبين الأدب العربى الأموى من فرق يجب أن نتبين طبيعة الشعب الذى كان هذا الأدب مرآة تصف حياته وتصوّر أهواءه وميوله .

لم يكن هذا الشعب عربيا خالصا ، ولا فارسيا خالصا ، وانما كان مزاجا أنشأه الاختلاط بين هذين الشعبين وأخلاطا من شعوب أخرى كانت تسكن العراق وتعمل فى أرضه منذ عهد بعيد جدا ، وكانت عقلية هذا الشعب الجديد تتكون من العقلية العربية الجاهلية والاسلامية ومن العقلية الفارسية ، ومن العقلية السامية القديمة . وقد تأثرت قليلا أو كثيرا بالديانة المسيحية والثقافة اليونانية ، فليس غريبا أن تكون حياة هذا الشعب المعقد مخالفة للحياة العربية الخالصة ، وأن تكون المرآة التى تعكس هذه الحياة مخالفة للمرآة التى كانت تعكس حياة العرب أيام بنى أمية ، والواقع أن الفرق بين هذين النوعين من الحياة كان عظيما جدا ، فقد ضعف تأثير البداوة العربية الخالصة فى هذا الجيل من أهل العراق ، واشتد فيه تأثير الحضارة الفارسية القديمة ، ونشأ عن ذلك وعن ذهاب سلطان العرب أن استمتع هذا الجيل الجديد بكل ما كان مقصورا على العرب من الحقوق والامتيازات وسُوِّىَ بين الغالب والمغلوب فى كل شىء ، وكان حظ كثير من هذا الجيل من الاذعان لأحكام الاسلام قليلا ضئيلا لحداثة عهده بهذا الدين ، ولقوة ما كان للديانة الموروثة على نفسه من سلطان ، وكانت اللغة التى يتكلمها هذا الجيل نفسها

وسطا بين الفصاحة العربية الخالصة والرطانة الأعجمية ، فلا عجب أن يظهر الفرق بين ما كان لهذا الجيل من مثل أعلى فى الحياة الأدبية والعقلية وما كان للجيل الذى سبقه ، وأهم مظاهر الفرق بين هاتين الحياتين أن الجيل الجديد ظهر فيه الميل الشديد الى الحياة العلمية ، فكثر فيه العلم ، واختلفت أنواعه ، فمنه ما استُحْدِث بعد ان لم يكن ، ومنه ما كان موروثا ولكنه نما وارتقى ، ومنه ما نقل عن الأمم الأجنبية نقلا ، ثم أخذ الناس يدرسونه و يمحصونه حتى أساغوه أولا ، ثم طبعوه بطابَعهم الخاص ثانيا . وكان فى الجيل الأموى علم ولكنه كان عربيا اسلاميا خالصا ، حظه من البداوة عظيم ، أما الآن فقد أصبح هذا العلم كثيرا مختلف الأنواع معقد الأصول متشعب الفروع ، وبَعُد فى هذا الجيل عهد الأدب بالبداوة العربية، فقل حظه من السهولة واليسر ، وكثر حظه من التكلف الفنى وأصبح نتيجة الصناعة والتعمل بعد أن كان نتيجة الطبع والسجية الحرة المطلقة ، ونشأت فى الأدب فنون لم تكن معروفة أو لم تكن معروفة الا قليلا ، وتطورت الفنون الأخرى تطورا يلائم هذه البيئة الجديدة ، وهذا العقل الجديد .

الشعر فى هذا العصر

أما الشعر فلم يضعف فى هذا العصر الجديد بل قوى ونما ولكنه تطور فى ألفاظه ومعانيه وفى أوزانه وقوافيه وفى أغراضه وفنونه .

فأما ألفاظه فرقت وسهلت حتى بعدت الصلة فى كثير من الأحيان بينها وبين الألفاظ الشعرية التى كانت مألوفة فى العصر الاسلامى أيام الفرزدق والأخطل وجرير ، وانك لتقرأ الكثير من شعر مسلم بن الوليد وأبى العتاهية والعباس بن الأحنف فيخيل اليك أنك تقرأ كلاما منثورا لولا الوزن والقافية ، وتطورت المعانى التى كان الشعراء يتخذونها طريقا إلى أغراضهم فانصرف الشعراء فى أكثر الأحيان عن المعانى البدوية أو الحضرية المتأثرة بالبداوة إلى معان حضرية صرفة ، ليس بينها وبين البداوة صلة ، وبعد أن كان الشعر الجاهلى

والاسلامى مرآة للطبع يكاد يصدر عنه فى غير تكلف ولا تعمل أصبح الشعر فى هذا العصر مرآة لطبع مهذب متحضر ، وأصبح لا يصدر عن هذا الطبع إلا بعد أن يسيطر عليه العقل فيصلح من أمره ، ويرده إلى حدود كان الخيال يتجاوزها أو يهملها ، فأصبح العقل يرى تجاوزها واهمالها تجاوزا للذوق ، وتقصيرا فى الاتقان الفنى ، واشتد زهد الشعراء فى هذه الأوزان الطويلة فى كثير من الأحيان ، وآثروا عليها الأوزان السهلة الخفيفة القصيرة ولاءموا بين الموضوعات والأوزان ، فهم يختارون للغزل والعبث والمجون أوزانا تلائمها ، فاذا مدحوا الخلفاء والوزراء أو رثوا أو عرضوا للجد من الأمور آثروا الأوزان الطويلة الضخمة ، ويسّروا على أنفسهم فى القوافى إلى حدّ ما ، فاختاروا أيسر الألفاظ وأسهلها وأحبها إلى السمع ، وتجنبوا ما كان القدماء لا يحفلون بالتورط فيه من عيوب القافية كالايطاء والاقواء والاكفاء والسناد .

أغراضه وفنونه

وأما أغراض الشعر وفنونه فمنها مالم يستطع البقاء طويلا فى هذا العصر الجديد كالشعر السياسى الذى قلت الحاجة اليه بعد أن انحلت الأحزاب وبطل الجهاد بينها ، والواقع أن أمر هذا الفن أخذ يضعف شيئا فشيئا حتى استحال إلى نوع من الهجاء يقوله الشاعر على خوف وحذر حين تسنح له الفرصة ، وكالغزل العُذْرى الذى لم يبق له مجال متسع إلا قليلا فى هذه البيئة التى لم تكن العفة والطهر من مميزاتها .

ومنها ما تطوّر تطوّرا قليلا أو كثيرا كالغزل العادى ، فقد أصبح صناعة متكلفة قلما يصدق فى وصف العاطفة وتصوير ميول النفس ، وانما كان كثير من الشعراء يستبقونه على أنه فن موروث لا ينبغى أن يضيع ، وقد استحدثوا مكانه غزلا جديدا كان أصدق تصويرا لنفوسهم وبيئتهم وما انتهت اليه حياتهم من الفساد لكثرة الرقيق ، ولِما كان لهذا الرقيق من سلطان على النفوس وهو الذى يسمونه غزل المذكر .

وكالهجاء الذى ازداد قبحا وعظم حظه من الاقذاع والفحش يُقصَد اليه ويبحث عنه وتلتمس فيه السيئات التماسا .

وكالمدح الذى كثرت فيه المبالغة واشتد فيه الاسراف وبعد فيه الشعراء عن القصد الذى هو من مميزات الطبع العربى الخالص ، وسَفَل به الشعراء حتى اتخذوه أداة للكسب فى غير تعفف ولا كرامة ولا حياء .

وأشد الفنون الشعرية وأكثرها نموا وشيوعا فى هـذا العصر المجون ووصف الخمر ، وقد دعا إلى نمو هـذا الفن وتهالك النـاس عليه ما أحدثه الانتقـال من فساد الأخلاق وانحلال الروابط الاجتماعية ، وتسلط الاماء على الحياة المنزلية ، واستبدادهن بمكان الحرائر من الرجال واتقانهن للعربية وآدابها ، وبروزهن للناس ، واشتراكهن فى حياة العبث واللهو جهرا ، وما كان من تسلط الرقيق من غلمان الترك والروم على نفوس الزعماء والسادة ، واستئثارهم بالسلطان على حياة هؤلاء الزعماء يدبرون قصورهم وثروتهم كما يحبون ويشتهون ، أضف إلى هذا كله ظهور المذاهب الفلسفية المختلفة وكثرة المقالات الدينية وما يدعو اليه هذا من اضطراب العقول وتسلط الشك على نفوس الطبقة الوسطى من الناس .

على أن فنا آخر من الشعر جِدِّيا ظهر فى هذا العصر ، وكان أبو العتاهية هو الذى أظهره وأذاعه وهو الزهد ، ومهما يكن ظهور هذا الفن غريبا فى هـذه البيئة فان تعليله يسير بما كان من اشتداد الصلة بين العرب والفرس ، وانتشار الحكمة الشرقية فارسية وهندية فى هذه البيئة ، وحرص الفرس على اذاعتهـا ، فظهرت هذه الحكمة فى زهد أبى العتاهية شعرا ، وظهرت فى كتب ابن المقفع نثرا ، ولكنها لم تجد ما يزينها من شـعر أبى العتاهية كما وجدت ما يجملها من نثر ابن المقفع ، وظهر فى هذا العصر نوع طريف من الشعر ليس له هذا الجمال الشعرى الذى نألفه فيما ورثناه من شعر القدماء والمحدثين ، ولكن ظهوره يدل على ما كان من تسلط العقل على الحياة الأدبية فى هذا العصر ، وهذا الفن هو الشعر التعليمى الذى اتخذه أصحابه وسيلة إلى نظم ألوان من فنون العلم ليسهل حفظها

واستظهارها ، فمنهم من نظم كليلة ودمنة ، ومنهم من نظم قصائد فى الفقه وما إلى ذلك من الفنون التى كان المثقفون يحرصون على إتقانها وإجادتها .

وبرعت طائفة من شعراء هــذا العصر فى الوصف المـادى على نحو ما كان يفعل العرب الجاهليون والاسلاميون ، ولكنهم غيروا موضوع هذا الوصف ، فلم يسرفوا فى وصف الإبل والخيل والصحراء ، بل لم يقصدوا إلى هذا النوع من الوصف إلا حين كانت تدعوهم اليه المحافظة على السنن الشعرية الموروثة ، وانما وصفوا أشياء جديدة أحدثتها الحضارة العباسية كالقصور والبساتين والكئوس وما يتصل بكل هذا من أدوات اللهو والترف حتى الصيد ، فقد اتقنه الجاهليون ، وانصرف عنه الاسلاميون ، ولكن هؤلاء الشعراء والمحدَثين عادوا اليه وأكثروا فيه ، وسلكوا سبيلا غير سبيل الجاهليين ، فوصفوا الصيد على نحو ما كان يصطنعه الفرس ، ودققوا فى وصف الكلاب والجوارح تدقيقا لم يوفق اليه الجاهليون ، ومن الغريب أنهم اتخذوا الرجز أداة لهذا الوصف ، وبرع أبو نواس فيه وأكثر من الغريب كأنه يريد أن يزن التجديد فى المعنى بالمحافظة الشديدة فى اللفظ .

هذه هى صورة مجملة شديدة الاجمال ، فيها نقص كثير ، لحياة الشعر العربى فى القرنين الثانى والثالث للهجرة ، ولكن الاكتفاء بها كما هى لا يغنى من يريد الالمام بالحياة الأدبية فى هذا العصر ، فلا بد من الوقوف عند جماعة من الشعراء الذين صارت اليهم الزعامة الفنية فى العراق لنتبين خصائصهم ، ولنتبين من هذه الخصائص نفسها صحة هذه الصورة المجملة .

وهؤلاء الشــعراء طبقات يتبع بعضها بعضا عن قرب ، ويلاحظ الناظر فى تاريخها أن كل واحدة منها كانت تخطو بالشعر خطوة إلى الأمام ، بالقياس إلى الطبقة التى سبقتها ، فأما أولى هــذه الطبقات فزعمـاؤها ثلاثة . بشار بن برد والســيد الحِميرى ومروان بن أبى حفصــة وكلهم ولد فى أيام بنى أميــة ، ونشأ فى ظلهم ، ومنهــم من أدركه العصر العباسى وقد شب وأكثر من قول الشــعر والاجادة فيه .

بَشَّار بن بُرْد

فأما بشار بن برد ففارسيُّ الأصل وأبوه فيما يقال من سبي المهلب بن أبي صُفْرة ، وكان ولاؤه في بني عقيل من قيس عَيْلان ، ونشأ بشار في البصرة نشأة عربية خالصة ، فأتقن اللغة وبرع في الأدب ، وكان شاعرا محاورا وخطيبا ، واختلف إلى مسجد البصرة وما كان يقام فيه وفي غيره من مجالس المتكلمين ، وأصحاب المقالات الدينية والسياسية فاضطرب بين هذه المذاهب ، وكاد يستقر رأيه على مذهب المعتزلة ، فقد فتِن بواصل بن عطاء زعيمهم ، ومدحه فأحسن مدحه ، ثم وقع الخلاف بينه و بينهم فتركهم وهجاهم ، واستطار الشر بينه و بين واصل حتى تحدّث واصل بأنه كاد يدس اليه من يقتله لولا أن دينه وخلقه يأبيان عليه الغِيلة ، وصار بشار إلى الشك ثم إلى الزندقة ، وصار في الوقت نفسه إلى الشُّعُوبية ، فكره العرب ودينهم وأحب الفرس وفاخر بهم وآثر مذهبهم الديني ، يجهر بهذا ان سنحت له الفرصة ، ويخفيه ان أشفق من السلطان .

شعره

على أن الذى اشتهر من أمره حتى عرفه الناس به انما هو الشعر دون غيره من ألوان العلم والفن ، فقد كان شاعرا مجيدا ، تأثر الشعراء الاسلاميين وأخذ عنهم ، وكان يحب جريرا و يؤثره على غيره ، وقد أدركه وهجاه فيما يقول الرواة رغبةفى أن ينوِّه به جرير فيرتفع أمره ،ولكن جريرًا أعرض عنه .وكان بشار عربي النزعة في الشعر ، حريصا على متانة اللفظ ورصانته ، قلما يميل إلى تجاوز المألوف في الألفاظ والأساليب والوزن والقافية ، ولكن مِزاجه الفارسي قد ترك فى شعره أثرا ظاهرا ،فسنحت له خواطر ومعان لم تكن تسنح للشعراء من العرب الخُلَّص ولاسيما حين كان يتغزل ، فقد مال في غزله إلى نحو من الفنون والمجون لم يعرفه الغزِلون من شعراء الحجاز ،سواء منهم العذريون وأصحاب المجون. كان بشار صريحا في غزله قبيح الصراحة أحيانا ، وكان مسرفا في الرقة إذا تغزل ، حتى خاف الأشراف وأهل الصلاح شره على النساء والشبان فذمه الوعاظ والقصاص

فى وعظهم وقصصهم، وشكاه أشراف الناس إلى السلطان فنهاه المهدى عن الغزل فانتهى على كره ونفاق . وكان طويل اللسان مُقْذِع الهجاء مسرفا فيه ، لا يتحرج ولا يرعى لأحد عهدا ولا ذمة ولا مكانة ، وما زال به اسرافه فى الغزل الفاجر والهجاء المقذع والشك المريب حتى كاد له بعض خصومه عند المهدى فأمر بضربه حتى مات سنة ١٦٧ ﻫ

وكان شعر بشار كثيرا ، يقال انه بلغ اثنى عشر ألف قصيدة ، ولكن لم يبق لنا من هذا الشعر الكثير الا مقطعات متفرقة فى كتب الأدب نعرف فيها شدّة اللفظ ومتانته اذا جدّ، ونعرف فيها اللين والفتور اذا تغزل أو هزل ، ونعرف فيها على كل حال جودة المعانى ودقتها وحسن الاستقصاء لها .

والرواة مجمعون على أنه زعيم الشعراء المحدثين كافة، وقد نستطيع أن نقبل هذا لو أن من شعره بين أيدينا مقدارا يمكننا من الحكم عليه .

وكان بشار أكمه ، قبيح المنظر ، ضخم الجسم ، ثقيل الظل ، يُعْجَب الناس به ولا يحبونه (١) .

---

(١) أمثلة من شعره .

اجعل الحبَّ بين حِبِّى وبينى ... قاضيا اننى به اليوم راضى

فاجتمعنا فقلت ياحِبَّ نفسى ... إن عينى قليلة الاغماض

أنت عذبتنى وأنحلت جسمى ... فارحم اليوم دائم الأمراض

قال لى لا يحلُّ حكمى عليها ... أنت أولى بالسقم والاحراض

قلت لما أجابنى بهواها ... شمل الجور فى الهوى كلَّ قاضى

وقال

لم يطل ليلى ولكن لم أنم ... ونفى عنى الكرى طيف ألم

واذا قلت لها جودى لنا ... خرجت بالصمت عن لا ونعم

نفِّسى ياعبد عنى واعلمى ... أننى ياعبد من لحم ودم

ختم الحب لها فى عنق ... موضع الخاتم من أهل الذمم =

السيد الحِميَرى

وأما السيد الحميرى واسمه اسماعيل بن محمد فعربى من يمانية العراق ، نشأ كبشار فى العصر الأموى ، وأظله عصر بنى العباس ، وقد أكثر من قول الشعر والاجادة فيه ، وكان أبواه من الخوارج الإباضية ، ولكنه نشأ شيعة لعلى و بنيه ، فاستنفد فيهم أكثر شعره ،ولم يمنعه حبه اياهم أن يمدح العباسيين ،و يأخذ جوائزهم ، ولكنه كان صريحا لا يخفى حبه للعلويين مخافة بنى العباس ، كما أنه كان يحب العباسيين و يؤثرهم على بنى أمية ، ويستبشر بقيام دولتهم .

وكان السيد الحميرى ضعيف العقل مضطرب النفس شديد التردد ، وكان هذا كله مصدر ما يروى عنه من سخف كثير ،فقد يؤمن بالرجعة والتناسخ ، و يفهم ذلك فهما أدنى إلى فهم العامة منه إلى فهم العلماء ، وكان لفظه اذا قال الشعر سهلا يسيرا ربما أسرف فى السهولة واليسر حتى أسَفَّ وابتُذِلَ، أما معانيه فكان منها الجيد القيم ، ومنها السخيف المرذول ، وقد ضاع شعره الا مقطعات مفرقات فى الكتب وتوفى سنة ١٧٣ هـ [١]

وقال

= اذا ما غضبنا غضبة مضرية　　هتكنا حجاب الشمس أو تمطر الدما
اذا ما أعرنا سيدا من قبيلة　　ذرا منبر صلى علينا وسلما

وقال

يقولون لو عزيت قلبك لارعوى　　فقلت وهل للعاشقين قلوب
اذا نطق القوم الجلوس فانني　　مكب كأنى فى الجميع غريب

(١) أمثلة من شعره قال :

أمرر على جدث الحسين　　فقل لأعظمه الزكية
آأعظما لا زلت من　　وطفاء ساكبة روية
واذا مررت بقبره　　فأطل به وقف المطية
وابك المطهر للمطهر　　والمطهرة النقية
كبكاء معولة أتت　　يوما لواحدها المنية =

مَرْوَانُ بن أبي حَفْصَة

وكان مروان بن أبي حفصة من أسرة فارسية جلب أصلها إلى الحجاز أيام عثمان بن عفان ، فوهبه عثمان لمروان بن الحكم فأخلص هذا الرجل لمروان وأحسن البلاءفي الدفاع عنه يوم الدار فأعتقه مروان ، واستقر الرجل في اليمامة فظلت أسرته فيها طوال العصر الأموي ، وفي هذا العصر ولد شاعرنا ونشأ وشب حتى أدخل على الوليد بن يزيد ، ولكن تفوقه في الشعر لم يظهر الا أيام العباسيين ، وقد أبى مروان بن أبي حفصة أن يترك اليمامة ويستقر في مصر من أمصار العراق ، فظل بعيدا عن التأثير الفارسي الى حد ما ، وظهر أثر ذلك في شعره ، فهو متين رصين ، جزل اللفظ صُلب المعنى أشبه بشعر الفحول من شعراء الاسلام ، وقد انقطع أول أمره لعامل من عمال العباسيين في جزيرة العرب هو معن بن زائدة الشيباني ، فأحسن مدحه وأكثر فيه وأخذ منه أموالا طائلة ، واشتهر شعره حتى بلغ المهدي فحسد عليه عامله ، كالذي كان بين جرير والحجاج وعبد الملك ، ثم عظم أمر مروان فارتحل بشعره الى العراق ومدح الخلفاء من بني العباس وأحسن مدحهم ، ووجه هذا المدح نحو الدفاع عن الخلافة العباسية والرد على العلويين وانكار حقهم في الخلافة ، ففتح هذا الباب للشعراء المعاصرين فدخلوا فيه من بعده ، وقدر له

وقال

= سائل قريشا اذا ما كنت ذاعمه من كان أثبتها في الدين أوتادا؟
من كان أعلمها علما وأحلمها حلما وأصدقها قولا وميعادا ؟
ان يصدقوك فلن يعدوا أباحسن إن أنت لم تلق للأبرار حسادا

وقال

أيها المادح العباد ليُعطى إن لله ما بأيدي العباد
فاسأل الله ما طلبت اليهم وارج نفع المنزِّل العوّاد
لا تقل في الجواد ما ليس فيه وتسمى البخيل باسم الجواد

الخلفاء ذلك فأجزلوا العطاء له ، وكانوا يشترون منه البيت بألف درهم . وكان مروان بن أبي حفصة صاحب صنعة وتجويد للشعر يبطئ فى قوله ثم يعيد النظر فيه اذا فرغ منه ، ولا ينشد القصيدة بين يدى الخليفة حتى ينفق فى قولها وتجويدها واستشارة الأدباء والعلماء فيها سنة كاملة وقد توفى سنة ١٨١ هـ [١]

وقد تأثرت هذه الطبقة ولا سيما بشار والسيد الحميرى بالفرس وحضارتهم من غير شك تأثرًا قويا ، ولكن تأثرها باليونان وعلومهم كان قليلا بالقياس الى الطبقة التى جاءت بعدها ، وزعماء هذه الطبقة الثانية ثلاثة أيضا هم أبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد .

---

(١) أمثلة من شعره . قال يدافع عن العباسيين و يرد على العلويين :

أنى يكون وليس ذاك بكائن ... لبنى البنات وراثة الأعمام

وقال يمدح بنى مطر وهم معن واخوته :

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم ... أسود لها فى بطن خفان أشبل
تجنب لا فى القول حتى كأنه ... حرام عليه قول لا حين يسأل
تشابه يوماه علينا فأشكلا ... فلا نحن ندرى أى يوميه أفضل
أيوم نداه الغمر أو يوم بأسه ... وما منهما الا أغر محجل
بهاليل فى الاسلام سادوا ولم يكن ... كأولهم فى الجاهلية أول
هم القوم ان قالوا أصابوا وان دعوا ... أجابوا وان أعطوا أطابوا وأجزلوا
هم يمنعون الجار حتى كأنما ... لجارهم بين السماكين منزل
وما يستطيع الفاعلون فعالهم ... وان أحسنوا فى النائبات وأجملوا

وقال فى معن بن زائدة الشيبانى :

قد آمن الله من خوف ومن عدم ... من كان جارا له من جور ذا الزمن
معن بن زائدة الموفى بذمته ... والمشترى المجد بالغالى من الثمن
بر العطايا التى تبقى محامدها ... غنما اذا عدها المعطى من الغبن
بنى لشيبان مجدا لا زوال له ... حتى يزول ذوو الأركان من حضن

أبو نُوَاس

فأما أبو نواس الحسن بن هانئ فولد سنة ١٤٥ ولم يدرك العصر الأموى ، ولكن أباه كان من جند مروان بن محمد من أهل الشام ، وكانت أمه فارسية من الأهواز ، ونشأ فى العراق نشأة هذا الجيل الذى وصفناه آنفا ، فكانت لغته عربية ، وحضارته فارسية ، وثقافته مزاجا من الثقافة العربية الفارسية ، ومن الثقافة اليونانية التى أخذت تشيع وتنتشر فى عصره ، وكان شباب أبى نواس شديد النشاط فكان يتصل بالشعراء والأدباء وأهل اللغة فيأخذ عنهم ، وكان يختلف الى مجالس المتكلمين فيأخذ بحظ من الكلام ، وكان يسمع للقصاص والمحدثين فيروى عنهم ، ثم كان يفرط فى الأخذ بحظه من الحياة ولذاتها .

وأبو نواس هو الشاعر الذى يمثل هذا العصر الجديد أصدق تمثيل ، يمثله من ناحيته الأدبية ، فقد كان راوية كثير الرواية ، يتقن اللغة العربية قولا وعلما ، ويمثله من هذه الناحية التى التقت فيها الثقافات الثلاث المختلفة ، فهو عربى خالص اذا قصد إلى بعض أنواع الجد كالمدح والرثاء ، وهو اذا قصد الى الهزل ظَرُف ولاءم بين هذه الثقافات كلها ، فأخذ عن العرب لفظا متينا جزلا ، وأخذ عنهم أوزانهم وقوافيهم ، وأخذ من الفرس أوصافهم المادية للحياة المتحضرة ، وأخذ من اليونان معانيهم الدقيقة واصطلاحاتهم الفلسفية ، وقد أكثر أبو نواس من قراءة شعر الوليد بن يزيد ، وكان الوليد وصافا للخمر فوصفها أبو نواس وتفوق فى وصفها على أستاذه .

شعره

وشعر أبى نواس يصور فساد البيئة العراقية فى ذلك العصر فهو أكثر الشعراء فى هذا العصر مجونا ، وأشدهم افحاشا فى هذا المجون ، وأقلهم احتياطا فى القول والعمل ، أقام فى العراق مترددا بين البصرة والكوفة وبغداد ، ثم رحل الى الشام ثم الى مصر ، ثم عاد الى العراق واستفاد من كل هذه البيئات ، وكان ثورة

التجديد قد وجدت فيه أداة صالحة فاتخذته لها ترجمانا ، فكان أبو نواس أشد شعراء هذا العصر سخطا على المذهب الشعرى القديم ، ودعوة الى العدول عنه الى المذهب الجديد الذى يؤثر الحضارة على البداوة ، ويريد أن يكون الشعر حضريا فى ألفاظه ومعانيه وأغراضه .

ولم يكن أبو نواس بريئا من الشُّعُوبية وبغض العرب ، وكانت تهمة الزندقة تحوم حوله ، ولم يكن يتحرج من الجهر بالفسق والمعصية ، معتمدا على عفو الله ومغفرته ، وقد كره الرشيد والأمين منه هذا كله أو بعضه فحبساه وغضبا عليه ، ولكن حبسه والغضب عليه كانا ينتهيان دائما بالعفو عنه ، ومات أبو نواس فى آخر هذا القرن الثانى سنة ١٩٩ (١)

(١) أمثلة من شعره :

بعث للفضل بن الربيع وكان قد حبس لتهتكه :

أنت يا ابن الربيع علمتنى الخير وعودتنيه والخير عاده
فارعوى باطلى وراجعنى الحلم وأحدثت عفة وزهاده
لو ترانى ذكرت بى الحسن البصرى فى حال نسكه أو قتاده
من خشوع أزينه بخضوع واصفرار مثل اصفرار الجراده
التسابيح فى ذراعى والمصحف فى لبتى مكان القلاده
فاذا شئت أن ترى طُرفة تعجب منها مليحة مستفاده
فادع بى لاعدمت تقويم مثلى فتأمل بعينك السجاده
تر سيما من الصلاة بوجهى توقن النفس أنها من عباده
لو رآها بعض المرائين يوما لاشتراها يعدها للشهاده
ولقد طالما شقيت ولكن أدركتنى على يديك السعادة

ويقول فى وصف الكأس وما عليها من تصاوير :

تدور علينا الراح فى عسجدية حبتها بألوان التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفى جنباتها مها تَدَّريها بالقسى الفوارس
فللخمر مازرت عليه جيوبها وللماء ما دارت عليه القلانس =

أبو العتاهية

وولد اسماعيل بن القاسم أبو العتاهية فى آخر العصر الأموى ، ونشأ نشأة عباسية ، فى أسرة من الموالى فقيرة بالكوفة ، كان سيء السيرة فى طفولته ثم عمل مع أبيه فى صنع الجرار و بيعها ، ولكنه أتقن العربية وأحب الشعر فتكلفه ، ولم يلبث أن برع فيه ، وأصبح الشعر له طبعا كالنثر ، وقد اضطرب أبو العتاهية بين مذاهب المتكلمين وأصحاب المقالات كما اضطرب فى حياته بين الهزل والجد واتصل بالخلفاء من بنى العباس فقربوه وأحبوه إلى أن مات سنة ٢١١ هـ .

شعره

وقد عرض أبو العتاهية لفنون الشعر التى كانت مألوفة فى عصره فمدح وأحسن المدح ، وهجا ولكنه لم يثبت للهجائين ، وتغزل عن تكلف ، وأكثر من الزهد عن تكلف أيضا ، ولكنه نشر هذا الفن وأذاعه شعرا ، ولعله انما كان يقصد إلى اذاعة الحكم الفارسية كما قلنا آنفا ، وحظ أبى العتاهية قليل من متانة الشعر ورصانته ، وسهولة شعره تدنيه من السخف فى كثير من الأحيان ، ولكن معانيه الجيدة لا تكاد تحصى [1] .

وقال

= يا عاقد القلب منى هلا تذكرت حلا
تركت قلبى قليلا من القليل أقلا
يكاد لا يتجزا أقل فى اللفظ من لا

وقال يتهكم بالقديم :

لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هند واشرب على الورد من حمراء كالورد

(١) أمثلة من شعره :

اذا المرء لم يعتق من المال نفسه تملكه المال الذى هو مالكه
ألا إنما مالى الذى أنا منفق وليس لى المال الذى أنا تاركه =

مُسْلِم بن الوَليد

وكان مسلم بن الوليد "ويلقب بصريع الغوانى" مولى من موالى الأنصار ، نشأ نشأة عباسية أيضا ، واتصل بقواد الدولة وعمالها ، فمدحهم وظفر منهم بالجوائز الضخمة ، ومدح الخلفاء ورفعه شعره حتى عمل فى بعض المناصب ، ومات فى أوائل القرن الثالث بجرجان سنة ٢٠٨ .

وكان مختاف المذهب فى الشعر ، يسهل حتى لا تحس وأنت تقرؤه انك تقرأ الشعر لولا الوزن والقافية ، ويحزُن حتى يخيل إليك وأنت تقرؤه انك تقرأ للفحول

وقال

= أذن حىّ تسمعى اسمعى ثم عى وعى
أنا رهن بمضجعى فاحذرى مثل مصرعى
عشت تسعين حجة فى ديار التزعزع
ليس زاد سوى التقى فخذى منه أودعى

وقال

شدّة الحرص ما علمت وضاعه وعناء وفاقة وضراعه
إنما الراحة المريحة فى اليأ س من الناس والغنى فى القناعه
نحن فى دار مرتع غبه المو ت ودار صرامة خداعه
عزم الليل والنهار على أن لا يملا تفريق كل جماعه

ومن أرجوزته التى قالوا ان فيها أربعة آلاف مثل :

إن القليل بالقليل يكثر إن الصفاء بالقذى ليكدر
هى المقادير فلمنى أو فذر إن كنت أخطأت فما أخطا القدر
ما انتفع المرء بمثل عقله وخير ذخر المرء حسن فعله
إن الفساد ضده الصلاح ورب جد جره المزاح

من شعراء الجاهلية والاسلام ، وكان متأثرا بشارًا يسترسل مع طبعه أحيانا ويجوِّد فنه أحيانا أخرى ، والرواة يعدونه بعد بشار أكثر الناس عناية بالبديع (١)

ثم تقدم القرن الثالث قليلا واذا الطبقة الثالثة من هؤلاء الشعراء قد ظهرت وعلى رأسها حبيب بن أوس أبو تمام الطائى الذى ولد بجاسِم وهى قرية من قرى دمشق ، ورحل إلى مصر طفلا فنشأ فيها ، ثم عاد الى الشام والعراق ، واذا هو شاعر فحل ، ولكنه يذهب فى الشعر مذهبا جديدا يدقق فى المعانى أشد التدقيق ويتكلف تجويدها أشد التكلف، ويهمل اللفظ أحيانا حتى يفتر،ويعنى به أحيانا حتى تفسده العناية ، ويتكلف البديع الى غير حد،ويكاد يقطع الصلة بين الشعر والطبع،ويجعله صناعة كثيرة من الصناعات التى لا ترسل النفوس فيها على سجيتها، وهو شديد التأثر بالناحية اليونانية من الثقافة الاسلامية ، قد درس الفلسفة ،

---

(١) أمثلة من شعره :

يقول فى الوداع :

وإنى واسماعيل يوم وداعه ... لكالغمد يوم الروع زايله النصل
فان أغش قوما بعدهم أو أزرهم ... فكالوحش يدنيها من الأنس المحل

وقال يمدح يزيد بن مزيد :

موف على مهج فى يوم ذى رهج ... كانه أجل يسعى إلى أمل
ينال بالرفق ما يعيا الرجال به ... كالموت مستعجلا يأتى على مهل
لا يرحل الناس الا نحو حجرته ... كالبيت يضحى اليه ملتقى السبل
يقرى المنية أرواح الكماة كما ... يقرى الضيوف شحوم الكوم والبزل
يكسو السيوف رءوس الناكثين به ... ويجعل الهام تيجان القنا الذبل
قد عود الطير عادات وثقن بها ... فهن يتبعنه فى كل مرتحل

وقال

اذا التقينا منعنا النوم أعيننا ... ولا نلائم نوما حين نفترق
أقر بالذنب منى لست أعرفه ... كيما أقول كما قالت فنتفق
حبست دمعى على ذنب تجدده ... فكل يوم دموع العين تستبق

فأحسن درسها واستغلّ الحكمة اليونانية فى شعره فأكثر من ضرب المثل ، وأغنى اللغة العربية بمعان لم تكن مألوفة فيها (١)

البُحْــتُرِىُّ

ويتبعه أبو عبادة الوليد بن عبيد البحترى الطائى ، فيأخذ ويتخرج عليه ، ولكنه لا يسلك فى شعره نفس الطريقة التى سلكها أستاذه ، وانما يتوسط بعض التوسط فيميل الى الناحية العربية الخالصة ميلا ظاهرا ، واذا فى شعره شئ من البديع وكثير من التدقيق فى المعانى ، ولكن عنايته باللفظ الجزل على أسلوب الفحول من شعراء القرن الثانى ظاهرة جلية ، وهو وصّاف بارع فى الوصف ، ولكن ميله إلى وصف الحضارة المادية أشدّ من ميله إلى وصف المعانى ، وهو مصور ماهر لعواطف النفس ، قادر على أن يرثى فيبكيك ، وعلى أن يستعطف فيعطفك ، يبلغ ذلك من نفسك دون أن يتكلف فيه عناء ، وهو غزل خفيف الروح اذا تغزل، مادح موفق اذا مدح ، ويقول الرواة انه كان على هذا كله مغرورا ثقيل الظل بغيض الروح (٢)

---

(١) أمثلة من شعره :

تعوّد بسط الكف حتى لو آنه ... ثناها لقبض لم تجبه أنامله
ولو لم يكن فى كفه غير روحه ... لجاد بها فليتق الله سائله

وقال

لا تشكرى همى فانى زائدى ... حزما حضار النائبات وشيمها
والحادثات وان أصابك بؤسها ... فهو الذى أنباك كيف نعيمها

وقال

أولى البرية حقا أن تراعيه ... عند السرور الذى آساك فى الحزن
ان الكرام إذا ما أيسروا ذكروا ... من كان يألفهم فى الموطن الخشن

(٢) أمثلة من شعره :

أقوى العواقب يأس قبله أمل ... وأعضل الداء نكس بعد إبلال
والمرء طاعة أيام تنقله ... تنقل الظل من حال الى حال =

ابن الرومى

وبينما يقوى تأثير أبى تمام والبحترى فى الشام والجزيرة ويأخذ الناس فى الاعجاب بهما والاختلاف فيهما أيهما أشعر من صاحبه ، يظهر فى العراق شاعران مختلفان أشد الاختلاف ، ولكنهما يتمان هذه السلاسل الذهبية من الشعراء العباسيين ، أحدهما رجل من السوقة من موالى العباسيين ، ولكنه مولى يونانى لا فارسى هو أبو الحسن على بن العباس بن جُرَيْج المعروف بابن الرومى ، كان أطول الشعراء المسلمين إلى عصره نَفَسا ، وكان إلى ذلك قوى الطبع ، خِصبه ، غنى النفس حاد الشعور مضطرب المزاج إلى حد التطير ، وكان لفظه سهلا ولكن حظه من الجزالة والمتانة عظيم ، وكان من أقبح الشعراء هجاء ، ومن أبرعهم فى العتاب ، ومن الطبيعى أن نلحظ الفرق فى شعره بين أصله اليونانى والأصول الفارسية أو العربية لغيره من الشعراء ، فقصيدته قطعة مؤلفة تأليفا منطقيا فنيا لا عوج فيها ولا ضعف ، ولا ميل إلى الاستطراد ، وقد مات ابن الرومى مسموما سنة ٢٨٣ هجرية [١] .

= وقال يمدح الفتح بن خاقان :

بلونا ضرائب من قد نرى ... فما ان رأينا لفتح ضريبا
فكالسيف إن جئته صارخا ... وكالبحر إن جئته مستثيبا
فتى كرم الله أخلاقه ... وألبسه الحمد غضا قشيبا
وأعطاه من كل فضل يعد حظا ومن كل مجد نصيبا

(١) أمثلة من شعره :

قال فى الشباب :

رأيت سواد الرأس واللهو تحته ... كليل وحُلْم بات رائيه ينعم
فلما اضمحل الليل زال نعيمه ... فلم يبق إلا عهده المتنعم

وقال فى قوس الغمام :

وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفا ... على الجو دكنا والحواشى على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأخضر ... على أحمر فى أصفر إثر مبيض
كأذيال خود أقبلت فى غلائل ... مصبغة والبعض أصفر من بعض =

ابن المُعتَزّ

والثانى رجل عربى ولد فى قصر الخلافة ونشأ فى حجور الخلفاء ، وهو عبدالله ابن المعتز بن المتوكل الذى ارتقى إلى عرش الخلافة فلم يكد يستقر عليه حتى أنزل عنه مقتولا إلى القبر سنة ٢٩٦ وهو الشاعر الذى انتهت اليه الصناعة الشعرية المتعمدة المتكلفة ، فقد كان يحب الفن للفن ، وينظم الشعر ليلهو به كما يلهو بالطعام والشراب والصيد والزينة وغيرها من متاع الحياة .

كان فى العباسيين كالوليد فى الأمويين ، ولكن بينه وبين الوليد نحو قرنين نضج فيهما الفن العربى ، وترجمت فيهما الفلسفة ، وتأثر بهما العقل والشعور ، فكان ابن المعتز متكلفا بمقدار ما كان الوليد مطبوعا ، وأجاد ابن المعتز فى تكلفه كما أجاد الوليد فى طبعه .

وكل هذه الطبقة الثالثة ، إلا ابن الرومى ، تمتاز من الطبقتين الماضيتين بأنها جمعت بين الفن والعلم ، فكان أصحابها شعراء ومؤلفين ، فأما أبو تمام والبحترى فقد نظما الشعر وتخيرا من شعر غيرهما ، فجمع أبو تمام ديوان الحماسة والنقائض بين الأخطل وجرير ، وجمع البحترى حماسته ، وأما ابن المعتز فقد تصرف فى فنون من العلم العربى فاستقصى أنواعا من البديع ووضع كتبا مختلفة فى الأدب ، منها مايقصد إلى الأدب الخالص ، ومنها ما يقصد إلى الحياة العملية ولهذه الظاهرة الجديدة قيمتها ، فهى تدل على أن الشعر قد أخذ يفقد مكانته الأدبية قليلا وأخذ الشعراء يشكون فى امكان الاكتفاء به ويقصدون إلى

وقال

= لاح شيبى فرحت أمرح فيه مرح الطِّرف فى العذار المحلى
وتولى الشباب فازددت ركضا فى ميادين باطلى إذ تولى
إن من ساءه الزمان بشئ لأحق امرئ بأن يتسلى

أن يعنوا معه بشئ آخر هو الذى يمتاز به هذا العصر ، وهو العلم ، أى أن هـذا العصر العباسى ولاسيما منذ القرن الثالث قد أصبح عصر العقل لاعصر الخيال[1]»

الخطابة والنثر الفنى

فأما النثر فقد كان قليل الخطر فى العصر الأموى لا يكاد يحفل به أحد، الا الخطابة فقد عرفتَ ما كان لها من مكانة رفيعة وسلطان عظيم، فلما كان هذا العصر الجديد ضعف أمر الخطابة لما قدمناه من ضعف الحياة السياسية للأحزاب وفناء حرية الأفراد والجماعات فى سلطان الدولة وتسلط العنصر الأعجمى على العنصر العربى، واعتماد الدولة فى الاقناع على السيف دون اللسان، وأخذت الخطابة تصبح شيئا نادرا لا يلجأ اليه الا فى أيام الحفل، التى يقصد فيها إلى اظهار جلال الخلافة وهيبة الخلفاء .

وإذ كانت الحياة العقلية قد أصبحت مظهرا يمتاز به هـذا العصر عظم أمر العلم وكثرت مجالس العلماء للدرس والمناظرة، وأخذت هذه المجالس تقوم مقام الاجتماعات التى كانت تظهر فيها الخطابة . وأخذت المناظرات بين الفقهاء وزعماء الفرقِ تقوم مقام الخطابة، وأخذ أصحابها يحرِصون على مثل ما كان يحرص عليه الخطباء من فصاحة اللسان و بلاغة القول والتفوق فى القدرة على الاقناع .

وقد قلنا غير مرة ان ظهور النـثر الفنى ونموّه رهينان برقى العقل واتساع الحضارة وانتشار الكتابة والقراءة ، وقد اجتمعت هـذه الأشياء كلها للسلمين فى

(١) أمثلة من شعره :

أهـدت الى صحيفـة مكتوبة أرضت بها سخط الضمـير العاتب
ياليتنى ضمـنت طى جوابها حتى أقبـل كف ذاك الـكاتب

وقال

قلبى وثاب الى ذا وذا ليس يرى شـيئا فيأباه
يهـيم بالحسن كما ينبـغى ويرحم القبـح فيهـواه

وقال

ولقـد قضت نفسى مآربها وقضيت غيا مرة ورشد
ونهـار شيب الرأس يوقـظ من قد كان فى ليـل الشباب رقـد

العصر الذى نحن بصدده ، فظهر النثر الفنى أيام بنى أمية ، ثم نما وتنوع وكثرت فنونه أيام بنى العباس ، فمن نثر الدواوين الذى يصدر عن الخلفاء والوزراء مصرفا لأعمال الدولة ، فى عبارة ظريفة رائعة الى هذا النثر الذى أخذ يتناول بعض الأغراض التى كان يتناولها الشعر من رغبة ورهبة وعتاب ورثاء ومدح وتهنئة ، إلى غير ذلك من هذه الفنون التى تصور عواطف الأفراد وأهواء نفوسهم والأغراض التى يقصدون اليها فى حياتهم العامة والخاصة ، إلى نوع آخر من النثر لا يتناول شئون الدولة ولا أهواء الأفراد ، وانما يتناول النفس الانسانية من حيث هى مؤثرة فى الحياة ومتأثرة بها ، فهو يصفها ويبين أخلاقها ، وهو يرشدها إلى الخير ويعظها أن تتورّط فى الشر، ويوضح لها سبل الحياة العامة بما يضرب لها من مثل وما يفصل بين يديها من حكمة ، إلى نوع رابع من النثر يقصد به الى التفكهة والترفيه على النفس أو الى تحقيق اللذة الفنية الخالصة بتناول الموضوعات الأدبية من نقد للشعر والخطابة أو شرح لها وما يتصل بهذا كله مما تجده فى كتب الأدب .

وكما أن النثر قد نما وتنوع وكثرت فيه الفنون تنوعت مذاهب الكتّاب أيضا فى أساليبه وطرائقه فمنهم من كان يقصد الى الايجاز المعجز، ومنهم من كان يقصد الى الاطناب ، ومنهم من كان يسلك طريقا بين بين .

هذا ولم نعرض للنثر العادى الذى كان العلماء والمؤلفون يصطنعونه فى دروسهم وكتبهم العلمية الخالصة .

ولنعرض الآن لذكر طائفة من مشهورى الكتّاب .

ابن المُقَفَّع

هو أبو محمد عبد الله بن المقفع ، أحد فحول البلاغة ورؤساء الكتّاب الأوائل ، وكان أبوه من أبناء الفرس الناشئين فى ولاء فصحاء العرب فقد نشأ فى بلاد خوزستان ، وهى الأهواز ، وهى ولاية كانت تكثر فيها جمهرة الأعراب من الفاتحين والمهاجرة ، لخصب أرضها وقربها من البصرة ولا تزال العناصر العربية غالبة على أهلها حتى الآن ، فنشأ المقفع فى ولاء آل الأهتم ، وهم بيت فصاحة ولَسَن وخطابة

فى الجاهلية والإسلام ، فلا غرو ان نشأ المقفع وابنه مستعربين فصيحين . والمقفع واسمه دازويه نشأ مجوسيا عاملا للخراج زمن يوسف بن عمر والى العراق ، فظهرت عليه خيانة فى مال الدولة ، فضربه الأمير ضربا تقفّعت منه يده ، فسمى من حينئذ المقفع ، ومات على دينه ونشأ ابنه فى البصرة يتكسب بصناعة أبيه نخدم فى دواوين العراق آخر من بنى أمية ، وجمع بين ثقافتى العرب والعجم وقد قرأ آداب الفرس والهنود وكتب الحكمة التى كانت ترجمت زمن كسرى أنوشروان من اليونانية ، فجعله كل ذلك واحد زمانه ، ولما جاءت الدولة العباسية اتصل بوالي البصرة والاهواز سليمان بن على وعيسى بن على ، عمى أبى جعفر المنصور الخليفة العباسى ، وهو على دينه ، فكتب وترجم لهما وللخليفة المنصور بعض كتب الأدب وكتب الفلسفة المنقولة من اليونانية ، ثم أسلم على أيديهما .

واتفق أن خرج عبد الله بن على عم المنصور عليه ، فهزمته جيوش المنصور ففر الى أخويه سليمان وعيسى فطلبه المنصور منهما فأبيا الا ان يكتب له أمانا منه ، فكلفهما كتابته ، فأمرا ابن المقفع فتصعّب فى كتابة الأمان تصعبا أغضب المنصور فيقال انه أغرى به سفيان بن معاوية والى البصرة بعد عمه سليمان فقتله وأخفى أمره .

ويقال انه قتله لاتهامه بالزندقة والكيد للاسلام ، وكان ابن المقفع آية فى البلاغة ، ورصانة القول ، وشرف المعانى ، الى حسن بيان وسهولة لفظ ورشاقة أسلوب ، ولا توصف بلاغته بأحسن مما وصف هو البلاغة به ، وقد قيل له : ما البلاغة ؟ فقال "هى التى اذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها" .

ونصح لآخر فقال " اياك والتتبع لوحشيّ الكلام طمعا فى نيل البلاغة ، فان ذلك هو العى الأكبر" وكان ممن يضع السير والخرافات أو يترجمها ، ومنها كتاب كليلة ودمنة أقدم كتاب أدب خيالى فى اللسان العربى [1]

---

(١) أمثلة من رسائله :

(ا) أما بعد فان من قضى الحوائج لاخوانه ، واستوجب بذلك الشكر عليهم فلنفسه عمل لالهم ، والمعروف اذا وضع عند من لايشكره فهوزرع لابد لزارعه من حصاده أو لعقبه من بعده .

(ب) انك ان تلتمس رضا جميع الناس تلتمس مالا تدرك ، وكيف يتفق لك رأى المختلفين ؟ وما حاجتك الى رضا من رضاه الجور ، والى موافقة من موافقته الضلالة والجهالة ؟ فعليك بالتماس رضا الأخيار منهم وذوى العقل ، فانك متى تصب ذلك تضع عنك مؤونة ماسواه .

عمرو بن مَسْعَدَة

هو أبو الفضل عمرو بن مسعدة بن سعيد بن صُول ، أحد وزراء المأمون ، وأبلغ كتّاب الايجاز . وكان جده صُول وأخوه فَيْروز ملكى جُرْجان ، وهما من الترك الذين تمجّسوا وتشبهوا بالفرس ، أسلما فى زمن بنى أمية ثم دخل جده سعيد بن صول فى الدعوة العباسية ، وكان من أكبر دعاتها وأنصارها ، ثم صار بنوه كتابا فى دواوين الدولة ، ونشأ عمرو حفيده من أشهر كتاب الدولة وأبلغها وصار كاتب التوقيع بين يدى جعفر بن يحيي البرمكى قال عن نفسه كنت أوقع بين يدى جعفر بن يحيي فرفع اليه غلمانه يستزيدون فى رواتبهم ، فرمى بها إلى وقال أجب عنها . فكتبت (قليل دائم ، خير من كثير منقطع) فضرب بيده على ظهرى ، وقال أىّ وزير فى جِلدِك ! ثم كتب للفضل بن سهل وأخيه الحسن بن سهل ثم صار وزيرا للمأمون على ديوان الرسائل ، ووثِق به ووكّل اليه تفتيش الولايات ، وكان يستصحبه فى غزواته ، وربما ولاه قيادة بعض الجيوش . ومات بأذنة فى غزوة مع المأمون سنة ٢١٦ .

وكان عمرو بن مسعدة ممن يضرب به المثل فى الايجاز كما يضرب بجعفر بن يحيى ، وكأنه تعلم منه هذه الصناعة ولم يأت بعد من يقاربه فيها إلا ابن عمه ابراهيم بن العباس الصُولى [1] .

الجاحظ

هو أعجوبة الزمان ، وإحدى حجج اللسان العربى ، أبو عثمان : عمرو الجاحظ ابن بحر بن محبوب الكنانى ، وسمى الجاحظ لجحوظ عينيه ، ونسبته إلى كنانة بالولاء ، فقيل إن جده محبوبا كان أسود جمالا لأحد سادات بنى كنانة من أهل البصرة ، وإن الجاحظ نشأ يتكسب بيديه ، فربأ بنفسه عن هذه المهانة ، وأقبل

(١) ومن كلامه فى شفاعة : كتابى اليك كتاب واثق بمن كتب اليه ، مَعْنِيّ بمن كتب له ، ولن يضيع حامله بين الثقة والعناية .

على العلم والأدب واللغة يأخذها عن أئمة البصريين ، وأدرك طبقة سيبويه والأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد ، وأخذ عنهم اللغة والأدب ، وأخذ عن النَّظَّام مذهبه في علم الكلام ، وتفرد بآراء في التوحيد كونت له مذهبا خاصا به ، وتابعه طائفة من الفرق الاسلامية سُمُّوا بالجاحظية ، ولم يأت عصر المأمون حتى صار من حُذَّاق المؤلفين ، وبلغت كتبه المأمون فأُعْجِب بها وأثنى عليه في حضوره ، ثم ذاع صيته حتى ملأ الدنيا ، وأصبح أديب البصرة وبغداد وسُرَّ مَنْ رأى .

وتقرب في زمن المعتصم والواثق من وزيرهما الجبار محمد بن عبد الملك الزيات ، فحظِيَ عنده وكفاه مؤونة قصد غيره ، وكان يريد نظمه في سلك كُتَّاب الدواوين فكتب بها في زمنه مدة فلم ترقه ، فعاد إلى التصنيف والتدوين حتى مات سنة ٢٥٥ ببغداد بعد أن بقي مدة مفلوجا . قيل وقعت عليه قماطر الكتب وهو ضعيف فقضت عليه . والجاحظ أول من أكثر التصنيف في الأدب وأول من أسهب القول في اللطائف والفكاهات ، وأول من وضع كتب المحاضرات الجامعة في الأدب والفنون الكثيرة ، وأول عالم عظيم جمع بين طرفي الجد والهزل ، فكان إماما في الدين وسامرا من السُّمَّار ، وكانت له مشاركة في أكثر العلوم ، فهو راوية متكلم فيلسوف كاتب مصنف مترسل مؤرخ عالم بالحيوان والنبات والمَوَات ، وصَّاف لأحوال الناس ووجوه معايشهم واضطرابهم وأخلاقهم وحيلهم ، وهو على الجملة أحد أفذاذ العالم وإحدى حجج اللسان العربي ، وكان على دمامة خَلْقه خفيفا ظريفا محببا إلى الظرفاء والأدباء .

وكان سهل العبارة طويل الاطناب إذا شاء ، كثير إيراد الجمل المترادفة ، دقيق الاستقصاء في وصف ما يريد وصفه أو التحدث عنه ، وكان كثير الاستطراد في كتبه المطولة .

وأظرف ما كان يعجب الناس منه مزج الهزل بالجد ، وقد خلّف للعلم والأدب العربى أكثر من خمسين ومائتى كتاب ، طبع منها بعض الكتب وأشهرها البيان والتبيين ، والحيوان ، وكتاب البخلاء ، ومجموع رسائله [١]

الثقافة العلمية فى هذا العصر

مراكزها : كان أهم مراكز الثقافة فى هذا العصر البصرة والكوفة وبغداد فى العراق ، والمدينة فى الحجاز ، والفُسْطاط فى مصر ، ونحن نذكر لك كلمة عن كل منها :

المدينة

المدينة : كانت المدينــة من أعظم مراكز الثقافة العربية الاسلاميــة منذ الهجرة ، فقد هاجر اليها النبي صلى الله عليه وسلم وعلّم بها أكثر تعاليم الاســلام ، وكانت مُقام كثير من الصحابة الذين تلقوا عن النبى ورووا أحاديثه ، وكان بهـا كثير من الموالى الذين أُتِىَ بهم أسرى من الممالك المفتوحة وأسلموا وتلقوا العلم من الصحابة ، وقد اشتهرت المدينة بالعلوم الدينية من تفسير للقرآن ومدارسة للحديث واستنباط الأحكام منهما ، واشتهر من علمائها زيد بن ثابت وعبد الله بن عمر بن الخطاب من الصحابة ، ثم سعـيد بن المسيِّب وعُرْوة بن الزبير بن العوام من التابعين ، ومن بعدهم كان الامام مالك بن أَنَس صاحب المذهب المشهور .

---

(١) أمثلة من كلامه :

كتب إلى محمد بن عبد الملك الزيات وكان قد تنكر له :

أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سرف الهوى ، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الانصاف ، ورجح فى قلبك إيثار الأناة ، فقد خفت ، أيدك الله ، أن أكون عندك من المنسوبين إلى نزق السفهاء ، ومجانبة الحكماء .

وكتب إلى احمد بن دؤاد يستعطفه .

ليس عندى ، أعزك الله ، سبب ولا أقدر على شفيع إلا ماطبعك الله عليه من الكرم والرحمة والتأميل الذى لا يكون إلا من نتاج حسن الظن وإثبات الفضل بحال المأمول ، وأرجو أن أكون من العتقاء الشاكرين ، فتكون خير معتب ، وأكون أفضل شاكر الخ .

ولم تقتصر المدينة على الشهرة فى المسائل الدينيـة بل نبغ فيها كثير من رجال التاريخ كمحمد بن اسحق والواقدى ، وهما يعدان من أشهر المصادر الأولى للسيَر والمغازى .

البَصْرة والكوفة

البصرة والكوفة : وهما كما قدمنا من أشهر مدن العراق ، والعراق قطر شُهِر من قديم بالحضارة ، تداولت عليه أمم كثيرة ممدنة وتركت فيـه آثارها العلميـة والفنية ، وهو إلى ذلك قطر غنىٌّ خصب كثرت مياهه وخيراته ، وقد أسست هاتان المدينتان فى عهد عمر بن الخطاب ونزل بهما كثير من الصحابة ، واختلط فيها العرب بالموالى بالتزاوج والسكنى ، وأصبحتا بعد قليل من أكبر مراكز الحياة العلمية ، فكان فى الكوفة عبد الله بن مسعود من الصحابة ، وشُرَيْح والشعْبى وسعيد بن جُبَيْر من التابعين ، ثم أبو حنيفة النعمان أمام المذهب المنسوب اليه ، واشـتهر من علمـاء البصرة أبو موسى الاشعرى وأَنَس بن مالك من الصحابة ، ثم الحسن البصرى وابن سِيرِين من التابعين ، واشتهرت هاتان المدينتان أيضا بالنبوغ فى علوم النحو واللغة ، وتفوقت البصرة فى ذلك ، فكان من علمائها أبو عمرو بن العَلَاء ، والخليل بن احمد والأَصْمَعىّ ، واشتهر من الكوفيين الكِسائىّ ، وكان بين المدينتين تنافس فى اللغة والأدب والصرف وعلم الكلام ، ولكل علماء يتعصبون لمذهبهـم وينصرونه بحججهم ، وكان الكوفيون ، على الجملة ، أكثر استعمالا للقياس ، والبصريون أكثر إيثارا للسماع .

بغداد

بغداد : وهى مدينة بناها أبو جعفر المنصور سـنة ١٤٥ هـ ، وجعلهـا مقر الخلافة الاسلامية ، فأمَّها العلماء والأدباء من كل صقع على اختلاف مللهم ونحلهم وثقافاتهم ولغاتهم ، وأصبحت ، بعد قليل ، أهم مركز للحركة الفكرية فى المملكة الاسلاميـة ، وتفوقت فى كل ناحيـة من نواحى العـلم الدينيـة واللغـوية

والأدبية والفلسفية ، وكان أكبر الفضل فى ذلك لأبى جعفر المنصور ثم هارون الرشيد ، حتى إذا جاء المأمون خطا فى ذلك خُطُوات واسعة ، فأنشأ بيت الحكمة وجعل على رأسه سهل بن هارون ويحيى بن ماسويه ، وكان لهذا البيت أثر كبير فى نشر العلوم ، إذ كان مجتمع النساخ والكتّاب والعلماء .

الفُسْطاط

الفسطاط : كانت مدينة الفسطاط فى مصر فى مقدمة المدن الاسلامية التى أزهرت فيها علوم العرب الدينية واللغوية ، وأول من اشتهر بها من العلماء عبد الله ابن عمرو بن العاص أحد كبار الصحابة ، ثم عبد الله بن لَهِيعة وهو من أكبر المصادر الذين يُرْوَى عنهم كثير من الأحداث التاريخية فى فتح العرب لمصر ، ثم الليث بن سعد أحد الأئمة الذين يُقْرَنون بمالك وأبى حنيفة لولا أن تلاميذه أضاعوا مذهبه ، ثم نزل بها الامام الشافعى ودرس فيها ووضع مذهبه الجديد .

التدوين والتأليف

التدوين

لم يكن تدوين الكتب وتأليفها أمرا فاشيا فى العهد الأموى كما قدمنا ، وأكثر ماروى عن التأليف فى هذا العصر كان من قبيل الروايات لا من قبيل ما نعهده الآن فى التأليف ، فكان الرجل اذا سمع حديثا كتبه ، وكذلك اذا سمع قطعة من الشعر أو خبرا من الأخبار ، وقد يجمعون هذه الأحاديث بعضها الى بعض ويسمون ذلك كتابا ، وكذلك يفعلون بما سمعوا من الأخبار ، وكانوا يبدءون رواية الخبر أو الحديث بذكر من رُوِىَ عنهم الخبر ، حتى يتصل سند الرواية بنا قل الخبر ، فأما التأليف بالمعنى الذى نفهمه من أن تكون للكتاب وحدة يريدها المؤلف وتوضع أبواب وفصول لموضوعاته ونحو ذلك فكان نادرا فى الدولة الأموية ، انما كثر هذا النوع فى العهد العباسى الأول فوضعت الكتب فى المواضيع الدينية والأدبية والتاريخية ، وترجمت من اللغات الأجنبية ولا سيما اليونانية ، ولنتكلم كلمة عن الأنواع المشهورة منها .

(ا) التدوين فى الأدب

بدأ التأليف فى الأدب فى هذا العصر ، على ما يظهر ، بتأليف رسائل صغيرة فى الأخلاق كالذى نراه لابن المقفع فى كتابه الدرة اليتيمة والأدب الصغير ، وكذلك فى اللغة ، كما فعل الأصمعى فى كتاب الخيل وكتاب الابل ، وكتاب الشاء وكتاب فَعَلَ وأَفْعَلَ وكتاب الأنواء .

ثم أتت الطبقة التى تلى هؤلاء فألفت الكتب المطولة الجامعة التى تشمل مواضيع مختلفة ، وكان على رأس المؤلفين فى الأدب الجاحظ ثم المُبَرِّد وابن قُتَيبَة.

الجاحظ

فأما الجاحظ فقد قرأت ترجمته قبلُ ، ولكنا نتعرض الآن لكلمة فى تأليفه :

كان الجاحظ من أكثر الناس اطلاعا ، وأوسعهم عِلْما ، حتى لنستطيع أن نعرف ماوصل اليه العلم فى ذلك العصر فى كل ناحية من نواحيه من كتب الجاحظ ، وأشهر كتبه : كتاب البيان والتبيين ، وكتاب الحيوان . فأما كتابه الأول فيعد من أصول كتب الأدب ، لم يسبق ، فيما نعلم ، الى مثله ، وجميع من ألف بعده من الأدباء كالمبرد وابن قتيبة يعتمد عليه و يقتبس منه ، وهذا الكتاب مزيج من الحكمة واللغة والشعر والخطابة ، يمزج فيه الهزل بالجد ، و ينقل عن الفرس والروم والهند ، و يذكر عادات الناس وأحوالهم وطرق معايشهم ، ولكن الكتاب مملوء بالعيوب اذا نُظر اليه من الناحية الفنية فى التأليف ، فهو كثير الاستطراد ، تدخل فيه من باب فَيَسْلمك الى باب آخر لأدنى مناسبة ، لم يبوّب ولم يفصّل فى دقة ، ولم يجمع فيه ما يتعلق بالموضوع الواحد فى مكان واحد ، شأن كل من يعالج موضوعا فى أول أمره ، وهذه العيوب أثرت فى المؤلفين بعده كالمبرد وابن قتيبة فكان لهم منها حظ غير قليل .

وأما كتابه الحيوان ، فقد تكلم فيه كما يدل اسمه ، فى الحيوان وأنواعه ، ومزج فيه الأدب بعلم الحيوان ، وجمع فيه ما عرفه العرب عن الحيوان وما عرفه اليونان والفرس ، وهو من أغنى الكتب وأوسعها مادة لمن يريد دراسة معارف الناس فى ذلك العصر ، ولكن فيه من العيوب ما أشرنا اليه من قبل .

المُبَرِّد

أما المبرد فهو أبو العباس محمد بن يزيد عربى الأصل من بنى ثمالة ولد بالبصرة سنة ٢١٠هـ ثم نزل بغداد، وكان من أئمة العربية فى عصره ، حسن المحاضرة فصيح اللسان ، واسع العلم بالأخبار والنوادر ، ومات سنة ٢٨٦ ببغداد ، وأشهر كتبه كتاب الكامل ، وهو كتاب فى الأدب يذكر الحكمة المختارة أو الخطبة أو القطعة الشعرية ويشرحها ، وقد تعرض فى أثناء الشرح كلمةٌ فيتعرض لها ، ويختلف عن "البيان والتبيين" بقلة الاستطراد ، وأنه لا يتعرض لعادات الناس وشئونهم الاجتماعية إلا قليلا ، قد قسم الى أبواب ، ولكن يصعب أن تتبين فى كثير من الأحيان الفرق بين باب و باب إلا من ناحية أن هذه طائفة من المختارات وهذه طائفة أخرى ، كذلك يمتاز عن البيان والتبيين بأن الكامل كثير التعرض للنواحى النحوية والصرفية فيما يختار ، وأول من طبعه الأستاذ "ريت" وقد صرف فيه سنين عدة فى ضبطه وتصحيحه ثم طبع بعدُ فى مصر على نهج الطبعة الأولى .

ابن قُتَيْبَة

أما ابن قتيبة فهو أبو عبد الله محمد بن مسلم المروزى الدِّينَوَرِىّ ولد سنة ٢١٣ بالكوفة ، وتولى القضاء بدينور ، ثم أخذ يعلم فى بغداد وتوفى بها سنة ٢٦٧ وكان جم المعارف واسع الاطلاع ، ألف فى الحديث وألف فى الأدب ، وألف فى اللغة ، وألف فى التاريخ ، وأشهر كتبه "أدب الكاتب" أبان فيه ما يجب على الكاتب أن يعرفه ، وكتاب "عيون الأخبار" ذكر فيه كثيرا من المختارات الأدبية واقتبس منه كثيرا ابن عبد ربه فى كتابه العقد الفريد ، وفيه خطا ابن قتيبة خُطْوَة نحو الترتيب والتبويب ، وجمع ما يتعلق بموضوع واحد فى موضع واحد ، وقد طبع بعضه فى أوربا وطبع جزءان منه فى دار الكتب المصرية ، وله كتاب طبقات الشعراء ، أو الشعر والشعراء ترجم فيه لمشهورى الشعراء وذكر طرفا من أشعارهم .

(ب) علوم اللغة

النحو

كان من أثر امتزاج العرب بالأعاجم ومخالطتهم بالسكنى والتزاوج أن فسدت ملكة اللسان العربى وكثر اللحن ، فعمد العلماء الى وضع قواعد النحو لضبط أواخر الكلمات . وقد ذكروا أن أول من وضع بعض قواعده أبو الأسود الدُّؤَلى ، ثم تبعه العلماء يزيدون قواعده و يضبطونها ، وكان أسبق الناس اشتغالا به البصريون ثم أخذه منهم الكوفيون وخالفوهم فى بعض مسائله ، وكان البصريون أصح رواية وأكثر تحريا ، ولكن العباسيين نصروا الكوفيين سياسة ، وندب الرشيد رئيس الكوفيين وهو الكسائى لتعليم ولديه الأمين والمأمون ، واشتد الخلاف بين المذهبين مذهب البصريين والكوفيين وألفت فى هذا الخلاف الكتب ، وقد نشأ بعد مذهب منتخب من المذهبين هو مذهب البغداديين .

اللغـــة

كذلك أصبح الناس فى حاجة الى كتب تبين معانى المفردات اللغوية بعد أن هجر الناس جزيرة العرب وأقاموا فى المدن بعيدا عن البادية ، فكان العلماء يرحلون إلى البادية يسمعون من أهلها و يقيِّدون ما يسمعون ، و يرحل أهل البادية إلى المدن ليأخذ عنهم علماؤها ، وأخذ العلماء يقيدون الكلمات التى تتصل بشىء واحد فى رسائل فيذكرون ما يتعلق بالكروم وما يتعلق بالأشجار ، فلما جاء الخليل ابن أحمد ابتكر طريقة المعجم فأحصى المفردات الثنائية والثلاثية وهكذا ورتبها على حسب مخارج الحروف ، فجعل ما يبدأ بالحروف الحلقية أولا ، وبدأ بالكلمات المبدوءة بالعين ، ومن أجل هذا سمى كتابه العين . وكثير من العلماء يشك فى نسبة هذا الكتاب اليه و يقول إنه من وضع تلاميذه ، وقد عثر على نسخة من كتاب العين فى العراق ، ثم تتابع بعد ذلك وضع المعاجم على طرق مختلفة .

الخليل بن أحمد

والخليل بن أحمد عربى الأصل أزْدى ، من علماء البصرة ، وكان من أمهر العلماء فى استعمال القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله ، زهد فى الدنيا وقنع بالقليل ورأى لذة العلم فوق كل شيء ، وكان ذا عقل مبتكر ، على قلة العقول المبتكرة ، فهو أول من وضع فكرة حصر الكلمات العربيـة فى معجم ، وأول من حصر أوزان الشعر فى بحور ، ومن تلاميذه سيبويه والأصمعى والنضر بن شُمَيْل ، وكثير من آرائه فى النحو أخذها عنه سيبويه وأدمجها فى كتابه ، ومات سنة ١٦٠ ﻫ فى رواية وسنة ١٧٠ فى رواية أخرى .

سيبويه

وسيبويه هو عمر بن عثمان من أصل فارسى ، وهو إمام علماء البصرة ، كان تلميذ الخليل وأخذ عنه كثيرا من علمه ووضعه فى كتابه المعروف — كما قدمنا — ولغته فى هـذا الكتاب لغة راقية ، ولكنه لم يكن فصيحا فى قوله فصاحته فى كتابته ، ويذكرون أنه وفد الى بغداد وقصـد البرامكة وأنهم جمعوا بينـه وبين الكسائى فى مناظرة خُذِل فيها سيبويه فرجع ومضى الى بعض مدن فارس فمات هناك وهو كهل سنة ١٧٧

الـكسائى

أما الكسائى على بن حمزة فهو امام الكوفيين ، وكان من أصل فارسى كذلك ، وقد خرج الى البادية وسمع من فصحائها ، وكتب ما سمع وأخذ عن الخليل بن أحمد واستقدمه المهدى ثم اختاره الرشيد لتعليم الأمين والمأمون كما ذكرنا ، وألف كتبا كثيرة فى النحو واللغة ، وهو أحد القراء السبعة ومات سنة ١٨٩ ﻫ .

(ج) التاريخ والحكايات

ابتدأ التاريخ ، على ما يظهر ، بالحديث ، فقد جمعت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومغازيه والحوادث التى وقعت فى أيامه وأيام صحابته فى شكل ما يروى من الحديث ، ومن أشهر المؤلفين فى ذلك ابن اسحق والواقدى وابن سعد .

ثم توسعوا فكتبوا فى تاريخ فتوح البلدان كما فعل " البَلَاذُرِى " وكتبوا فى الأنساب كما فعل البلاذرى أيضا فى كتابه "أنساب الأشراف" ثم لما وقفوا على تواريخ الأمم كتبوا فى التاريخ العام ، وأشهر المؤلفين فى هذا النوع اليعقوبى ثم محمد بن جرير الطَّبَرى المتوفى سنة ٣١٠ فقد كتب تاريخه الكبير، ورتبه على حسب السنين ، فيذكر فى كل سنة ما وقع فيها من فتن وفتوح وأحداث ، ثم ينتقل الى السنة التى تليها وهكذا ، وقد سلك هذا المسلك فى التأليف ابن الأثير من بعده ، واشتهر فى هذا العصر من المؤرخين أيضا المسعودى المتوفى سنة ٣٨٥ وأشهر كتبه كتاب "مُرُوج الذهب" ولم يرتبه على حسب السنين كما فعل الطبرى وانما يذكر الحوادث تحت عنوان الخليفة التى وقعت الحوادث فى أيامه .

والأمة العربية لم تُعْنَ بالقصص عنايتها بالتاريخ ، ولم يكن لها الخيال الواسع فى وضع القصص ، ولذلك ماروى عن العرب منها قليل بالنسبة لما روى عن الأمم الأخرى ، فلما جاءت الدولة العباسية واصطبغت الدولة بالصبغة الفارسية كثر القصص فنقل ابن المقفع كليلة ودمنة أو ألّفه وقد نظمه أَبَان اللاحق وابن الهَبَّارية ، ووضع سهل بن هرون الفارسى كتابا على نمطه سماه " ثعلة وعفرة " لم يصل الينا ولكن نقلت منه فِقَر فى كتاب زهر الآداب للحصرى ، وترجم كتاب "هزار افسانه" ومعناه ألف خرافة وهو أصل للكتاب المشهور "ألف ليلة وليلة".

(د) العلوم الدينية

كان حظ العلوم الدينية فى هذا العصر عظيما ، فأقبل الناس على القرآن يتدارسونه و يُعْنَون بتفسيره ، وأشهر المفسرين فى ذلك العصر ابن جرير الطبرى ، فقد ألف كتابا فى التفسير فى ثلاثين جزءا ، وطريقته فيه أن يذكر الآية الكريمة ، و يتبعها بما رُوى عن الصحابة والتابعين من تفسيرها ، ويذكر الأقوال المختلفة فيها ثم يرجح أحد الآراء ، ولا يزال كتابه من أكبر المراجع فى التفسير الى اليوم ، وعليه اعتمد من أتى بعده من المفسرين .

الحديث

كذلك الشأن فى الحديث ، فقد رَوَّعَ العلماء فى ذلك العصر ما رأوا من جرأة بعض الناس على وضع الحديث ونسبته الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبلوا على الأحاديث يمتحنون صحتها ، و ينتقدون رجالها ، ويجمعون ما صح منها ، وكان من أسبق الناس تأليفا فى الحديث الامام مالك فقد جمع كتابه "الموطأ" ورتبه على حسب أبواب الفقه ، ثم جاء محمد بن اسماعيل البخارى فجدّ فى جمع الأحاديث وفحصها ونقدها ، وطوّف فى الآفاق يروى عن علمائها ، ويسمع من محدثيها ، حتى جمع كتابه المعروف بصحيح البخارى فى ست عشرة سنة . وصحيحه يشتمل على تسعة آلاف حديث منها ثلاثة آلاف مكررة . وقد توفى البخارى سنة ٢٥٦ هـ .

وكان يعاصره مسلم بن الحجَّاج القُشَيْرِى النَّيْسَابُورِى ، فرحل الى الحجاز والعراق والشام ومصر وسمع من علمائها ، و جمع كتابه المعروف بصحيح مسلم وقد قال انه اختار كتابه من ثلثمائة ألف حديث .

و يعد هذان الكتابان (صحيحا البخارى ومسلم) أصح ما ألف فى الحديث الى اليوم .

الفقـــه

يراد بالفقه استخراج الأحكام من القرآن والحديث . وقد كانت الحوادث تكثر وتختلف باتساع العمران وكثرة الفتوح ، فكانت تعرض مسائل لم تكن معروفة من قبل ، يحتاج فيها الناس لمعرفة أحكامها ، فكان المجتهدون يستخرجون هذه الأحكام مما ورد فى كتاب الله أو سنة رسوله أو بالقياس عليهما ، وقد اختلف المجتهدون وانقسموا قسمين عظيمين : أهل الرأى والقياس ، وأهل الحديث ، فالأولون كانوا يشترطون شروطا دقيقة للعمل بالحديث ، ويتوسعون فى استعمال القياس عند مالا يصح عندهم نص من كتاب ولا سنة ، وقد غلبت هذه الطريقة فى العراق لقلة الحديث هناك مع كثرة الأحداث ، وامام هذه الطريقة أبو حنيفة النعمان ، والآخرون كان الحديث عندهم وافرا فكانوا يقدمون الحديث ولو لم تتوافر فيه شروط خاصة على القياس والرأى . وغلب هذا المذهب على أهل الحجاز ، وإمام هذه الطريقة مالك بن أَنَس ، وقد كثر المجتهدون فى هذا العصر والذى قبله كالليث ابن سعد فى مصر ، والأوزاعى فى الشام ، ولكن ذهبت هذه المذاهب ولم يشتهر منها الا المذاهب الأربعة : مذهب أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل .

الامام أبو حنيفة

فأما أبو حنيفة فهو النعمان بن ثابت فارسى الأصل ولد سنة ٨٠ هـ ونشأ بالكوفة وأخذ العلم عن علمائها ، وكان إمام أهل الرأى كما ذكرنا ، وقد أريد على القضاء فأبى زهدا وتورعا ، ولم يصل الينا شىء من كتبه فى الفقه ، وانما وصلت الينا كتب تلاميذه ولا سيما أبى يوسف ومحمد ، ويلقبان عادة بالصاحبين ، أى صاحبى أبى حنيفة ، وقد مات أبو حنيفة سنة ١٥٠ هـ وقد انتشر مذهبه فى العراق .

مالك

وأما مالك بن أَنَس فقد ولد سنة ٩٦هـ من أصل عربى بالمدينة وبها تعلم ، ويمتاز مذهبه عن مذهب أبى حنيفة بكثرة اعتماده على الحديث كما أسلفنا ، وتوفى سنة ١٧٩ هـ وأشهر كتبه التى وصلت الينا كتاب المُوَطَّأ ، وقد انتشر مذهبه فى المغرب والأندلس والحجاز .

الشافعى

والشافعى هو محمد بن ادريس، عربى، قرشى، ولد بِغَزَّة بالشام ثم رحل الى مالك وأخذ عنه العلم ، ثم وفد الى بغداد واتى علماءها ، ثم جاء مصر سنة ١٩٩ هـ فأقام بها وسكن الفسطاط وأملى مذهبه وبها توفى ودفن فى مدفنه المعروف سنة ٢٠٤

أحمد بن حنبل

وأحمد بن حنبل عربى الأصل كذلك من شَيْبَان ، ولد ببغداد ونشأ بها وطلب الحديث وأكثر من روايته ، وهو أكثر الأئمة استنادا إلى الحديث ، وقد عُذِّب عذابا شديدا فى فتنة خلق القرآن ، ومات سنة ٢٤١ ببغداد .

(هـ) الترجمـــــــة

مصادرها

لمـا اتسعت الدولة الاسلامية واختلط العرب بغيرهم ورأوا آثار الأمم الأخرى من علم وحضارة تطلعت نفوس الخلفاء الى أن يكون للأمة العربية نصيب وفير من علوم الأمم الأخرى وفنونها ، وكان قد التجأ الى بغداد فى هذا العصر العلمـاء الأعاجم فقربهم الخلفاء وأغدقوا عليهم الأرزاق واستعانوا بهم فى ترجمة الكتب من اليونانية والفارسية والهندية وغيرها .

وأول من عَمِل على نشر الثقافة الأجنبية فى الدولة العباسية الخليفة أبو جعفر المنصور ، فقد كان عالمـا فقيها يميـل الى النظر فى النجوم وما اليها . فدعا اليـه جماعة من علماء الطب والرياضيات والفلسفة ، فترجموا له كتبا فيها . ويعد عصره أساسا لهذه النهضة العلمية التى أتم بناءها من جاء بعده من الخلفاء ولاسيما المأمون، فقد أرسل طائفة من العلماء الى بلاد الروم فجاءوا بكثير من غرائب المصنفات فى الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب ، وغَصّ بيت الحكمة فى بغداد بالعلماء فى كل علم وفن ، فنفقت فى أيامه سوق العلم والأدب ، وكثر الباحثون ، واشتهر فى عصره كثير من المؤلفـين والمترجمين ، ووضعت المصطلحات ، وعرب كثير من الألفاظ الأعجمية حتى أصبحت العربيـة تضارع غـيرها من اللغات فى العلوم العقلية .

وقد نقل الى العربية فى هـذا العصر مئات من الكتب فى الفلسفة والمنطق والطب والنجوم والرياضيات والسياسة والقصص والأسمار وغيرها ، ومن أشهر المترجمين ابن البِطْريق والحجاج بن مطر وحُنَين بن اسحق وجرجس بن بختيشوع وثابت بن قرة .

وقد أقبل المسلمون على الكتب والترجمة يتفهمونها ويشرحونها ولم يمض على ذلك الا قليل حتى ظهر فى المسلمين أنفسهم فلاسفة أولهم وأشهرهم يعقوب ابن اسحاق الكِندى ، وهكذا أعقب دور الترجمة دور التأليف .

العصر العباسى الثانى

نشأة الأوطان السياسية وأثرها فى ظهور آداب قومية

لما ضعُف الخلفاء العباسيون عن تولى شئون الخلافة بأنفسهم لاغتصاب مماليكهم الترك السلطة من أيديهم اختل نظام الملك ، وكثرت الفتن والثورات ، واستقل كل حاكم بالبلاد التى يحكمها ، وكان بعض هؤلاء الحكام من أبناء الأكاسرة[1] مثل الدولة السامانية فى خراسان والبويهية فى فارس . واستقل بعض أمراء العرب بالجزيرة والشام كبنى حمدان بالموصل وحلب . ووجد العلويون أن الفرصة سانحة لتحقيق أمنيتهم وهى انتزاع الخلافة الاسلامية من أيدى العباسيين فأسسوا دولاً عدة أهمها الدولة الفاطمية التى امتدت مملكتها من المحيط الأطلنطى الى حدود نجد والفرات . ولم يستغن جميع هذه الممالك والإمارات التى تشعبت من الدولة العباسية فارسية أو غير فارسية عن اتخاذ العربية الفصيحة فى هذا العصر لغة رسمية فى التعبد والتعليم والسياسة ، الا أن هـذه اللغة أخذت تصطبغ بعد قليل بصبغة قومية فى بعض أحوالها وهـذه الصبغة هى التى نريد أن نبينها بايجاز فى كل صقع من الأصقاع .

---

(١) قد حاول بعض هؤلاء الحكام إحياء دولة الفرس القديمة ولغتها وأدبها فنجحوا بعض النجاح فى نظم الشعر وبعض الآداب بالفارسية ولم ينجحوا فى استعمالها فى تعليم العلوم وخاصة الشرعية منها الا بعد سقوط الدولة العباسية .

الأدب العربى فى الشرق

العراق وفارس وخراسان فى القرنين الرابع والخامس

فتح العرب بلاد الفرس ، وكانت أمة الفرس ذات حضارة راقية ولغة متينة وعصبية قومية ، فاستطاعوا أن ينسخوا دينهم "المجوسية" ولكنهم لم يستطيعوا أن ينسخوا عصبيتهم للجنس والوطن ، ولذلك كان الفرس يثورون لاستعادة ملكهم مرة بعد أخرى الى أن تحققت لهم أمنيتهم فى القرن الرابع ، وشرعوا فى انشاء آداب جديدة بلغتهم الفارسية الحديثة ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يجعلوها لغة عامة للعلم والتعليم والاشتراع والسياسة الا بعد انقضاء هذا العصر الذى نتكلم فيه كما قدمنا ، لخلو الفارسية الحديثة من الاصطلاحات ، ولذلك بقيت العربية الفصيحة صاحبة السيادة والنفوذ فى جميع الممالك الشرقية، التى اشتُقّت من الدولة العباسية ، يبذل كل ملك من ملوكها وأمرائها جهده فى ترغيب العلماء والأدباء والكتّاب والشعراء والمهندسين والأطباء وكل ذى احسان فى صناعته فى الاقامة عنده تأييداً لدولته وزينا لملكه .

فبقيت سوق الأدب العربى والعلم رائجة فى هذه الممالك أكثر من قرنين ، ثم اضمحلت بالتدريج بتغلب النزعات القومية وانقراض العلماء والأدباء الذين كانت تربيتهم اللغوية العربيــة متأثرة ومطبوعة بطابع الدولة العباسية العربية ، حتى خرج التتار فى أواسط القرن السابع الهجرى فاكتسحوهم جميعاً وخربوا بلادهم وقتلوا علماءهم و بدّدوا كتبهم فخَمَدَتْ بعد ذلك اللغة العربية فى أواسط آسيا خموداً لم تنتعش بعده، وان بقيت منها أثارَةٌ على ألسنة بعض علمائها وفلاسفتها الى الآن .

الشعر والشعراء فى المشرق [1]

عاش كثير من الشعراء فى ظلال هذه الممالك الشرقية يتكسبون بالكتابة فى دواوينها أو بمدح ملوكها ومنادمتهم أو املاء الأدب واللغة فى مدارسها ، وكثير منهم كان ينتقل من مملكة الى أخرى، ولم يكن شعرهم العربى أرقى شعر فى زمانهم

[1] يراد بالمشرق هنا بلاد العراق وفارس وخرسان الى حدود الصين والهند و يدخل فى ذلك بلاد التركستان .

لمكان بيئتهم الأعجمية ، بل كان يفضلهم شعراء الجزيرة والشام ومصر والأندلس لكثرة العناصر العربيـة فى هـذه المـالك . ومع ذلك سلكوا فى الشـعر مسلك المتقدمين فى أغراضهم من الغزل والمديح والرثاء والوصف والفخر مع ضعف قليل فى البلاغة واختراع المعانى، الا أن تنوع الحياة الاجتماعية فى هذا العصر فى بابى الهزل والجد وانتشار مذاهب الفلاسفة وطرق الصوفية أحدث فى فنون الشعر وأغراضه فى الشرق شيئا جديدا : كالشعر التهكمى المضحك الذى نشأ فى بغـداد على لسان ابن سُكَّرَة وابن حَجَّاج ثم شرّق وغرّب ،وكانت منزلة هذا الشعر منزلة المجلات الهزلية والتمثيل الهزلى فى زماننا (١) وكالشعر الفلسفى الذى يشرح أو يشير الى بعض الحقائق

---

(١) ابن سكرة الهاشمى هو أبو الحسن محمد ، كان يعيش ببغداد فى القرن الرابع ، وكان من فحول شعرائها لولا كثرة مجونه وإقذاعه الى حد لا يمكننا معه التمثيل هنا بشىء من شعره هذا . ومن المقبول من هزلياته قوله وقد نزلت به نزلة فى حلقه :

قلت للنزلة حلى وانزلى غـير لهـاتى
واتركى حلقى بحق فهو دهـليز حياتى

وقوله فى هجاء بخيل :

تجشأت فى وجه بوابه ليعرف شـبعى فلا أمنع
وقلت له إن بى تخمـة فهل من دواء لها ينفـع
فقال لقـد غرّنى معشر بهذا الحديث الذى أسمع
فلما نذرت بهم صاحبى ولاحت موائده أسرعوا
فراحوا بطانا ذوى كظة وأقبلت من أجلهم أصفع

وابن حجاج هو أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن الحجاج كان معاصرا لابن سكرة يتناقضان ويتهاجيان وكان يقال ببغداد إن زمانا جاد بابن سكرة وابن الحجاج لسخى جدّا ، وكان أشد افحاشا من ابن سكرة فى ذكر الأقذار وبذىء الكلام . ومن قوله فى رجل يسمى أبا الحسين كان معه فى دار بخيل فالتمس أبو الحسين من البخيل العشاء بعد الغداء فقال ابن الحجاج :

يا كَلِبَ الضرس مايُدَاوَى ضرسك إلا بكلبتين
ويلك قل لى جننت حتى تلتمس الخـبز مرتين
فى دار من خبزه عليـه ألف رقيب وألف عين

الفلسفية كأحوال الروح وحركة الاجرام السماوية وغيرهما كما فى شعر ابن سينا والرازى وابن التلميذ الطبيب [١] وكالشعر الصوفى الرمزى ومنشؤه الشرق والعراق، ثم غرّب الى الشام ومصر كما فى شعر الحَلَّاج والشِبْلى والقُشَيْرى [٢] وحدث أيضا ان هجر الشعراء استعمال الغريب من اللفظ والعويص من الأسلوب ، ولم يتنزهوا شعرهم عن استعمال الكثير من الألفاظ الأعجمية [٣] والاصطلاحات الفنية وزادوا على أهل الماضى فى استعمال المحسنات البديعية وألفاظ المجون والسخف وأسماء المعيبات والأقذار لغلبة هذا النوع على شعر الكثير من خُلَعَاء بغداد .

وكان أكثر المعانى المخترعة فى شعر المشارقة تقع فى الهزل اذ كانوا هم فاتحى بابه ، ولكن الفحول من شعرائهم ألموا بكثير من المعانى الشريفة والأخيلة الرائعة كالشريف الرضى ومِهْيار الدَّيْلمى وكلاهما من أهل بغداد ، وكان شعر أهلها وأهل العراق عامة أرق أسلوبًا وأفصح لفظًا من شعر أهل فارس وخراسان .

الشريف الرضىّ

عاش الشريف الرضى فى بغداد وكان أبوه نقيب أشرافها فنشأ نشأة راقية فى العلم والأدب ، ونبغ نبوغا استحق به أن يسمى شاعر قريش ، ويغلب على شعره الفخر والنسيب على طريقة المتقدمين فى لفظ جزل ومعنى فخم ؛ وجمع خطب

(١) وذلك كقول أبى بكر الرازى الكيميائى الطبيب المتوفى سنة ٣١١

لعمرى ما أدرى وقد أذن البلى ... بعاجل ترحالى الى أين ترحالى

وأين محل الروح بعد خروجه ... من الهيكل المنحلّ والجسد البالى

(٢) وذلك كقول الشبلى أبى بكر دلف الزاهد الصوفى المتوفى سنة ٣٣٤

على بعدك لا يصبر من عادته القرب

ولا يقوى على هجرك من تيمه الحب

فان لم ترك العين فقد يبصرك القلب

(٣) وذلك كقول البديع الاصطرلابى وكان يعيش فى أواخر القرن الخامس .

وذى هيئة يزهو بخال مهندس ... أموتُ به فى كل وقت وأبعث

محيط بأوصاف الملاحة وجهه ... كأن به أقليدس يتحدث

فعارضه خط استواء وخاله ... به نقطة والخد شكل مثلث

جده الامام علىّ رضى الله عنه فى كتابه المشهور (نهج البلاغة) غير مدقق فى صحة رواية بعض خطبه ، وتولى نقابة الأشراف ، ثم عزله الخليفة عنها لاتهامه بالميل إلى الفاطميين خلفاء مصر ، وتوفى سنة ٤٠٦ ، وله ديوان مطبوع .

مهيار

أما مهيار بن مرزويه فكان ديلميا مجوسيا يتكسب بالكتابة فى ديوان البويهيين المستولين على بغداد ، ثم صاحب الشريف الرضى فأسلم على يديه وتخرج عليه فى الشعر وحاكاه فى أسلوبه وربما رق عنه فى بعض الأحيان [١] وتوفى سنة ٤٢٨ وله ديوان مطبوع .

النثر الفنى

أو كتابة الترسل والانشاء

ولما كان هذا النوع من النثر من نحو الرسائل والمقامات والاخبار والقصص والسير مثارا للخيال ومظهرًا لحركات الوجدان والشعور و إظهار التفوق فى براعة القول والحذق فى الصناعة اللفظية اصطبغ فى القرن الرابع وما بعده من القرون بصبغة يغلب فيها تفضيل جانب اللفظ على جانب المعنى ، فالتزم فيها السجع القصير الفقرات غالبا ، واستعملت الأساليب الشعرية وعُنِىَ بالاكثار من الأخيلة والتشبيهات والاستعارات البديعة ، وقَلَّت المعانى المخترعة فاضطر الكاتب إلى حل كثير من أبيات الشعر ذوات المعانى الجميلة و إلى الاقتباس من

(١) كقوله فى الفخر :

أعجبت بى بين نادى قومها	أم سعد فمضت تسأل بى
سرّها ما علمت من خلقى	فأرادت علمها ما حسبى
لا تخالى نسبا يخفضنى	أنا من يرضيك عند النسب
قومى استولوا على الدهر فتى	ومشوا فوق رءوس الحقب
عمموا بالشمس هاماتهم	وبنوا أبياتهم بالشهب
وأبى كسرى علا ايوانه	أين فى الناس أب مثل أبى
قد قبست المجد من خير أب	وقبست الدين من خير نبى
وضممت الفخر من أطرافه	سودد الفرس ودين العرب

القرآن والحديث والأمثال لفظا ومعنى حتى سمى الأدباء هذا النوع بالشعر المنثور[1] وأول من أشاع هذه الطريقة ابن العميد (وزير آل بُوَيْه) وشابهه كثير ممن عاصره أو جاء بعده ، وأعظم نموذج لها مقامات الحريرى ، وكان ابن العميد هذا رأس كتّاب المشرق ، وفارس حلبتهم ، ومع أنه إمام طريقة الشعر المنثور لم تحط كتابته فى البلاغة كما انحطت كتابة تابعيه فى طريقته من المتأخرين ، حتى لقد كان يقال فيه بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد. وتوفى سنة ٣٦٠ وتخرج على يده الوزير الكاتب المشهور الصاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ وكان يلتزم السجع أكثر من ابن العميد ، وتولع بالجناس ، ومن أشهر كتّاب هذه الطريقة بديع الزمان ، وله ديوان شعر وديوان مقامات وديوان رسائل وكلها مطبوعة ، والخَوارزمى ، وله ديوان رسائل مطبوع ، والصابى وله ديوان رسائل طبع منها الجزء الأول ، والحريرى وله المقامات المشهورة طبعت بأشكال مختلفة وشرحت شروحًا عدّة .

التدوين والتصنيف فى المشرق

بقيت حركة التأليف بالمشرق فى هذا العصر فى تقدم وارتقاء فى العلوم اللسانية والشرعية والفلسفية التى وضعت أو ترجمت فى العصر الماضى ، وتنوعت أشكال المؤلفات فيها جميعها من مبسوطات ومختصرات ووسائط بينهما : لما قدمنا من تنافس الملوك فى تزيين ممالكهم وتأييدها بالعلوم والصناعات .

ففى العلوم اللسانية شرحت أمهات كتب النحو وأكملت قواعده وعللت أحكامه ، وللسيرافى المتوفى سنة ٣٦٨ وابن فارس المتوفى سنة ٣٩٥ وابن جنى المتوفى سنة ٣٩٢ ونظرائهم عظيم الفضل فى ذلك ، وكذلك وضعت أمهات كتب

---

(١) كقول ابن العميد : من أسرَّ داءه ، وستر ظماءه ، بعد عليه أن يَبُلَّ من غَلَله ، ويُبلَّ من علله . وكقول أبى بكر الخوارزمى : الرجال حصون يبنيها الاحسان ، ويهدمها الحرمان ، وانه لا مال إلا بالرجال ولا صلاح إلا بعد قتال . وكقول بديع الزمان : أنت ولدى ما دمت والعلم شأنك ، والمدرسة مكانك ، فان قصرت ، ولا إخالك ، فغيرى خالك .

البلاغة ، وفصلت أبوابها ، وتنوعت قواعدها ، فى مثل كتابى دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ ، ثم زاد قواعدها وعلل أحكامها بُعَيْدَ هذا العصر السَّكَّاكى المتوفى سنة ٦٢٦ ، وفى الأدب وضع كتاب الأغانى العظيم لأبى الفرج الأصفهانى المتوفى سنة ٣٥٦ فى إحدى وعشرين مجلدة ، ووضعت كتب أخرى فى الأدب ممزوجا بالبلاغة . وظهرت كتب عدّة فى الأسمار والخرافات وسِيَرَ الأبطال من الشجعان ، ومنها كتاب ألف ليلة وليلة ، وأصله بالفارسية زيدت عليه على طول الزمن حكايات عربية عراقية وشامية ومصرية ، وفى متن اللغة وضعت أفضل المعجمات المرتبة المهذبة ككتاب الجمهرة لابن دُرَيْد المتوفى سنة ٣٢١ وكتاب التهذيب للأزهرى المتوفى سنة ٣٧٠ وكتاب الصحاح للجوهرى المتوفى سنة ٤٠٠ .

وفى العلوم الشرعية وضع الكثير من أمهات الكتب فى علم تفسير القرآن وشرحت كتب السنة النبوية الجامعة وأكملت قواعد علم أصول الفقه وفصلت فروعه ووضع فى علم التوحيد مذهب الأشاعرة وضعه أبو الحسن الأشعرى المتوفى سنة ٣٢٤ .

وفى العلوم الفلسفية هذبت كتب المترجمين الأولين وشرح غامضها ، وملك كثير من فلاسفة المسلمين ناصيتها ، فأصبح لهم فيها آراء ناضجة وبعضها صبغ بصبغة إسلامية ، كمباحث علم الكلام وبعض فروع الفلك من الميقات والتقويم ، ومثل علم الحساب والجبر والكيمياء العملى والطب وغيرها . وممن لهم مزيد الفضل فى ذلك أبو نصر محمد الفارابى المتوفى سنة ٣٣٩ ، وأبو على الحسين بن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ وأبو بكر الرازى الكيميائى الطبيب المتوفى سنة ٣٢٠ . وظهر كثير من كتب الصوفية ومن أشهرهم الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ . وسلك ذلك السبيل فى التقدم كثير من الفنون الاجتماعية كفن التاريخ وتدبير الملك والمنزل والأخلاق وغير ذلك.

الخلاصة

فيرى مما تقدم أن اللغة العربية تقهقرت فى المشرق شعرًا وكتابةً ، وارتقت فى العلوم بأنواعها تدريسا وتأليفا .

الأدب فى مصر والشام

زمن الفاطميين والأيوبيين

فتح العرب مصر والشام وانتشرت جمهرتهم بهما لخصبهما وقربهما من جزيرة العرب ، فغلبت لغتهم وآدابهم ودينهم على لغة أهليهما من الروم والقبط ، وعلى آدابهم ودينهم إلا قليلا ولما ضعفت خلافة بغداد وقعت مصر والشام غنيمة باردة فى أيدى الطولونيين ثم الأخشيديين ثم الفاطميين ، واتخذ هؤلاء جميعا مصر مركزا لحكومتهم لخصبها وكثرة خيراتها ، فكانت القاهرة زمن الفاطميين حاضرة لخلافة عربية عَلَوية ضخمة ذات حضارة راقية ، وطال عمرها نحو سبعين ومائتى سنة ، فصبغت مصر والشام بصبغتها فى بعض الاعتقاد ، وأكثر العادات والأعياد ، وكانت حضارتها فى الصناعات والعمارة أساسا للفن العربى الاسلامى إلى وقتنا هذا .

وكانت محبة خلفائها وأمرائها ووزرائها للعلم والأدب والشعر بالغة أقصى الغاية ، فاتخذ كثير من الأدباء والنحاة والكتاب والشعراء فى زمنهم مصر دار إقامة ، وأسنى الخلفاء الفاطميون لهم الجوائز وجلسوا لهم يستمعون بدائعهم فى الأعياد والمواسم ، وما كان أكثرها عندهم . ولم تُخمِد شعلة حضارتهم الا الحروب الصليبية ومنازعة مواليهم ووزرائهم لهم فى الملك على مثل ما كان الأمر فى الدولة العباسية ، حتى سهل على صلاح الدين الأيوبى ابادة خلافتهم وتأسيس دولة كُردية فى النسب مستعربة فى اللسان والنزعة على انقاضها ، فأنقذت معظم بلاد الشام من الصليبيين ، وانتفعت بحضارة الفاطميين أى انتفاع ، وان عملت جهدها على نسخ مذهبهم الشيعى الباطنى واحلال مذهب أهل السنة محله ، الى أن انتزع الملك منهم مماليكهم التركمان ..

الشـــعر فى مصر والشام

زمن الفاطميين والأيوبيين

كانت مصر والشـام فى العصر الأول من حكم الدولة العباسـية ولايتين من ولايات الخلافة ، يتعاقب على حكمهما ولاة من قبل بغداد لا تزيد ولايتهم غالبا على بضع سنوات ، ولا يتصرفون فى شىء من خراج الولاية الا بحقه : من عمارة أرض ، أو رزق جند ، أو كتّاب ديوان ، أو قضاة أو شرطة ، أو نحو ذلك ، و يرفعون باقى الخراج الى الخليفة محاسَبين عليه من أهل الديوان ببغـداد حسابا عسيرا ، فلم يكن فى استطاعتهم الانفاق على أمر عام : من نشر ثقافة علمية أو أدبية دائمة الأثر ، وإنمـا كان أصحاب الهمم النبيلة والنفوس الشريفة من الرعايا يطلبون الفقه أو الحديث أو اللغـة أو الأدب والشـعر غير مدفوعين بدافع الا حب العلم والمعرفة . فاذا نبـغ أحدهم وأصبح إماما يرجع اليه فى علم ، أو شـاعرا يرغب فى شعره الملوك ، وأحس ذلك من نفسه ، وجد أن مقر الولاية لا يتسع لمثله ، فيخرج الى بغداد حيث المعرِض العام والسـوق النافقة للعلم والأدب والشـعر ، فيعرِض بضاعته على الراغبين فيها من الرؤساء والعلماء والنقاد والمؤلفين فى الأدب ، فلا يلبث أن يشتهر فاما أن يدخل فى غمار كتّاب الدولة ان كان أديبا ، أو حكامها وقضاتها إن كان فقيها ، وإما أن يتكسب بالشعر مدحا وهجاء ومنادمة ومحاضرة .

واذا آثر أحد من هؤلاء النابغين الاقامة فى وطنه من الولايات والأقاليم الصغيرة بسبب عجز فى جسمه أو قصـور فى همته أو زهادة منه فى الدنيا ، خَمَل ذكره ، وجُهِل قدره ، وانحصرت الرواية عنه فى أهل بيئته ، وأكثرهم حساد له ناقمون منه مزاياه . وما جلب عليه كل ذلك الا ابتعاده عن ميدان التناضل العام ، وموطن الاعلان والاشتهار ، وهو دار الخلافة .

ولذلك نرى فى العصر المـاضى أمثال أبى تمـام الناشئ بين الشـام ومصر ، والبحترى الناشئ فى مَنْبِج شمـالى حلب لم يشتهروا إلا بعد أن هجروا مواطنهم الى

دار الخلافة وإنا لنقرأ شعر بعض شعراء الشام ومصر ممن آثر الخمول على الهجرة الى حاضرة الملك فنجده فى بعض الأغراض يفوق أشعار المشهورين أو يكاد ، ولكن أهل التاريخ والرواية والنقد والتأليف ، ومقرهم الحاضرة غالبا ، لم يشعروا بهم فنسيت أخبارهم ، وعفّى الزمان على آثارهم .

اذا فهمت هذا عرفت لماذا لم تكن الفسطاط ولا الاسكندرية ولا دمشق فى العصر الأول العباسى بيئة صالحة لإقامة كبار الشعراء ولكن لما ضعفت خلافة بغداد فى العصر الثانى الذى نحن بصدد الكلام فيه ، نشأت فى الشام ومصر دول وإمارات مستقلة قاسمت بغدادَ فضلَ العناية بالعلم والأدب والشعر والفنون ، فأبقتْ من جهة على نبغائها باصطناعهم وترْفيه العيش عليهم ، فطاب لهم المقام فى ظلالها وربئوا بأنفسهم عن الهجرة الى غيرها ، وجلا اليها كل من لم تتسع له بيئة وطنه من أهل الاجادة فى العلم والأدب والشعر . ومن الأمثلة لذلك دويلة صغيرة فى شمالىّ الشام ملكها أمير من تغلِب يجيد الشعر ونقده ويرغب فى الأدب واللغة والحكمة، ويُسْنِى جوائز أهل الاجادة،وهو سيف الدولة أمير حلب وبعض الثغور ، قد اجتمع بها فى خدمته من الفلاسفة واللغويين والنحويين والأدباء والخطباء والشعراء من أهل الشام ومن مختلف الأقطار جمهرة لم تجتمع لخليفة وقته ولا للديلمى المتغلب على بغداد، ومدحه بل تخرج فى دولته أبو الطيب المتنبى الذى أنِف أن يمدح خليفة بغداد ووزيرها المهلبى عند مروره بها قاصدا عضد الدولة .

غير أن حال الشعر فى خلال العصر العباسى الثانى أى زمن الفاطميين والأيوبيين لم تكن مطردة التقدّم لطول هذا العصر وتقاصر همم الملوك فى أواخره عن معاضدة أهله ، فانصرفوا عن التكسب به الى الخدمة فى دواوين الدولة ، ونظموه إما تكمُّلا وتظرُّفا ، وإما تملُّقا للرؤساء وتقرُّبا اليهم .

لذلك كانت حال الشعر فى مبدأ العصر الثانى العباسى بمصر والشام نهاية ما وصل اليه الشعر العربى من الارتقاء : كما فى شعر المتنبى وأبى فِراس والمعرى لقرب عهد هؤلاء الشعراء بالعصر الأول العباسى وتأدّبهم بأدبه .

وكانت حالة أواسط العصر الثانى وأواخره تتحوّل شيئا فشيئا الى صورة مَوطنيّة قومية بسبب ما نشأ فى مصر والشام فى مدة تزيد على مائتى سنة من حضارة خاصة ، ومذاهب مختلفة شيعية و باطنية وصوفية وسُنِّيَّة ، وكلها ذوات رسوم حديثة ، و بسبب ما دهم البلاد بعْدُ من الحروب الصليبية التى غيرت مجرى نظام الحكم وطرق الكسب والمعيشة ، وشغلت أهلَها عن الاستزادة من العلم والأدب ، وصبغت طبائعهم بصبغة خاصة لم تنهض بالشعر الى منزلة أسمى من منزلته فى مبدأ هذا العصر ، بل انخفضت منزلته فى البلاغة واختراع المعانى الشريفة .

وتتضح لنا صفة الشعر العامة فى هذا العصر بما يأتى :

بقيت فنون الشعر وأغراضه القديمة من نحو الفخر والمدح والرثاء والغزل والوصف والتهنئة مستعملة بمصر والشام فى جميع هذا العصر اذ كان أكثرها من لوازم الحياة الاجتماعية العامة .

ثم استدعت حوادث هذا العصر السياسية وتشكل التربية الخلقية والأدبية والثقافة العلمية بصور خاصة بعض توسع فى هذه الأغراض القديمة ، أو تنويع فيها وزيادة عليها .

فتوسع شعراء الشام، من قبل أن تُنَغِّصَ عيشهم الحروب الصليبية، فى وصف الطبيعة ، وتنوعوا فيه لسببين اجتمعا لهم :

الأول — اتساع مجال الخيال الجميل عندهم ووفرة مادته لديهم بجمال بيئتهم، وكثرة ما فيها من مناظر الطبيعة الرائعة : كالجبال الشاهقة المكللة رءوسها بالسحب، وكالمروج النَّضْرة ، والجداول المتسلسلة بين بساتين الفاكهة وحدائق الأزهار ، وكثرة السحب ونزول الأمطار والثلج والبَرَد ، إلى صحة الهواء واعتدال الفصول وتميز بعضها من بعض .

والثانى — قُرْبُ صُقْع الشام من صُقْع العِراق ، منشأ الحضارة الاسلامية، ومنبت علماء اللغة والشريعة والحكمة ، ومن صقع بلاد العرب مَهْد الفصاحة الأولى ، وكان عند أهلها فى ذلك العهد بقية منها ، واتصالُهُمْ بالشام أيسر عليهم من اتصالهم بمصر ، ولذلك نجد أغلب سكان شرقىّ الشام حتى وقتنا هذا من أهل البدو أو المتطبعين بطباعهم .

وكان لقرب الشام من العراق مزية أخرى ، فانه أبقى فيهم فى مُفْتَتَح هذا العصر ملكة التكمل بالمعرفة والعلم ، والتزود من العلوم الاسلامية التى كانت قد اتسعت دائرتها فى هذا العصر ، ومن الفلسفة المنقولة عن الأوائل ، وكانت قد رسخت فى أذهان نابتة هذا الزمان بالعراق والجزيرة وشمالى الشام .

كل ذلك بلا ريب ينمى مادة الخيال ، ويجمل صُورَه ، ويشكلها بما لا يحصى ، ويُجوّد اللفظ .

ولذلك نجد أشهرَ الوَصَّافين من المشارقة مِثل كُشاجم والصَّنَوْبَرى من أهل الشام [1] .

وتوسَّع الشعراء وخاصة شعراء الشام فى وصف المعارك الحربية ، لكثرة ما كانت تقع بين دول الجزيرة والشام ومصر من جهة ، والروم البيزنطيين ثم الافرنج الصليبيين من جهة أخرى .

وكل شعراء سيف الدولة الحَمْدَانىّ من أمثال المتنبي وأبى فراس والنامى والببغاء، وكذلك شعراء نور الدين بن زنكى وصلاح الدين الأيوبى ممن يجيدون وصف المعارك الحربية .

وتوسعوا أيضا فى التحريض على مجاهدة الصليبيين الذين أغاروا على بلاد الشام ومصر فى هذا العصر ، وحث الناس على استخلاص المدن والسبي من

---

(١) كشاجم هو أبو الفتح محمود بن الحسين من أهل الرملة من بلاد فلسطين خدم سيف الدولة ابن حمدان ولقب نفسه بكشاجم فسئل عن ذلك فقال : الكاف من كاتب والشين من شاعر والألف من أديب والجيم من جواد والميم من منجم وكذلك كان ، توفى سنة ٣٥٠ ومن شعره :

يا حبذا يومنا ونحن على ... روضنا نعقد الأكاليلا
فى جنة ذللت لقاطفها ... قطوفها الدانيات تذليلا
كأن أترجَّها تميل به ... أغصانه حاملا ومحمولا
سلاسل من زبرجد حملت ... من ذهب أصفر قناديلا

والصنوبرى هو أحمد بن محمد من أهل حلب من شعراء سيف الدولة ، وكان معاصرا لكشاجم وهو أكثر من كشاجم وصفا للطبيعة ومن قوله فى النرجس :

أرأيت أحسن من عيون النرجس ... أم من تلاحظهنّ وسط المجلس
درر تشقق عن يواقيت على ... قضب الزمرذ وسط بسط السندس
أجفان كافور خففن بأعين ... من زعفران ناعمات الملمس
فكأنها أقمار ليل أحدقت ... بشموس أفق فوق غصن أملس =

أيديهم(١) . ومن هذا النوع الأشعار التى وضعت فى الحماسة والافتخار بقهر الأقران والأبطال فى السير الخيالية المخترعة بمصر فى هذا العصر ، لتربية ملكة الشجاعة والاقدام فى نفوس شبانه ، كسيرة عنترة بن شداد ، وسيرة البطال ، وفتوح الشام ونحوها .

وتوسع بعض شعراء الشام ومصر فى باب الحكم والأمثال مما جرى على لسان المتنبى (٢) ، وشرح الحقائق الفلسفية (٣) ونقد العادات ونظام الحكم والاشتراع والاجتماع والتقاضى والتعبد ، ومعاملة الحيوان ، وغير ذلك مما جرى على لسان

= ومن شعراء الشام الوصافين أبو الفرج محمد بن احمد المشهور بالوأواء الدمشقى توفى سنة نيف وتسعين وثلاثمائة وهو القائل :

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت وردا وعضت على العناب بالبرد

ومن وصافى الطبيعة على بن رستم المشهور بابن الساعاتى المتوفى سنة ٦٠٤ أحد شعراء صلاح الدين الأيوبى

لله يوم فى سيوط وليلة صرف الزمان بمثلها لا يغلط
بتنا وعمر الليل فى غلوائه وله بنور البدر فرع أشمط
والطل فى تلك الغصون كلؤلؤ رطب يصافحه النسيم فيسقط
والطير تقرأ والغدير صحيفة والريح تكتب والغمام ينقط

(١) قال أبو الفرج عبد الواحد بن نصر الشهير بالببغاء المتوفى سنة ٣٩٨ أحد شعراء سيف الدولة يصف معركة له :

من السالبات الشمس ثوب ضيائها بثوب تولى نسجه عثير التُرُب
أعادت علينا الليل بالنقع فى الضحا وردت علينا الصبح فى الليل بالشهب

وقال الكاتب الشاعر العماد الأصبهانى أحد رؤساء الكتاب فى دولة صلاح الدين ، من قصيدة لشيركوه بن شاذى :

فتحت مصر وأرجو أن يصير بها ميسرا فتح بيت القدس عن كثب
قد أمكنت أسد الدين الفريسة من فتح البلاد فبادر نحوها وثب
شكا اليك بنو الاسلام يتمهم فقمت فيهم مقام الوالد الحدب
فى كل دار من الافرنج نادبة بما دهاهم فقد باتوا على ندب

(٢) كقول المتنبى وسيأتى الكلام فى ترجمته و بعض شعره :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم
والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم
ومن البلية عذل من لا يرعوى عن غيه وخطاب من لا يفهم

(٣) ستأتى أمثلة كثيرة لذلك عند الكلام فى أبى العلاء المعرى ومن قوله من مرثية :

بان أمر الاله واختلف النا س فداع إلى ضلال وهاد
والذى حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد
فاللبيب اللبيب من ليس يغتر بكون مصيره للفساد

المعرى . وقد علمت أن السبب فى ذلك انتشار العلوم والآداب اليونانية والفارسية والهندية فى أهل الملة الاسلامية ، واتصال زمن شعراء هذا الصنف بزمن النهضة العربية فى الدولة العباسية .

وتنوعت عند أهل القطرين ، وبخاصة المصريون ، التهانى باستحداث أفراح وطنية لم تكن معهودة من قبل ، أو كانت نادرة الوقوع ، من نحو الحفلات الكثيرة التى كانت تُعْنَى بها الدولة الفاطمية جِدَّ عناية كوفاء النيل وفتح الخليج ، ومولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومولد علىّ وأولاده ، وعيد الغدير وأول العام الهجرى ، والنيروز المصرى ، وقافلة الحاج ، وغير ذلك [١] .

وكالتهانى باستنقاذ المدن والأماكن المقدسة من الصليبيين والانتصار عليهم [٢] زمن الدولة الأيوبية .

وكذلك تنوع الشعر الصوفى بتنوع الكنايات والرموز عن أسراره بالغزل والخمريات ووصف السَّيْر والسُّرَى ، ولمع البروق وارتفاع النيران فى البوادى ونحو

---

(١) كقول كافى الدولة أبى العباس أحمد أحد شعراء الدولة الفاطمية يهنئ أحد خلفائها بفتح الخليج ووفاء النيل من قصيدة :

لمن اجتماع الخلق فى ذا المشهد ... للنيل أم لك يا ابن بنت محمد
أم لاجتماعكما معا فى موطن ... وافيتما فيه لأصدق موعد
هذا يفى و يعود ينقص تارة ... وتسدأنت النقص ان لم يزدد

(٢) وقال نقيب الأشراف بالديار المصرية احمد بن أسعد المعروف بالجوانى يهنئ صلاح الدين بفتح القدس من قصيدة قال فى أولها :

أترى مناما ما بعينى أبصر ... القدس يفتح والفرنجة تكسر
ومليكهم فى القيد مصفود ولم ... ير قبل ذاك لهم مليك يؤسر
قدجاء نصر الله والفتح الذى ... وعد الرسول فسبحوا واستغفروا
من كان هذا فتحه لمحمد ... ماذا يقال له وماذا يذكر

ذلك ، بل خرج أحيانا عن طريقة الرموز والكناية إلى تقرير حقائق التصوف وتقسيم مقاماته وأحواله ، كما فى شعر ابن الفارض ولا سيما تائيته الكبرى التى شرحت بشروح مطولة لكثرة ما حوته من حقائق طريقة القوم [١] .

ألفاظ الشعر وأساليبه

وأما ألفاظه وأساليبه فقد كان لفظ الشعر بمصر والشام فى مُفْتَتَح هذا العصر لا يزال جزلا رصينا ممزوجا ببعض الغريب ، ولا سيما شعر شعراء الشام وأعالى الفرات لغلبة العربية والبداوة بين أهليهما : كما فى شعر المتنبى وأبى فراس والمعرى ، ثم لما غلبت على القطرين دولة الفاطميين بحضارتها وترف معيشتها وعلومها وفلسفتها وطيب العيش فى ربوعها نشأ فى مصر نابتة من الأدباء يميلون إلى الظَّرف وسجاحة الطبع والتأنق والتملح فى كل شىء ، وذلك يستدعى سهولة البيان ورقة اللفظ ولطافة لفظه ومبناه وحسن نَغَمه وجَرْسه والتباعد به عن الحُوشِىّ من اللفظ المتنافر الحروف ، والميل إلى المحسنات اللفظية ، فسهل بذلك لفظ الشعر ولان ، وتبعته فى ذلك الأساليب وطرق التعبير ، واشتهرت هذه الطريقة فى أواخر هذا العصر بين المصريين من أمثال القاضى الفاضل وابن سناء الملك وابن النبيه وابن مطروح وآلت إلى البهاء زهير فتبسط فيها إلى درجة كادت تقرب من درجة لفظ العامة ، وسرى هذا الروح إلى شعراء الشام وأعالى الفرات لأنهم كانوا أهل مملكة واحدة [٢]

(١) ومن ذلك قول شرف الدين عمر بن الفارض الشاعر الصوفى أحد المولعين بالمحسنات البديعية المتوفى سنة ٦٣٢ من مطلع قصيدة :

أعد ذكر من أهوى ولو بملام فان أحاديث الحبيب مدامى

وأول تائيته الكبرى :

سقتنى حميا الحب راحة مقلتى وكأسى محيا من عن الحسن جلت

(٢) من ذلك قول كمال الدين ابن النبيه المصرى أحد شعراء الدولة الأيوبية المتوفى سنة ٦١٩

من سحر عينيك الأمان الأمان قتلت رب السيف والطيلسان
أسمر كالرمح له مقلة لولم تكن كحلاء كانت سنان
يزداد اذ أشكو له قسوة ولو شكوت الحب للصخر لان

وقول بهاء الدين زهير وزير الصالح الأيوبى وشاعره المتوفى سنة ٦٥٦

تعيش أنت وتبقى أنا الذى مت حقا
حاشاك يانور عينى تلقى الذى أنا ألقى
يا أنعم الناس قل لى الى متى فيك أشقى

الشعراء

كان كثير من شعراء مصر والشام يتكسبون بالشعر أول هذا العصر ، فلما اتسع نظام الدواوين زمن الدولة الفاطمية والأيوبية ، واقتضى ضبطُ الأعمال فيها تجزئتها وتعدّد أقسامها كثر عدد عمال الكتابة بها وزيد فى أرزاقهم ووظائفهم فدخل فى غمار كتّاب الدواوين كثير من أصناف المتعلمين من الكتّاب والشعراء والفقهاء ، ويظهر أن الفقه والقضاء كان لهما المقام الأول فى التعليم عند الدولة الفاطمية ، فَحَرَصَ كل كاتب أو شاعر على الاحتفاظ بلقب القاضى وان لم يلِ القضاء بالفعل ، وتلقبوا — مثل الخلفاء والوزراء — بألقاب خاصة مثل القاضى الرشيد ، والقاضى السعيد ، والقاضى الأعزّ ، والقاضى الفاضل ، والقاضى الأسعد الخ وسرت عادة تلقيب الشاعر والكاتب بالقاضى من الدولة الفاطمية الى الأيوبية ، ثم الى دولتى المماليك بعد هذا العصر .

المتنبى

وممن غلبت عليه صفة الشعر سواء أتكسب به أم لم يتكسب أبو الطيب أحمد ابن الحسين المتنبى المتوفى سنة ٣٥٤ ولم يأت بعده فى الأمة العربية أشهر منه ولا أشعر ، وكان ممن يؤثر جانب المعنى على جانب اللفظ فى كثير من شعره ، ويشتهر بايراد الحكم وضرب الأمثال المخترعة له أو المنقولة عن غيره من شعراء العرب أو الأمم الأخرى ، وبوصف المعارك الحربية(١) وله فى استخراج المعانى واختراعها باع

---

(١) فمن قوله فى وصف معركة لسيف الدولة مع الروم البيزنطيين :

أتوك يجرون الحديد كأنما ... سروا بجياد ما لهن قوائم
خميس بشرق الأرض والغرب زحفه ... وفى أذن الجوزاء منه زمازم
تجمع فيه كل لسن وأمة ... فما يفهم الحداث الا التراجم
وقفت وما فى الموت شك لواقف ... كأنك فى جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ... ووجهك وضاح وثغرك باسم

ومن قوله فى الفخر :

وانى لمن قوم كأن نفوسهم ... بها أنَفٌ أن تسكن اللحم والعظما
فلا عبرت بى ساعة لا تعزنى ... ولا صحبتنى مهجة تقبل الظلما

طويل ، ورزق السعادة فى شعره حتى لم يوجد متأدب فى زمانه أو بعد زمانه لم يستعن بشعره .

وهو من أصل عربى من أهل الكوفة، رحل به أبوه فى صغره الى بلاد الشام فتأدب ، ودخل باديتها ، فلُقِّن الفصاحة من أعرابها ، فقيل انه ادّعى النبوة فيهم ، وهو شاب صغير ، فقُبض عليه وسجن مدة ، ثم خرج يتكسب بالشعر ، يمدح أمراء الشام وخاصة سيف الدولة ، وفى دولته طار صيته . ثم دخل مصر ، ومدح كافورا الاخشيدى ثم خرج منها وهجاه ، وذهب الى الشرق فمدح عضد الدولة وابن العميد ، ثم قتل بقرب بغداد عند مُنْصَرَفه الى الكوفة .

المعرى

ومنهم أبو العلاء المعرّى التَّنُوخى الفليسوف الضرير من أبناء الفقهاء بالمعرّة ، نظم الشعر فى صباه ، وأجاد علوم العربية حتى عُدّ من أئمتها .

واطلع على كثير من آراء فلاسفة اليونان والهنود ، فامتنع فى كهولته عن أكل كل ذى روح وما يخرج منه ، وضَمَّنَ آراءه الفلسفية شعره فى ديوان خاص سماه لزوم ما لا يلزم لبناء روىّ أبياته على حرفين ، وتعرض فيه للشرائع والمذاهب

ومن قوله فى الحكم والحماسة :

عش عزيزا أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود
فرءوس الرماح اذهب للغيظ وأشفى لغل صدر الحقود
لا كما قد حييت غير حميد وإذا مت مت غير فقيد
فاطلب العز فى لظى ودع الذل ولو كان فى جنان الخلود

ومن قوله فى الحكم :

وكل امرئ يولى الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب
من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت ايلام
وليس يصح فى الأذهان شىء اذا احتاج النهار الى دليل
ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ما من صداقته بد
واذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام
وما الحسن فى وجه الفتى شرف له اذا لم يكن فى فعله والخلائق
وشر ما قنصته راحتى قنص شهب البزاة سواء فيه والرخم

والعادات ونظام الملك والاجتماع فاتُّهم بالزندقة ، ولم يطرق شاعر فى الاسلام قبله ولا بعده تلك الأغراض التى قصد اليها أو انتقدها [١] وله ديوان شعر آخر ضمنه كثيرا من شعره فى أغراض الشعر المعتاد وسماه سَقْطَ الزَّنْد وتوفى بالمعرّة سنة ٤٤٩ ﻫ وله مؤلفات فى الأدب واللغة والشعر .

تميم بن المعز

ومن شعراء المصريين الأمير تميم بن المعز الخليفة الفاطمى [٢] وكان فى دولتهم لا يقل عن ابن المعتز فى الدولة العباسية ، توفى شابا سنة ٣٧٤

وكمال الدين ابن النبيه علىُّ بن محمد شاعر بنى أيوب المتوفى سنة ٦١٩ ، وبهاء الدين زهير وكان من أرق شعراء السهل الممتنع وهو وزير الصالح الأيوبى توفى سنة ٦٥٦

ومنهم أشعر شعراء الصوفية على الاطلاق شرف الدين عمر بن الفارض المتوفى سنة ٦٥٢

---

(١) فمن ذلك قوله فى القناعة :

والموت أحسن بالنفس التى ألفت   عز القناعة من أن تسأل القوتا

ومن قوله فى المآكل والملابس :

يكفيك أدما سايط ما أريق له   دم ولامس روحا اذ جرى ألم

وقوله زاعما ان الوالدين جنيا على الولد :

متى لمانى على زلة   رجعت على أبى الهابل

وقوله فى الحكام :

مُلَّ المُقَام فكم أعاشر أمة   أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها   نعدّوا مصالحها وهم أجراؤها

(٢) ومن قوله :

أما والذى لا يملك الأمر غيره   ومن هو بالسر المكتم أعلم
لئن كان كتمان المصائب مؤلما   لإعلانها عندى أشد وآلم
ون كل ما يبكى العيون أقله   وان كنت منه دائما اتبسم

النثر الفنى

أو كتابة الترسل فى هذا العصر

كانت كتابة الانشاء والترسل فى النصف الأول من هـذا العصر ، أى مدة بنى حمدان والفاطميين، على مثل ما كانت عليه فى الشرق من اتباع طريقة ابن العميد بل ربما قل فيها التزام السجع ومحسنات البديع .

وكان آخر من نسج على هذا المنوال العماد الكاتب الأصبهانىّ المتوفى سنة ٥٩٧ ولما نُبه شأن القاضى الفاضـل فى أواخر الدولة الفاطمية أراد أن يحاكى كتاب الشرق فى البديع ، فزاد عليهـم وأربى واخترع طريقة جديدة يصح أن تسمى الطريقة الفاضلية (١)

وذلك أنه جارى من قبله من كتاب المشرق فى التزام السجع والجناس والطباق، وزاد عليهم أن استعمل فى رسائله أكثر أنواع البديع التى كانت فاشـية وقتئذ فى الشعر ، وأكثر من حل المنظوم واقتباس الآيات ، وتضمـين الأمثال ومشهور الأقوال . وأكثر جدا من استعمال التورية فاستدعى ذلك إطالة السجعات طولا أخرجها عن المألوف ، لأن التورية يُحتاج فيها الى ذكر مرشِّحات وقرائن لمعنييها القريب والبعيد ، وأمعن فى التشبيه والاستعارة مع قلة المبالاة بالمبالغة والاغراق فى ذلك حتى جاءت معانى رسائله منقادة لألفاظها وأساليبها ، غير أن هذا التكلف لم يظهر فى رسائله بقدر ما ظهر فى رسائل من خَلَفَه فى دواوين الانشاء بمصر والشام لسلامة ذوق الرجل وانطباعه على طريقته وسعة مادته فى اللغة ووفرة محفوظه من الأدب ،

---

(١) وله من رسالة فى وصف حصن منيع :

" ووردنا حصن كوكب وهو نجم فى سحاب ، وعُقَاب فى عِقَاب ، وهامة لهـا الغمامة عمـامة ، وأنملة اذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قلامة "

وله من رسالة فى وصف حمام الزاجل :

"لازالت أجنحتها تحمل من البطائق أجنحة ، وتجهز جيوش المقاصد والأقلام أسلحة ، وتحمل من الأخبار ما تحمله الضمائر ، وتطوى الأرض اذا نشرت الجناح الطائر ، وكادت تكون ملائكة لأنها رسل اذا نيطت بالرقاع ، طارت أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، وقد باعد الله بين أسفارها وقربها ، وجعلها طيف اليقظة الذى صدق العين وما كذبها ، وهى أنبياء الطير لكثرة ما تأتى به من الأنباء ، وخطباؤها لأنها تقوم على منابر الأغصان قيام الخطباء .

فلما جرى فى حلبته من ليس على صفاته حسب أن البلاغة تُمْلَكُ ناصيتها بعشرات من أنواع البديع ، فاسترسل فى تكلفها تكلفا أبعد الكتابة عن أساليب البلاغة العربيـة جملة .

ولم يظهر أثر ذلك جليا الا بعـد سقوط بغداد وتراجع الرسائل العربيـة إلى دواوين مصر والشام والغرب زمن الممـالك التركية كما سيأتى بيانه .

وبرع فى كتابة الرسائل الديوانية فى مصر والشام فى هذا العصر بلغاء ، منهم : أبو القاسم على بن مُنْجِب بن الصـيرفى المصرى المتوفى سنة ٥٥٠ هـ صاحب ديوان الرسائل المطبوع بمصر .

وموفق الدين يوسف بن محمد المعروف بابن الخلَّال كاتب المصريين وصاحب ديوان الانشاء المتوفى سنة ٥٦٦ .

وهذان من كتاب الدولة الفاطمية .

والقاضى الفاضل المتوفى سنة ٥٩٦ وزير صلاح الدين الأيوبى وأبو عبد الله محمد بن محمد عماد الدين الكاتب الأصبهانى المتوفى سنة ٥٧٥ كاتب صلاح الدين .

وهؤلاء ممن أدرك عصر الفاطمية والأيوبية .

التدوين والتصنيف

أو الثقافة العلمية والأدبية فى مصر والشام

كان اشتغال علماء الشام ومصر بتدوين العلوم الأدبية والشرعية والتاريخ لا يقل عن اشتغال علماء الشرق غير أن الفاطميين نشروا فقه الشيعة فى زمانهم ، وكان لهم عناية عظيمة بعلوم الحكمة والطب والفلك وسائر العلوم ، وجمعوا من الكتب وآلات العلوم ما لا يحصى ، حتى جاء صلاح الدين فبدد كتبهم وأعاد مذهب أهل السنة فى مصر والشام ، ومن ذلك قلت عناية علماء المصريين بالعلوم العقلية وانصرفوا إلى العلوم الأدبية والشرعية ، وممن اشتهر من مؤلفى هذا العصر أبو العلاء المعرى من الأدباء الشعراء والمسبِّحى وابن زولاق وابن عساكر والقُضاعى والعماد الكاتب من المؤرخين .

ومن الأطباء ابن رضوان المصرى ، ومن الفلكيين ابن يونس .

الأدب العربى فى الأندلس

تمهيد

فتح المسلمون الأندلس سنة ٩٢ هجرية على يد طارق بن زياد وموسى بن نصير زمن الوليد بن عبد الملك، وجلا اليها العرب والبربر من شمالى أفريقية، ولحقهم بها من جميع قبائل العرب وبطونها كثيرون من عرب الشام ومصر حتى كان منهم بها بعد زمن قليل جمهرة عظيمة مختلطة بطوائف من البربر وصلت فى فتوحها الى نهر لوار بفرنسا، وكان لأولئك الفاتحين والطارئين بعدهم السيادة على أهل البلاد من القوط والأسبان واليهود وغيرهم من الأهاين، ثم امتزجوا بهم بالمصاهرة لاسلام كثير منهم، فنشأ من الجميع بعد حين شعب مسلم مؤلف من عناصر عدّة ذو صفات ومزايا جديدة، شاركه فى بعضها من بقى على دينه من بقايا الاسبان واليهود، وتنوعت هذه الصفات بتنوع العصور المختلفة بسبب ما وقع فيها من الحوادث السياسية والاجتماعية والدينية، التى أبقت أثرا بيّنا فى اللغة وأدبها .

ويمكن تقسيم هذه العصور بالنسبة إلى اللغة وأدبها الى أربعة :

(١) عصر الولاة الأولين الذين كانوا يبعثون من قبل خلفاء بنى أمية بالشام، ومدته من سنة ٩٢ — ١٣٨ هجرية نصفها فتح وطاعة، ونصفها فتن داخلية انتهت الى عصبية ممقوتة، قد ختمت باستيلاء عبد الرحمن الداخل حفيد هشام بن عبد الملك على الأندلس وتأسيسه بها دولة بنى أمية الثانية، وعدة الولاة عشرون .

(٢) عصر رقى اللغة وآدابها، وهو عصر الدولة الأموية الغربية وملوك الطوائف الذين استبد كل منهم بناحية بعد زوالها واستقر فيها، ومدته من سنة ١٣٨ — ٤٨٤ هجرية .

(٣) عصر وقوف اللغة ثم تقهقرها، وهو عصر دولتى البربر من المرابطين والموحّدين، وهم الذين استولوا على ممالك الطوائف وجعلوا الأندلس ولاية تابعة لسلاطينهم بمرّاكُش وفاس ومدته من سنة ٤٨٤ — ٦٣٠ هجرية .

(٤) عصر يقظة الموت ، وهو عصر الدولة العربية الثانية من بنى هود وبنى الأحمر ومدته من سنة ٦٣٠ — ٨٩٧ هجرية وهم الذين أمكنهم المحافظة على جنوبى البلاد أكثر من قرنين ، ثم أجلاهم الاسبان عنها .

ونكتفى هنا بشرح حال اللغة وآدابها فى عصر بنى أمية وملوك الطوائف لأنه أرقى عصور الحضارة والأدب بها .

حال اللغة والأدب

زمن بنى أمية وملوك الطوائف

الحضارة بالأندلس

كانت حال اللغة والأدب فى عصر الولاة بين العرب ومستعربى البربر نظير ما كانت عليه عند بنى أمية فى الشرق أى على صورة بداوة وبُعدٍ عن مقتضيات الصناعة، ثم كانت فى زمن الدولة الأموية الأندلسية تسلك طريق الدولة العباسية تحاكيها، بل تنافسها فى كل شىء، وبلغت حضارتها ورقيها فى العلوم والآداب غاية المجد زمن الخليفتين الناصر وابنه المستنصر، وزمن الحاجب المنصور بن أبى عامر المستبد بأمر الخلافة بعدهما .

ولما انتشرت الفتن فى آخر دولة الأمويين انقسمت الى ممالك عدَّة مستقلة مدة تقرب من نصف قرن ، ولم تكن حال حضارة العلم والأدب فيها أقل منها زمن الدولة الأموية ، ثم تقهقرت بعد أن صارت الأندلس ولاية تابعة لملوك البربر فى مراكش من المرابطين والموحدين وانتعشت قليلا زمن دولة بنى الأحمر، آخر دولة اسلامية بالأندلس .

الشعر بالأندلس

زمن الأمويين والطوائف

هاجر العرب فى أواخر القرن الأول الى الأندلس ناقلين اليها معهم أخلاقهم وعاداتهم ، وأدبهم وشعرهم ، فاستخدموا الشعر فى بعض ما كان يستخدم فيه عصرَ بنى أمية بالمشرق ، من أنواع الحماسة والحض على الجهاد أولا، ثم الدعوة

الى العصبية واثارة الفتن ثانيا، ثم لما قر الملك فى بيت عبد الرحمن، وخمدت الفتن هبَّ الشعراء يَنْحُون مناحى الأغراض التى فشت فى الاسلام، وأصبح الشعر صناعة فئة من المتأدبين يتكسبون به بمدح الخلفاء والأمراء والقواد والانقطاع اليهم، وشجعهم هؤلاء أمويهم وعلويهم و بر بريهم ببذل العطاء لهم وتقريب مجالسهم منهم، واتخذوهم بطانة وندماء بل أعوانا ووزراء، اذ لم تكن صناعة الشعر مزرية بعظماء الناس هناك، بل كانت حلية كل متعلم، فقلما عجز عنه انسان منهم، بل نظمه كثير من الأميين، ولم يأنف الخلفاء والأمراء والفقهاء والوزراء من نظمه واذاعته عنهم فى الناس، فأولع به كل الطبقات حتى النساء، ونبغ فيه كثير من فضلياتهن و بارين الرجال، ولا نكاد نسمع فى الأندلس بفقيه أو نحوى أو متكلم أو فيلسوف أو طبيب أو رياضى أو مؤرخ إلا وجدناه شاعرا بليغا صاحب مطوّلات ومُقَطّعات فى أغراض شتى.

وذلك لجمال بيئتهم، وطيب العيش فى صُقْعهم، وميلهم الفطرى إلى الشعر، لأن أكثرهم من عناصر عربية، وإذا لم يشتهر فيهم أمثال فحول الشرق مثل بشار وأبى نواس وأبى تمام والبحترى والمتنبى فما ذاك إلا لبعدهم من المشرق مهد العربية وميدان التنافس العام فى آدابها وعلومها.

أغراض الشعر

ونظم شعراء هذا القطر الشعر فى كل الأغراض التى كان ينظم فيها شعراء الدولة العباسية حتى الخمريات والمجون، ولكنهم فاقوهم فى أنواع الوصف، وخاصة مناظر الطبيعة ورثاء الممالك الزائلة ونظم قواعد العلوم، ونقصوا عنهم فى نظم الشعر الحكيم المشتمل على الحكم التى تسير سير الأمثال على مثال شعر أبى تمام والمتنبى.

وكان أسلوبهم فى الشعر جاريا على سَنَن العرب فى الجزالة والسهولة فلم يحمِّلوا اللفظ أكثر مما يطيق من المعانى المزدحمة كما يفعل أبو تمام والمتنبى.

وكان شعرهم فى الغزل والخمريات والأوصاف غاية فى الرقة، وكان الخيال الشعرى الجميل مادة معانيهم، وقد أتوا فى شعرهم بقضايا عقلية وأحكام فلسفية، وزادوا على المشارقة فى أوزان الشعر وقوافيه فنّ الموشَّح، وهو يتركب من طوائف من أبيات أو شطور تتغير فيها القوافى.

ثم نظموا الموشح بالعامية فلقب بلقب جديد وهو "فن الزجل" وشاع النوعان بعد ذلك فى المشرق فحاكوا الأندلسيين فيهما و بقيا الى وقتنا هذا .

وقد نبغ فى الأندلس من لا يُحْصَون من الشعراء والشواعر، ومن أشهر مشهوريهم فى عصر الأمويين وملوك الطوائف :

ابن هانئ

أبو القاسم محمد بن هانئ الأندلسى الملقب بمتنبى الغرب ، وهو أشعر شعراء الأندلس على الاطلاق ، وكان يتكسب بالشعر ومنادمة الأمراء زمن الناصر والمستنصر، ثم اتهم فى شعره بالزندقة، ففر الى المغرب واتصل بقواد المعز الفاطمى وعماله فأوصلوه اليه فحظِىَ عنده واتخذه شاعر دولته ، إلا أن منيته عاجلته فمات عند رحلته الى مصر بعد فتحها وانتقال المعز اليها سنة ٣٦٢ هجرية وشعره جزل اللفظ فخم العبارة على مثال شعر بشار ومسلم وأبى تمام ، ويجيد فيه الاستعارة والتشبيه ، و يطيل القصائد و يكثر من الغلو فى المدح الى حد ممقوت (١) .

---

(١) ومن قوله فى المبالغة الممقوتة :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار　　فاحكم فأنت الواحد القهار

وقوله فى المعز الفاطمى :

ملك اذا نطقت علاه بمدحه　　خرس الوفود وأفحم الخطباء
هو علة الدنيا ومن خلقت له　　ولعلة ما كانت الأشياء

ومن أفخم شعره قوله يصف جيش القائد جوهر عند خروجه لفتح مصر :

رأيت بعينى فوق ما كنت أسمع　　وقد راعنى يوم من الحشر أروع
غداة كأن الأفق سد بمثله　　فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم أدر اذ سلمت كيف أشيع　　ولم أدر اذ شيعت كيف أودع

وقوله فى مطلع قصيدة :

فتقت لكم ريح الجلاد بعنبر　　وأمدكم فلق الصباح المسفر
وجنيتمو ثمر الوقائع يانعا　　بالنصر من ورق الحديد الأخضر

ومن شعره الرقيق الذى يتغنى به :

فتكات لحظك أم سيوف أبيك　　وكئوس خمر أم مراشف فيك
أجلاد مرهفة وفتك محاجر ؟　　ما أنت راحمة ولا أهلوك

ابن عبد ربه

أحمد بن عبد ربه ، صاحب العقد الفريد من شعراء الناصر ، كان من أرق شعراء الأندلس لفظا وأعذبهم أسلوبا ،وكان شعره يعجب المتنبي و يطرَب له وتوفى سنة ٣٢٨ (١)

ابن خفاجة

وابن خفاجة ، وكان فى زمن ملوك الطوائف وهو من أشهر وصَّاف الطبيعة توفى سنة ٥٣٣ هـ وتكثر فى كلماته الاستعارات وتزاحم المعانى وقلما تكسب بالشعر (٢)

النثر الفنى فى الأندلس أو كتابة الانشاء والترسل

كانت مناصب الكتابة عصر الولاة وصدرا من عصر بنى أمية مثلما كانت عليه فى المشرق ، فيتولاها الأمير ممليا كاتبه ، أو الكاتب بارشاد الأمير ، واذا علت مرتبة الكاتب وناب عن الأمير أو الخليفة سمى بالحاجب ، وهو أشرف الألقاب فى الدولة ، وكان اسم الوزارة يطلق على كل من يجالس الملوك ويختص بهم ، ثم صار الوزير الذى ينوب عن الملك فى سياسة الدولة يلقب بذى الوزارتين ، ويكون

---

(١) ومن رقيق شعره :

أيها البــدر الذى ضــنّ علينــا بالطلوع
أبغ لى عنــدك قلبا طار من بين ضلوعى
يا بديع الحســن كم لى فيك من وجـــه بديع

(٢) ومن شعره :

سقيا لها من بطاح أُنْسٍ ودَوح حُسْنٍ بها مُطِلّ
فما ترى غير وجه شمس أطَلَّ فيـــه عِذارُ ظلّ

وقوله :

لله نهر ســـال فى بطحاء أشهى ورودا من لمى الحسناء
متعطف مثل الســوار كأنه والزهر يكنفـــه مجرّ سماء
وغدت تحف به الغصــون كأنها هـــدب يحف بمقلة زرقاء
والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الأصــيل على لجين الماء

غالبا من أهل الأدب ، وكذلك كانت أحوال الكتابة من جزالة اللفظ وفخامة المعنى وخلوها من السجع الا فى النادر [١]

ثم حاكوا المشارقة فى نظام الدواوين ورسوم المكاتبات من تمييز أقسامها وتنويع صور بدئها وختمها ، وتسجيع عبارتها ، محاكين طريقة حَلْبة ابن العميد ، من التزام السجع القصير الفِقار غالبا ، ومن الاعتماد فى استمداد المعانى على الخيال [٢] ومن حل المنظوم والاقتباس من القرآن والحديث ، وتضمين الأمثال ، والاشارة الى حوادث التاريخ المشهورة ، وكتبوا فى أكثر الأغراض التى طرقها كُتَّاب المشرق ، ولكن بلاغتهم لم تنحط كثيرا فى آخر أمرهم كما انحطت البلاغة فى مصر والشام فى العصور التركية لقلة طروء العناصر الأعجمية عليهم ، وقصر مدة من طرأ منهم ، على عكس المشارقة ، ولتأصل عادة الاشتغال بالعلم والأدب فيهم .

ابن شُهَيْد

ومن أشهر كتابهم الوزير أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شُهَيْد حفيد سميه أحمد بن عبد الملك بن شهيد ذى الوزارتين ، وهو من أبلغ كُتَّاب الأندلس ، وله فى الوصف والمداعبات رسائل بديعة وتوفى سنة ٤٢٦ بقُرْطُبة .

---

(١) أمثلة من هذا النوع من الكتابة : فمن ذلك ما كتب به المنذر ابن الأمير عبد الرحمن الأوسط الى أبيه يستعطفه ، وكان قد نفاه الى مكان موحش لسوء خلقه " انى قد توحشت فى هذا الموضع توحشا ما عليه من مزيد ، وعدمت فيه من آنس اليه ، وأصبحت مسلوب العز فقير الأمر والنهى ، فان كان ذلك لذنب كبير ارتكبته وعلمه مولاى ولم أعلمه ، فانى صابر على تأديبه ، ضارع اليه فى عفوه وصفحه ،

وان أمير المؤمنين وفعله لكالدهر لا عار بما فعل الدهر

(٢) من ذلك ما كتبه ابن خفاجة من رسالة له فى وصف متنزه "فترددنا بتلك الأباطح نتهادى تهادى أغصانها ، ونتضاحك تضاحك أقحوانها ، وللنسيم ، أثناء ذلك المنظر الوسيم ، تراسل مشى ، على بساط وشى ، فاذا مر بغدير نسجه درعا ، وأحكمه صنعا ، وان عثر بجدول شطب منه نصلا ، وأخلصه صقلا " .

ابن زيدون

وذوالوزارتين أبو الوليد أحمد بن زيدون وزير آل جَهْوَر بقرطبة ثم آل عبَّاد بأشبيلية وكان شاعرا رقيقا وكاتبا بليغا ويشتهر برسالتين : هزلية وجدية وتوفى سنة ٤٦٣

الفتح بن خاقان

والفتح بن خاقان صاحب قلائد العقيان أحد البلغاء الأدباء المؤرخين فى عصر ملوك الطوائف والمرابطين .

التدوين والتصنيف

أو الثقافة العلمية والأدبية فى الأندلس

كان مبدأ تدوين العلوم بالمشرق أواخر عصر بنى أمية وصدر بنى العباس ، ولم يكن المغرب والأندلس وقتئذ فى حال من العافية والسلم تمكّنهما من مجاراته ، فلما وطد عبد الرحمن أركان ملكه بالأندلس ، ومهد طريق الحضارة والرخاء والأمن لأهلها ، هبوا يرحلون الى المشرق لأداء فريضة الحج والاقتباس من نور العلم ، ولم تزل رحلاتهم اليه برا وبحرا متتالية حتى نقلوا الى بلادهم أكثر ماصنف فى علوم اللسان والدين ، لأنهم كانوا أشد أهل الأرض حبا للعلم وتفانيا فى تحصيله وتوقيرا لأهله ، وساعدهم على ذلك أمراء بنى أميـة وخلفاؤهم فبذلوا الأموال العظيمة فى جمع الكتب ومكافأة العلماء والمصـنفين ، وأحلوهم عندهم فى المنزلة الرفيعة ، وسمعوا لقولهم وخضعوا لأمرهم ونهيهم ، وأخصهم الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحَكَم المستنصر ، وقد جمع الحكم هذا فى خزانة كتبه بقصر قرطبة مئات الألوف من الكتب .

وكذلك كان أكثر خلفاء بنى أمية وأعيان قرطبة ، ولم ينقض القرن الرابع حتى زخرت بحور العلم ، ونبغ ألوف العلماء ، وصنفت ألوف من الكتب الجليلة فى ديار الأندلس ، وحتى كادت تضارع المشرق بل فضلتـه فى بعض العلوم ، ولم يقصر ملوك الطوائف فى هذا المضمار ، فآزروا العلم وقربوا العلماء ، وكان من ملوكهم الأدباء والمؤلفون والمؤرخون .

وفى عصر المرابطين ركدت ريح العلم قليلا ، واضطُّهد بعض أصحاب الآراء والنحل المذهبية فى الفقه والكلام ، إلا أن الموحدين ترخصوا فى أمر مطاردة الفلسفة وعلومها ، فنبغ فيها أفاضل من الحكماء والأطباء الكيميائيين مثل ابن رشد والباجى وابن زُهْر .

ثم ضعفت النهضة العلمية واستمرت الحال كذلك مدة يتخللها بعض فسحات انتعاش ، حتى أباد الأسبان المسلمين من الأندلس وأحرقوا كتبهم ومَحَوْا آثارهم . وما سلِم من كتبهم الا ما كان قد نقل قبل الجلاء منها أو جهل العدو مكانه .

حال اللغة العربية فى العصر التركى

---

١ — عصر المماليك من سنة ٦٥٦—٩٢٣ هـ

سقوط بغداد

نشعر عند الكلام فى تاريخ الأدب العربى فى هذا العصر بكثير من الحزن والألم ، لما أصاب العرب فى خلافتهم ووَحْدتهم ولغتهم ، فقد كان زوال الخلافة سنة ٦٥٦ هـ نهاية لتاريخ مجيد حافل بالآداب والفنون ، وخاتمة لمدنية مزدهرة كانت فى القرون الوسطى مصدر هداية ونور للأمم العربية وغير العربية .

ففى سنة ٦١٦ هـ زحف جنكيز خان بجيشه متجها إلى الغرب فاكتسح خُراسان وفارس ، وأعمل السيف فى أهل كل بلد نزل به ، لا تأخذه رحمة ولا يعطِف قلبه لين ، حتى إذا غادر مملكة تركها قفرا يبابا .

وفى سنة ٦٥٤ هـ عبر حفيده هولاكو نهر جيحون زاحفا على بغداد ، فملك قلعة (ألَمُوت) من الاسماعيلية وذبح من فيها من الجنود .

وفى سنة ٦٥٥هـ حدث فى بغداد خلاف عنيف بين أهل السنة والشيعة ، أدّى إلى مايُشبه أن يكون حربا داخلية قتل فيها عدد من الشيعة ، وقد أثار ذلك غضب الوزير ابن العلقمى ، ودفعه إلى تشجيع التتار على غزو العراق والاستيلاء على بغداد ، فملكوها سنة ٦٥٦ هـ ، وقتلوا الخليفة المستعصم بالله ، وأعملوا السيف فى أهلها أربعة وثلاثين يوما ، فلم ينج من حدّه الا القليل ، وكان بين من قتل عدد جَمّ من العلماء ورجال الأدب .

انحياز الاداب العربية الى مصر (القاهرة)

مصير الممالك العربية

بدخول المغول بغداد دالت دولة العرب ، ولم يبق لهم من صور الملك غير دويلات كان ملوكها أشبه بالولاة منهم بالحكام المستقلين ، فقد أسس المغول ثم الفرس دولا اسلامية ، وكانت مصر والشام فى حكم المماليك حتى سنة ٩٢٣ هـ ، ثم صارتا الى العثمانيين ، ولم يبق فى يد العرب غير غِرْناطة التى وقعت فى يد الأسبانيين سنة ٨٩٧ هـ ، أما اليمن و بعض بلاد البربر فقد استولى عليها العثمانيون فى أواخر القرن العاشر الهجرى .

العلماء بعد سقوط بغداد

فى هذه الزعازع والأعاصير التى أصابت بغداد وما يجاورها ، وفى وسط هذا الاضطراب العنيف الذى أثاره الغزو والارهاب والحكم الجاهل ، وقف العلماء ورجال الأدب وقفة الحائر يتطلّعون إلى بغداد التى كانت مَثَابة لهم ، فوجدوا السيف مُصْلَتا والتدمير يعصف بكل شىء من آثار العربية ، التى كانت مَفْخَرة الشعوب جميعها ، ورأوا أن علمهم وأدبهم يُقْذَف به قذفا فى نهر دجلة ، فاتجهوا إلى مكان يُنْشِئون فيه دولة عربية للعلم والأدب ، فلم يجدوا غير مصر والشام .

المماليك

كانت مصر والشام فى حكم المماليك كما أسلفنا وهم قوم أشداء فيهم ميل شديد إلى الحروب والفتك والفروسيّة ، وقليل من المماليك البحْرية من كان يميل الى الترف ، أو تهفو نفسه إلى العبث واللهو ، وكان لكثير منهم تمسك بالدين ، يفهمونه بقدر ما تصوِّره لهم فِطْرتهم ، وتلوِّنه بيئتهم ونشأتهم ، وان شئت فقل انهم كانوا يمزجون الدين بالسياسة ، فقد يكون الدين مرة ذريعة لجذب قلوب الأمم إليهم ، وأكبر مظهر لذلك بناء الجوامع والمدارس والبيمارستانات والملاجئ ، وحبس المال الوفير على نواحى الخير ، وتقريب العلماء وتشجيعهم على نشر العلم بالدرس والتأليف ، وقد يكون الدين آنا وسيلة لشفاء ما طُبعت عليه نفوسهم من الميل الى اذكاء نار الحروب ، كوقائعهم مع الصليبيين والمَغول ، ألم يروا أنهم أصبحوا حُماة الخلافة الاسلامية وأنهم صاروا ملْجأ الأمم العربية المهزومة ؟ ألم يصُن الظاهر بيبرس خلافة بنى العباس ويتقبل ولاية الحكم من المستنصر بالله العباسى الذى فرّ من وجه التتار الى مصر ؟

هجرة العلماء الى القاهرة

نزل العلماء والأدباء القاهرة التى أخذت مكان بغداد ، وبها حينئذ عدد كبير من المدارس ومجالس العلم ، فوجدوا فيها حَرَما آمنا ، ولاقوا من عَطْف المماليك ماحبّب إليهم البقاء ، فانبسطت نفوسهم ، واطمأن بهم المُقام ، وأخذوا يكتبون ويؤلفون وينثُرون وينظمون .

وقد هاجر إلى القاهرة فى غضون هذا العهد عدد غير قليل من علماء الأندلس وأدبائها فارين من وجوه الاسبان ، الذين تغلبوا على العرب فى استرداد بلادهم .

ولو سلمت مصر والشام فى هذا العصر من بعض نوبات الظلم ، والأمراض والطواعين ، وسكنت فيها العواصف والثورات والحروب التى تكاد تسمع صليل سيوفها كلما قلبت كتابا فى تاريخ هذا العصر لتغير وجه الأدب ، ولكان للغة وآدابها شأن آخر ، فان الفنون لا تمو ولا تزدهر إلا فى جو ملؤه السكينة والسكون ، كالطائر الغَرِد لا يصدَح بين حفيف السهام .

موازنة بين هجرتين

واتجاه أهل العلم والأدب إلى القاهرة يشبه من بعض نواحيه هجرة علماء اليونان الى ايطاليا بعد سقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين سنة ٨٥٧ هجرية ، فانهم أحيوا نهضة العلوم ، وبعثوا فى أوربا جميعها حياة علمية جديدة بدراسة اليونانية وترجمة آثار فلاسفتها ، وقد غيرت هجرتهم هذه كثيرا من وجوه الحياة الأوربية ، ودفعت الناس الى التخلص من أوزار القرون الوسطى ، والتفكير فى إصلاح معيشتهم وطرائق علومهم ومذاهب دينهم .

لم تترك هجرة العلماء إلى القاهرة كل هذا الأثر العظيم ، فانها وإن بعثت فى العلم والأدب حياة فى الديار المصرية والشام لم تمتد آثارها إلى غيرهما من بلاد المشرق ، ولم تغير وجوه الحياة الاجتماعية ، لأنها كانت دينية أدبيـة علمية ليس غير ، حتى إن مقدمة ابن خلدون نزيل مصر أيام السلطان برقوق ، التى أودعها كثيرا من الآراء الاجتماعية وسياسـة الممالك ووسائل إنهاض الشعوب واصلاح طرائق التعليم ، لم تنفُذ إلى نفس غيره من علماء عصره ، ولم يظهر لها أثر فى الحياة المصرية ، ذلك لأن العلمـاء كانو جامدين متمسكين بالقـديم ، ولانهم لم يرزقوا حظا من الشجاعة يحفِزهم الى زعامة الأمة والدعوة الى الاصلاح ، ولأن الشعب كان جاهلا خائرا لايشعر بعزة ولا بقوة .

مظاهر الأدب فى هذا العصر

النثر الفنى

أسباب ضعف النثر

اذا نظرنا إلى مظاهر الأدب رأينا أن النثر الفنى كان ضعيفا ، لشَغَف الكُتّاب بتزيين الألفاظ وتجميلها بالسجع وغيره من ضروب التحلية ، وانصرافهم عن العناية بالمعانى والأفكار واختيار الأساليب الملائمة لها .

واذا قرأت رسالة لكاتب فى هذا العصر ، رأيت أنها ، فى الكثير الغالب ، لا تشتمل على معنى باهر ، أوفكر بعيد المَدَى ، لأن صاحبها كان يفكر فى الألفاظ المزخرفة أولا ، ليؤلف منها المعانى ثانيا ،وفى هذا مناهَضَة لأصل الفطرة، لذلك جاء الكلام متكلّفًا خائرًا .

وهذا الضعف لم يكن جديدا فى هــذا العصر ، بل إنه حادث قبل سـقوط الدولة العباسية بزمن غـير يسير ، غير أن الكُتّاب هُنا نَحَوا مَنْحَى القاضى الفاضل فى طريقته،وهى التزام السجع والتورية ، وغَلَوا فى ذلك غُلُوًّا يأباه الذوق ،و ينكره الطبع السليم .

أشهر الكتّاب

وأشهر كتّاب الرسائل فى هذا العصر :

(١) القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر،ولد سنة ٦٢٠ وتوفى سنة ٦٩٢ وهو كاتب السر للملك الأشرف خليل ، وكان كاتبا شاعرا .

ومن انشائه ما كتبه عن لسان الأشرف خليل الى صاحب اليمـن بالبشرى بفتح طرابُلُس :

"أعزّ اللهُ تعالى نصْرة المَقَام، وأوفد عليه كلَّ بُشْرى أحسنَ من أختها،وكلَّ تهنئة لا يُجَلِّيها إلّا هُوَ لوقتها[١] ،وكل مُبْهِجةٍ يعجز البَنَان والبيان عن ثَبْتِها ونَعْتِها[٢] ، وتَتَبَلَّج فتَوَدُّ الدُّرَرُ والدرارى لو رَقِيت الى تَرَاقيها وسمت الى سَمْتها ، [٣] وصَحِبه

---

(١) أى لا يظهرها فى وقتها الا هو .

(٢) البنان أطراف الأصابع والمعنى أن القلم واللسان يعجزان عن أثبات اخباره السارة ووصفها.

(٣) تتبلج تضىء ،والدرر اللآلىء،والدرارى النجوم، والتراقى جمع ترقوة وهى العظم فى أعلى الصدر وعليها تكون القـلائد والعقود، والسمت هنا الارتفاع والمعنى أن موجبات السرور تضىء فتتمنى اللآلىء لو ارتفعت الى نحرها لتكون عقودا وتود النجوم لو وصلت فى الرفعة الى ما وصلت اليه .

منها بكلِ هاتفةٍ أسجعَ من هواتِف الحمائم ، [١] وبكل عارِفةٍ أسرعَ من عوارف الزهرِ عند عزائم النّسائم[٢]" .

(٢) شهاب الدين محمود الحلبي توفى سنة ٧١٩ وهو كاتب سِر الملك الناصر، ومن نماذج إنشائه ما كتبه فى وصف موقِعة :

"أصدَرناها والسيوف قد أنِفَت من الغمود ، ونفرت من قُرُبها [٣] والأسنةُ قد ظمِئَت إلى موارد القلوب، وتشوقت الى الارتواء من قُلُبها [٤] والسيوفُ قد أضرمت الحُمِيَّةُ للدين نارَ غضبِها [٥] ، وعداها حرُّ الإشفاقِ على ثغُور المسلمين عمّا عَرَفَتْ من بَرْدِ الثغورِ وطِيبِ شَنَبِها[٦]" .

(٣) شهاب الدين بن فضل الله العُمَرى ،ولد بدمَشْق سنة ٧٠٠ وتوفى سنة ٧٥٥ وهو كاتب السر للملك الصالح من آل قلاوون .

الشعر

أسباب ضعف الشعر

وقد بدت على الشعر أيضا آثار التقهقر ، لأنه لم يرسل مع الطبع والسليقة كما كان فى العصر العباسى الأول ، ويظهر أن لضعف الملكة الشعرية والخيال والابتكار والتوليد شأنا كبيرا فى هذا ، فلما أحس الشعراء هذا الضعف لجئوا إلى

---

(١) أى ولازمه من موجبات السرور كل مغردة ألذ نغما من الحمائم المغردة .

(٢) العارفة المعروف والمكرمة وعوارف الزهر هنا روائحه الطيبة .

(٣) الضمير فى أصدرناها يعود على الجيوش والقرب جمع قراب وهو غمد السيف وجفنه يعنى حاربنا بعد مدة طويلة لم نحارب فيها .

(٤) القلب جمع قليب وهو البئر .

(٥) الأنفة الغيرة .

(٦) الثغور الأولى مواضع المخافة عند حدود البلدان ، والثغور الثانية جمع ثغر وهو الفم هنا ، والشنب رقة الأسنان وعذوبتها . يقول إن شدة الخوف على ثغور المسلمين صرفت رجال هذه الجيوش عن الميل الى النعيم والتمتع ببرد الأفواه وعذوبتها .

العناية بالألفاظ، وبذلوا جُهْدَ استطاعتهم فى أن تكون برَّاقة أنيقة ، ونحن لا ننكر أنّ فى هذا شيئا من البراعة ولكن يجب أن يكون وراء هذه البراعة شىء من حكمة المتنبي ، أو فلسفة المعرى ، أو رقة البحترى ، وإلا كانت قولا هراء .

وكان الشعر على الرغم مما أصابه أرقى من النثر كثيرا ، لأنّ تقييده بالوزن والقافية لم يجعل فيه متسعا لتراكم المحسنات اللفظية وتزاحمها .

وجَهْلُ أكثر السلاطين بفنون الأدب وذوق العربية لم يشجع الشعراء ، ولم يدفعهم الى الاجادة ، فلم يكن للملوك فى هذا العصر شعراء أثيرون عندهم ، الا فى "حماة" حيث بقيت هذه العادة ردْحا من الزمن، لهذا لم يكن الشعر صناعة وانما كان حلية الأديب يدفع اليه الميل الى اظهار البراعة وتدوين الحوادث .

ومن العجيب أن معظم العلماء والفقهاء والكتَّاب كانوا يتصَدَّون لقول الشعر من غير هيبة أو خشية . وهذا أكبر دليل على انحطاط الشعر، وما وصل اليه من سوء المصير ، ومن أمثال ذلك قول بعضهم فى السلطان برقوق :

سلطان مصر دام فضل علَائه ... قد عمّنا بالفضل والاحسان
لم أنس يوم السبت حُسْنَ مُهِمِّه ... قد كان يوما جاء بالسلطان

وقد زاحم الزجلُ العامى الشعر الفصيح فى هذه الأيام ومالت اليه آذان الملوك لقصور الافهام عن ادراك العربية الصحيحة خصوصا من عهد آل قلاوون[1] .

ولكننا مع كل هذا نجد بين شعراء هذا العصر فريقا تجلى فى شعره الرقة وحسن الصياغة .

ومن أشهر هؤلاء :

---

(١) كقول بعض الزجالة يرثى فيل الملك الناصر وقد انخسفت به قنطرة على الخليج الناصرى .

تعا اسمعوا بالله ياناس ... اللى جره ... الفيل وقع يوم الاثنين ... فى القنطرة
لما أفلسوا غلمان الفيل ... راموا الجزاف ... خدوه وراحوا صوب بولاق ... يجبوا المطاف
رأوا شويخ من أهل الله ... مافيه خلاف ... جو ياخدوا شاشوا منه ... بالزنطرة
دعا على الفيل اتقنطر فى القنطرة

(١) صفى الدين الحلى وشعره متفاوت فى الجودة ، فهو مرة يسمو الى مافوق أفق عصره ، ومرة ينزل و يضعف ، وُلد سنة ٦٧٧ وتُوُفِّىَ سنة ٧٥٠ ، وكان شاعر الدولة الأُرْتُقِيَّة فى "ماردين" ورحل الى القاهرة زمن السلطان الناصر سنة ٧٢٦ ومدحه بقصيدة تعدّ من جيد شعره منها :

تُرْجَى مواهبُه ويُرهَبُ بَطْشُهُ مثْلَ الزمانِ مُسالماً ومُحارِبا
فاذا سطا ملأ القلوب مهابة وإذا سخا ملأ الزمان مواهبا
كالغَيْثِ يبعَثُ من عطاه وَابلا سَبْطًا ويُرسِلُ من سُطَاه حاصبا[١]

(٢) جمال الدين بن نباتة المصرى . وهو حامل لواء الشعر فى عصره ، تظهر فى شعره المصرية الصادقة من حيث الرقة والسهولة وحسن ايراد النكتة المستملحة . وُلد بمصر سنة ٦٨٦ وتُوُفِّىَ بها سنة ٧٦٨ ومن محاسن توورياته :

بروحى جيرة أبقـوا دموعى وقد رحلوا بقلبى واصطبارى
كأنا للمجاورةِ اقتسـمنـا فقلبى جارهم والدمع جارى[٢]

(٣) الشاب الظريف واسمه محمد بن سليمان ولِد بمصر سنة ٦٦١ ومات سنة ٦٨٨ . ويشتهر شعره بالرقة وحسن الانسجام كقوله .

بحق هـذى الأعين السـاحره وحسنِ هذى الوجنة الزاهره
خفْ فى الهوى إثمى ياقاتلى فاليـوم دنيـا وغـدا آخره
قـلبى مِصر لك ما بـاله قدذاب من أخلاقك القاهره[٣]

---

(١) العطا النوال والعطية ، والوابل المطر الكثير و يقال فلان سبط اليدين أى سخى والسطا جمع سطوة والحاصب الريح الشديدة التى تثير الحصى .

(٢) يعنى أن أحبابه رحلوا وأخذوا قلبه معهـم وتركوا له الحزن والدموع فكأنه هو وأحبابه اقتسموا القلب والدموع فأخذوا قلبه ليكون جارا لهم وتركوا له الدمع ، والتورية ظاهرة فى قوله "والدمع جارى" فانه قد يكون من الجريان وقد يكون من الجوار .

(٣) يعنى أن قلبى مقر لك فلماذا يذوب من أخلاقك الشديدة القاهرة وفى الاتيان بكلمة القاهرة بعد كلمة مصر جمال بديعى .

(٤) شهاب الدين محمد بن يوسف التلعفرى ، ولد بالموصل سنة ٥٩٣ وتوفى سنة ٦٧٥ ومن شعره :

وإذا الثَّنِيَّـــةُ أشرقَتْ وشَمِمتَ منْ أَرْجَائهـا أَرَجًا كَنَشْرِ عبـيرِ[1]

سَلْ هَضْبها المنصوبَ أين حَدِيثُه الــمرفوعُ عن ذَيْل الصبا المجرورِ[2]

(٥) محمد بن سـعيد الصنهاجى الشهير بالبوصيرى ، توفى سنة ٦٩٥ واشتهر بمدائحه النبوية ، وهى البردة والهمزية ، وهما من جيد شعره ورصينه ، أما بقية شعره فليست بذاك وأول الهمزية هو :

كيفَ تَرْقى رُقيّـــك الأنبيـاءُ ياسمـاءً ما طـاولتهـا سمـاءُ

لم يُدَانُوكَ فى عُـــلاكَ وقـــدْ حَالَ سَنًا منْك دُونَهم وسَـــناءُ[3]

إنمـا مَثّلوا صِـــفَاتك للنَّـاسِ كَمَا مَثَّـــلَ النجـــومَ المـاءُ[4]

أنتَ مِصْبَاحُ كلِّ ضَـــوْءٍ فمـا تَصْدُرُ إلاَّ عَن ضَوْئكَ الأَضْوَاءُ

التأليف والمؤلفون

أسباب نهوض التأليف

وأعظم مظهر من مظاهر نهوض اللغة وآدابها فى هذا العصر كثرة ما ألف فيه من كتب فى مختلف الفنون والعـلوم ، ولعل من أسباب ذلك كثرة المـدارس وازدحام القاهرة وقوص والاسكندرية وغيرها بالطلاب وما كان يميل اليه بعض سلاطين المماليك من اقتناء الكتب النادرة ، وانشاء الخزانات الخاصـة الجامعة لأنواع شتى من المؤلفات ، حتى إن بعض الكتب كان يؤلف خاصة باسم السلطان ليوضع فى خزانته .

---

(١) الثنية الجبل أشرقت بمعنى ظهرت والأرجاء جمع رجا وهو الناحية ، والأرج ريح الطيب والنشر الرائحة الطيبة والعبير خليط من أنواع الطيب .

(٢) الهضبة الجبل والصبا ريح تهب من الشرق وفى الجمع بين المنصوب والمرفوع والمجرور جمال بديعى .

(٣) السنا النور والسناء الرفعة .

(٤) يقول ان الأنبياء كانت صفاتهم تمثل صفاتك كما تمثل الماء النجوم حين تنعكس أضواؤها فوقه .

وأول ما يظهر لك فى هـذه الكتب اختفاء الابتكار ، وانها ، اذا استثنينا بعضها كمقدمة ابن خلدون وخطط المقريزى وتاريخ ابن خلكان ، ليست الا جمعا من أشتات الكتب وتقليدا لا أثر للاجتهاد فيه .

وأشهر مؤلفى هذا العصر .

(ا) فى علوم اللغة

(١) محمد بن عبد الله بن مالك الطائى ، ولد سنة ٦٠٠ وتعلم بدمَشْق وكان إماما من أئمة النحو واللغة وأشهر ما اشتهر به "تسهيل الفوائد" فى النحو، والألفية والكافية ولامية الأفعال . والثلاثة الأخيرة منظومات مطولة فى النحو والصرف ، توفى سنة ٦٧٢ .

(٢) جمـال الدين بن مُكَرَّم المصرى ، ويعرف بابن منظور وله مؤلفات عدة أشهرها "لسان العرب" وهو معجم لغوى فى عشرين جزءا ، مرتب على حسب أواخر الكلم ، ويعد دائرة معارف فى اللغة والأدب والتفسير ، توفى سنة ٧١١ .

(٣) جمـال الدين الشهير بابن هشام المصرى ، وهو من كبار علماء العربية ، وأشهر كتبه "مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب" وهو دراسة واسعة فى النحو ومعانى الحروف تدل على نبوغ وعبقرية ، توفى سنة ٧٦١ .

(٤) جلال الدين السيوطى ، وهو أكثر علماء هذا العصر آثارا ولد سنة ٨٤٩ ، ونبغ فى علوم شتى ، وأشهر كتبه "المُزْهِر" وهو كتاب يتضمن مباحث مستفيضة فى فلسفة اللغة ، وكتاب "الأشباه والنظائر" فى النحو توفى سنة ٩١١ .

(ب) التـاريخ

وأشهر من ألف فيه :

(١) شمس الدين أحمد بن خِلِّكان ، ولد سنة ٦٠٨ فى إِرْبِل ، وكان قاضيا مدرسا ، وقد اشـتهر بكتابه وَفَيَات الأعيـان وهو معْجَم تاريخى يدل على ابتكار وتحقيق وضبط وروية ، وَيُعَدّ مرجعا فى التاريخ واللغة والأدب توفى سنة ٦٨١

(٢) ابن خلدون ، ولد فى تونس سنة ٧٣٢ ، وتنقل بين المغرب والأندلس كاتبا ومشيرا لأمرائهما ، ثم رحل إلى مصر واتصل ببرقوق فولاه قضاء المالكية ومات بها سنة ٨٠٨ .

وأعظم ما اشتهر به مقدمةُ تاريخه التى تُعَدّ مَفْخَرةً فى عالم التأليف العربى ، لأنها أول بحث جامع فى علوم الاجتماع والسياسة وفلسفة التاريخ ، وقد بحث فيها فى أحوال العمران وأسبابه وفى منشأ الدول وأسباب رقيها وانحطاطها ، ثم فى آلات الكسب من تجارة وصناعة وزراعة وما يعتريها من تقدم أو تدهور ، ثم فى العلوم وأنواعها ، والكتب ومعايبها ، وطرائق التعليم وكيف تكون ، كل ذلك فى أسلوب سهل شائق ، واستنباط منطق صحيح .

(٣) تقى الدين المقريزى ولد بالقاهرة سنة ٧٦٦ ، واشتهر بسعة اطلاعه فى التاريخ ، وألف فيه مؤلفات كثيرة ، أشهرها المواعظ والاعتبار بذكر الخِطَط والآثار ، وقد جعل فيه وصف الخطط والمبانى والبلاد المصريه ذريعة إلى الافاضة فى تاريخها وتاريخ مؤسسيها وماتوالى عليها من حوادث ، وله فى أثناء ذلك بحوث اجتماعية تدل على تفكير بعيد المَدَى ، وهذا الكتاب هو عماد الباحثين فى الأحوال السياسية والاجتماعية لذلك العصر فى مصر توفى سنة ٨٤٥ .

(ج) الكتب الجامعة

ومن أشهر مؤلفيها :

(١) شهاب الدين النُّوَيْرى ، كان من رجال الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وأشهر كتبه نهاية الأرب فى فنون الأدب ، وهو كتاب ضخم يقع فى أكثر من ثلاثين مجلدا ، به مباحث واسعة فى الفلك وتقويم البلدان والتاريخ الطبيعى والتاريخ واللغة والأدب ، توفى سنة ٧٣٢ .

(٢) شهاب الدين بن فضل الله العُمَرى ، ولد بدمَشْق سنة ٧٠٠ وكان إماما فى الأدب والتاريخ والانشاء ، وأشهر كتبه مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، وهو كتاب واسع المباحث فى الأدب والتاريخ وتقويم البُلدان والتاريخ الطبيعى ، توفى سنة ٧٥٥ .

(٣) شهاب الدين احمد القَلْقَشَنْدِى المصرى ، تولَّى كتابة الانشاء سنة ٧٩١ ونبغ فيها ، وأشهر كتبه صبح الأعشى فى صناعة الانشاء .

وهو كتاب واسع فى صناعة الانشاء وتقويم البلدان ، توفى سنة ٨٢١ .

الدرس والمدارس

جاء فى خطط المقريزى « أن أول ما عُلِم من إقامة درس من قِبَل السلطان بمعلوم جار (بأجر) لطائفة من الناس بديار مصر فى خلافة العزيز بالله بن المعز الفاطمى ، فَعُمِلَ ذلك فى الأزهر ، ثم عمل فى دار الوزير يعقوب بن كلس مجلسٌ يحضُره الفقهاء ، ثم أيضا مجلس فى جامع عمرو بن العاص ، ثم بنَى الحاكم بأمر الله دار العلم بالقاهرة ، وعند زوال الفاطميين على يد السلطان صلاح الدين ، أبطَلَ مذاهب الشيعة وأقام بها مذهبَ الشافعىّ ومالكٍ ، وبنى لكل طائفة مدرسة ، وتوالى بعد ذلك بناءُ المدارس » .

كثرة المدارس

وربما كان من أكبر مُمَيِّزات هذا العصر ، كثرة المدارس والمدرسين والطلاب ، ولم يكن يُدَّخر جهد أو مال فى إنشاء هذه المدارس فخمةً ضخمةً بديعة الصنُع رائعةَ النقوش والزُّخْرُف ، تشهد للصانع المصرى بالنبوغ والسبق فى فن العمارة وهندسة البناء ، وقد تنافس الملوك والأمراء والأميرات وسَرَاة مصر والشام فى إنشاء هذه المدارس ، يتخذونها وسيلة للتقرب إلى الله ونشر علوم الدين أولا ، ثم علوم العربية وبعض العلوم الفلسفية .

وكان كثيرون من الطلبة من آفاق الاسلام يختلفون إلى هـذه المدارس ، وتجرى عليهم النفقات مما يُرْصَد عليها من خيرات ، وكان لكثير منهم غرف يسكنونها ، وكان بكثير منها خزانات تجمع عددا كبيرا من الكتب فى مختلف العلوم .

أشهر المدارس

(١) وأشهر هـذه المدارس المدرسة الفاضِلِيَّة التى أنشأها القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البَيْسَانى ، كان بها خزانةٌ بها نحو مائة ألف مجلد .

(٢) المدرسـة الصاحبيَّة البهائية أنشأها الوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا سنة ٦٥٤ بالقرب من الجامع العتيق ، وكانت من أجلّ مدارس الدنيا .

(٣) المدرسة الظاهرية بناها الظاهر بيبرس سنة ٦٦٢ بين القصرين ، وكان بها خزانة كتب تشتمل على أمهات العلوم ، وعند تمامها اجتمع بها أهل العلم ، وحضر القرَّاءُ وجلس أهل الدروس ، كل طائفة فى إيوان منها ، وقرّروا كلهم الدروسَ وتناظروا فى علومهم ، ثم مدت الأسمطة فأكلوا ، وقام الأديب أبو الحسين الجزار فأنشد :

ألا هكذا يَبْنِى المدارسَ من بَنَى ... ومن يَتَغَالَى فى الثوابِ وفى الثنا
لقد ظهرتْ للظاهر المَلْكِ هِمّةٌ ... بها اليومَ فى الدارين قد بَلَغَ المُنَى
تجمَّع فيها كلُّ حُسْنٍ مُفرَّقٍ ... فَراقَتْ قُلوباً للأنام وأَعْيُنَا [١]
ومُذْ جَاوَرَتْ قبرَالشهيدِ فنفْسُهُ النـ ... ـفيسةُ مِنْهـا فى سرورٍ وفى هَنَا
وما هِىَ إلَّا جَنَّةُ الخلد أُزْلِفَتْ ... لَهُ فى غَدٍ فاختارَ تعجيلها هُنا

أشهر المدرسين

وأشهر المدرسين فى هـذا العصر ، أبو محمد الشاطبى . وأثير الدين أبو حَيَّان النحوى الغرناطى توفى سنة ٧٤٥ وعلاء الدين بن الأثير، وبهاء الدين بن عَقِيل، وتقى الدين بن دقيق العيد .

---

(١) الضمير فى فيها يعود على المدرسة المفهومة من السياق .

العصر العثمانى

من ٩٢٣ هـ إلى ١٢١٣ هـ

مظاهر ضعف المماليك

دبّ الهرم فى جسم دولة المماليك ، وأصابها الضعف الذى يتقدم فناء الدول ، وأظهر ما يبدو ذلك جليًّا من وفاة الأشرف قايتباى وبدء ولاية الناصر محمد الثانى ، فزالت هَيْبَة الدولة واستهان الجنودُ بالملوك وتفرقوا بينهم شيعا وأحزابا ، وكثرت الغاراتُ على حدود الشام ، وازدادت ثورات العرب على الحكام والأهلين ، وخلت خزائن الدولة من المال ، لكثرة ما كان ينفق على صد غارات الفاتحين ، وقمع صولة الثائرين ، حتى قيل إن ما أنفقه الأشرف قايتباى على الغَزَوَات بلغ سبعة ملايين وخمسة وستين ألف دينار .

وكان من أسباب ضعف دولة المماليك كشف البرتقاليين طريق رأس الرجاء الصالح سنة ٩٠٣ هـ ، فى أيام الناصر محمد الثانى ، لأن التجارة الهندية الذاهبة إلى أوربا سلكت هذه الطريق بعد أن كانت تضطر إلى اجتياز البحر الأحمر ونقل البضائع من السويس إلى الاسكندرية ، وكان المماليك يفرضون على هذه المتاجر ضرائب عظيمة ينفقونها فى غزواتهم ومظاهر عظمتهم ، فلما انقطع عنهم هذا المدد انصرفوا إلى الأمة المسكينة يرهقونها بألوان المظالم ، وضروب شتى من الضرائب .

الفتح العثمانى

وبينما هم على تلك الحال من الاضطراب والافلاس ، زحف السلطان سليم عليهم وغزاهم فى عُقْر دارهم ، واستولى على مصر سنة ٩٢٣ هـ .

وكان سليم مدمرا هدّاما ، وكان حكم العثمانيين حكم إرهاب وارتباك وإرهاق ، فمن فتك لا يكاد يستقر فيه السيف فى قِرابه إلى مصادرة للأملاك والأموال ، إلى ضرائب فوق الجهد والطاقة ، إلى خوف شامل ، وإلى ثورات فى كل مكان .

أغار سليم على خزائن دور العلم وبدائع آثار المماليك فنقل كثيراً منها إلى القسطنطينية ، وأسر طائفة كبيرة من الأدباء والعلماء والصناع وأرسل بهم اليها ، وامتدّت يده إلى مال الأوقاف التى حُبِست على معاهد العلم ومقاصد الخير فانتهبه .

أتعجبُ إذًا أَنْ انحطت مصر وزال جمالها ، ودالت دولتها ؟ لقد أصبحت ولاية عثمانية بعد ان كانت مقر الملك وموطن الخلافة ، وكسدت فيها سوق العلم والأدب ، بعد أن كانت كعبة الأدباء ومباءة العلماء ، فنكست الأقلام وجف المداد ، ذلك لأن العثمانيين لم يميلوا إلى تشجيع الأدب والتأليف ، فكانت اللغة التركية هى اللغة الرسمية ، وكانت لغة التخاطب خليطا بين العامية والتركية ، وقُصَارَى القول ان مصر أُصيبت فى هـذا العصر بتراجع فى كل شيء وتدهور فى كل شيء وانهزمت فيها العربية أمام هذا الفساد الاجتماعى ، والعنف السياسى ، والتقهقر الأدبى .

النثر الفنى

ضعف النثر

بلغ النثر الفنى فى أكثر حالاته أقصى ركاكته ، وعجز كثير من الكُتَّاب حتى عن مجاراة سابقيهم فيما كنا نَنْعاه عليهـم من العناية بالسجع والمحاسن اللفظية ، وفسدت اللغة فى عبارات المؤلفين أسلوبًا وإعرابًا ، ويكفيك أن تطَّلِـع على بعض الكتب التى أُلّفت فى هذا العهد كتاريخ ابن إياس لتعرف أن شيئًا من ذلك غير مبالغ فيه ، ومن خير نماذج النثر فى هذا العصر ما كتبه الشهاب الخفاجى فى مقدمة كتابه ريحانة الألباء .

"وكنتُ لما ذبُل عيشى النَّضْرُ ولُيِّتُ سياحة الآفاقِ[1] فصرتُ خليفةَ الخِضْر[2] تهاداني التنائف،[3] وقذفتنى الأمانىُّ فى لَهَواتِ[4] المخاوف ، كأنى قذاة[5]

(١) وليت سياحة الآفاق، أى قمت بالسفر إلى بلاد شتى .

(٢) يقال إن الخضر متنقل دائما من قطر إلى قطر . (٣) الفلوات .

(٤) جمع لهاة وهى قطعة من اللحم فى أقصى سقف الفم والمقصود هنا بها الحلق .

(٥) القذاة شيء يسقط فى العين .

بأجفان الدهر ، أو سَقَاة (١) بوجه نهر ، أو كرة لاعب أو سهم محارب ، طوراً أشقُّ قلبَ الشرق كأنى أفتّشُ على الفجر ، وتارةً أُمزِّق كيسَ الغَرْبِ حتى كأنى أريد أن أُخْرِجَ منه دينارَ البدر" .

الشعر

ضعف الشعر

ولم ينج الشعر من الكارثة ، فتناول الفساد كثيراً من نواحيه لا يشذ عن ذلك إلا القليل النادر .

ومن أشهر شعراء هذا العصر :

(١) ابن النحاس الحلبى يمتاز شعره بالانسجام واللطف وخلوه من التكلف وتعمد الصناعة . مات سنة ١٠٥٢ .

ومن جيد شعره :

طَمْئِن فؤادكَ أىُّ حُـــرٍّ لم يُرَعْ بالخَطْبِ قلبُه
وَدَعِ الملامَ فداءُ مَنْ عالَجْتَ فى التسليم طِبُّه
لا تُكْثِرَنْ "هَلا فعلـــتَ" عليه فالفعّالُ ربُّه
المرءُ يَصْعُبُ جُهْدَه ويَلينُ بالمقدور صَعْبُه
لا تَتَّهِمْنى فالمـــؤا خَذُ فى الزمان النذْل نَدبُه
وأبيكَ مِنْ زَمنِ الترعـــرُعِ لَمْ يَزَلْ دَأْبِى ودَأْبُه
ومن العجيبِ لدى اللئا مِ عطاؤه ولدىّ سَلْبُه
أنا لا أُبالى انْ رُميـتُ وسبَّ عِرضِى مَنْ أَسُبُّه
السيفُ يُرمَى بالفُـلو لِ إذا قسا فى الصلدِ ضَرْبُه
والعينُ يُدْميها الذُّبا بُ ويُعجِزُ الآسادَ دَبُّه
والتِّبْرُ يَعلوه الـترا بُ ولا يضرُّ التبرَ تُربُه
وأبيكَ ما نُـكِبَ اللبـيبُ وفكرُه باقٍ ولُبُّه

---

(١) شوكة النبات .

(٢) عبد الله بن شرف الدين الشبراوى المصرى ، كان من أساتذة الأزهر وله ديوان شعر أغلبه فى مدح النبي وآله وشعره سهل وله غزل رقيق يُتَغَنَّى به يدل على ذوق سليم وخفة روح توفى سنة ١١٧٢

فمن مدائحه فى أهل البيت قوله :

قال لى قائلٌ : رأيتكَ تهوَى آل طَـه ودائماً تَرْتجيهم
كانَ حَقًّا عليكَ تستغرِقُ العُمْـرَ مَديحاً فيهم وفيمن يَلِيهم ؟
قلتُ ماذا أقول والكونُ طرًّا يستَمِدُّ الكمالَ منْ أيديهمْ ؟
أىُّ مَعْنًى للمدح مِنِّى وَقَدْ جَا ءَ الكتابُ العزيزُ بالمدح فيهم ؟
أنا لا أستطيعُ أمدحُ قوماً كان جبريلُ خادماً لأبيهم

التأليف والمؤلفون

حال التأليف

نزل التأليف من مرتبته كثيراً وساء ترتيبه وتبويبه ، وأصبح تطويلا لموجز ، واختصاراً لمطوَّل ، وخبَتْ فيه شُعلة التفكير والنبوغ التى كانت تلمع وتختفى فى كتب عصر المماليك .

ومن أشهر المؤلفين فى هذا العصر :

(١) شهاب الدين الخفاجى المصرى ، كان من أعلام هذا العصر فى اللغة والأدب ، وأشهر كتبه "شفاء الغليل بما فى لغة العرب من الدخيل" جمع فيه طائفة من الألفاظ الدخيلة والمعربة ، وضمنه مباحث مفيدة ، توفى سنة ١٠٦٩

(٢) عبد القادر البغدادى ، نشأ ببغداد وتردد على القاهرة ، وأشهر كتبه "خزانة الأدب ولُبُّ لُبَاب لسان العرب" ، شرح فيها شواهد شرح الكافية ، واستطرد فى الأدب واللغة وتاريخ العرب ، وهذا الكتاب فى اتساع مباحثه واستقصائها جدير بأن يوضع فى مرتبة الكتب التى ألفت فى عصور ازدهار التأليف توفى سنة ١٠٩٣

(٣) السيد مرتضى الزبيدى، ولد سنة ١١٤٥ ونشأ باليمن ثم حضر إلى مصر واتصل بأحد أمرائها ، وخير تآليفه "تاج العروس فى شرح جواهر القاموس" توفى سنة ١٢٠٥

المدارس

تقهقر التعليم

وقد أخذ ظل المدارس ودور العلم يتقلص فهجرها كثير من العلماء والطلاب لانتهاء الأوقاف المحبوسة عليهم ، ولانصراف الدولة جملة عن الاكتراث بالعلم والتعليم ، ولولا أن حفظ الأزهر فى هذا الطور القاتم بقية من العلم ودراسته لانقطع اتصالنا العلمى بهذا العصر جملة واحدة .

النهضة الحديثة

من الحملة الفرنسية إلى الآن

اتصال مصر بأوربا

كانت مصر فى هذا العهد فى شبه انقطاع تام عن الغرب ، فلا يختلف اليه من أبنائها طلاب علم ولا تجار ولا رُوّاد للنزهة ولا لغير ذلك من أسباب السياحات[١] أما مصر نفسها فعلى الرغم من أنه كانت فيها طوائف شتى من الامم الغربية ممن كانوا يطلبونها لتجارة أو يوفَدون اليها من بعض دُوَل الغرب ممثِّلين (قناصل) أو يهبطونها باحثين فى آثارها وعادات أهلها ومعيشتهم فلم يكن اتصال هؤلاء بأهليها الا بالقدر الذى تقتضيه حاجاتُهم . وهذا القدر لا يتسع لادراك حضارتهم وما بلغوا من علوم وما حذَقوا من فنون .

(١) فاذا كان قد سافر اليها أفراد من المصريين مثل ابراهيم بك الكبير الذى أخذه الانجليز وأسكنوه بلادهم نحو خمس سنين ، فان ذلك القدر لم يكن من شأنه أن يعقد أى صلة بين مصر والغرب .

والتعليم العالى فى ذلك الوقت كاد يكون محصورًا فى الأزهر ، تُدرس فيه علومُ الدين من الفقه والأصول والتفسير والحديث وعلوم العربية من النحو والصرف والوضع والاشتقاق والمعانى والبيان والبديع وتدرس فيه كذلك علوم النظر من التوحيد والمنطق وآداب البحث والمناظرة والفلسفة القديمة . وكان هناك افذاذ من العلماء يُعَلِّمون الحساب والهيئة ، وأمشاجا من بعض العلوم الأخرى .

على أن التعليم فى الأزهر وخاصة تعليم العربية ، كان قد استحال إلى ضرب من الفلسفة اللفظية ، واستغرقت المناقشات الجدلية التى شُحنت بها الشروح والحواشى والتعليقات القدر الأعظم من جُهد الأساتذة والطلاب معاً . أما لُباب العلم وجوهره وطَلبُ الغاية المقسومة له فكان لها من التعليم أصغر الحظوظ .

ومهما يكن من شىء فان فضل الأزهر لايمكن أن يُجحد على الزمان، فى حفظ علوم الدين والعربية فى تلك الحقبة الطويلة التى امتُحنت فيها مصر بالفقر والجهل وسائر ألوان الفساد . ومما لا ينسى للأزهر أيضًا أن محمد على حين اعتزم الاصلاح لم يرخيرًا من أن يتخيَّر من بين طلابه من يدرسون العلوم الحديثة فى مصر ثم فى أوربا . فعادوا وكانوا أئمة مصلحين .

الحملة الفرنسية

وفى سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨م) أقبل نابليون بونابرت فى أسطول بحرى مُعَد بجميع أسباب القتال فى ذلك العهد ففتح الاسكندرية عَنوة وتم له ذلك من غير كبير عناء . وبعد أن اطمأن فيها بجيشه قليلا جعل يضرب فى أرض مصر غازيًا حتى بلغ بلاد الجيزة . وبعد موقعة لم يثبُت فيها المماليك طويلا اجتاز بجيشه النيل فاحتل القاهرة قاعدة البلاد .

ولم يكن عجيبًا أن يستولى "بونابرت" على مصر بمثل هذه السهولة وقد تهدم بنيانها وتصدعت أركانها بعسف الولاة العثمانيين وظلمهم ، وعبث المماليك وسوء حكمهم ، حتى لم يكن لهم من وسائل هذا الحكم الا موالاة الأذى على الأهلين وتلوين العذاب لهم ، والافتنان فى استخراج الأموال بمختلف الذرائع .

تَخيّم الجهل على البلاد وشاعت الفوضى ، وألح الفقر على الناس ، وتولتهم صنوف الأوبئة ، ما يدفعها عنهم إلا القَـدَر وحده ، حتى تدلى سكان القطر إلى مادون الثلاثة الملايين .

تم للفرنسيين إذًا فتح مصر الا ما كان من استقلال بعض المماليك ببلاد الصعيد وشن الغارات على الفاتحين الحين بعد الحين من بعض أطراف البلاد ، و إلاّ ما كان من انقضاض سكان القاهرة الفَيْنة بعد الفينة على الجيش المحتل يخرجون اليه بعصيهم ثم يرجعون وقد أصلتهم مدافعه و بنادقه نارًا حامية .

البعثة العلمية

وكان قد جاء مع بونابرت طائفة من العلماء والصناع لدراسة الحياة المصرية من جميع نواحيها ، وإقامة ما يحتاج اليه من المعامل والمصانع ، ولما استقر فى مصر أنشأ مدرستين لتعليم أبناء الفرنسيين ، وأقام مكتبة جامعة ليراجع العلوم فيها من يشاء مراجعتها منهم ولقد دعا الفرنسيون كبار أعيان المصريين وعلمائهم الى زيارة الدار التى أعدوا فيها وسائلهم لمختلف العلوم والفنون وما جاءوا به من آلات وأدوات للطبيعة والكيمياء والأرصاد الفلكية وغير ذلك . فما كاد هؤلاء يطلعون على ما يصنع القوم بتلك الوسائل حتى بُهِر أكثرهم وظنوا أنه ضرب من السحر ، وما هو بالسحر ولكنه العلم الصحيح .

فى ذلك الوقت أخذ المصريون — أو بعضهم على الصحيح — يفطنون إلى أن هناك حياة غير ما ألفوا من حياة ، وأن هناك علما غير ما عرفوا من العلم .

وفى سنة ١٢١٦هـ (١٨٠١م) أجلى الفرنسيون عن الديار المصرية ، أى بعد ثلاث سنين ذاق فيها المصريون من مر العيش مالا يطاق . على أن حكم الولاة العثمانيين قد عاد اليهم ، كما عاد اليهم سلطان المماليك . وما برحت البلاد تعانى من هؤلاء وهؤلاء ما لا يتصور من ألوان الظلم والعنت حتى كانت سنة ١٢٢٠هـ (١٨٠٥م) إذ نودى بمحمد على واليا على مصر .

محمد على

قدم محمد على الى مصر ضابطًا فى الحملة التى وجهتها تركيا لاخراج الفرنسيين من مصر ، وكان راجح العقل ، شديد الذكاء ، واسع الحيلة ، عظيم الهمة ، واسع المطامع ، شجاعاً بلغ من قوة القلب حدا لا ينثنى له معه عنان . وبهذه المواهب الجليلة استطاع أن يثب فى رتب الجيش وثبا ، وأخيرا استطاع أن يجمع حوله أعيان المصريين وكبار علمائهم بلطف معاملتهم وحسن معاشرتهم فأحبوه وآثروه ، وأعانوه عند الحكومة التركية حتى قلدته ولاية مصر وهى لذلك كارهة .

وكان أول همّ لمحمد على فى ولاية الحكم أن يتخلص من المماليك حتى يكشف عن البلاد ظلمهم ، ويخلُص له وجهها غير منازَع ، فأوقع بجمهرتهم فى القلعة سنة ١٢٢٦ هـ (١٨١١م) .

بعد ذلك وجه همته العظيمة الى أن ينشئ جيشا له كل ما للجيوش الحديثة من صفات الطاعة والنظام ، مسلحاً بأجود آلات القتال . فعمد أولا الى مماليكه وبعث بهم الى الصعيد ليتعلموا فنون الحرب الحديثة على أيدى أساتذة من الافرنج . وفى سنة ١٢٤٠ (١٨٢٥م) أنشأ فى قصر العينى مدرسة حربية اعدادية ، وجمع فيها التلاميذ من طوائف مختلفة الا المصريين ، غير أن هذه التجربة أخفقت فاضطر أن يجعل أكثر التلاميذ بعدُ من المصريين ، وكانت لغة التعليم الأساسية هى التركية ، وكانت تدرس الى جانبها العربية وغيرها . وكان قد سبق فأرسل طائفة من المماليك الى بعض البلاد الأوربية لدراسة فنون الجندية .

ثم أنشأ مدرسة أركان الحرب فى جهة أبى زعبل من ضواحى القاهرة ودعا لها بأساتذة من الفرنسيين .

مدرسة الطب

علمت أن همة محمد على اتجهت باديَ الرأى الى إنشاء جيش منظم مجهز بجميع الوسائل الحديثة ولم يكن فى مصر الى ذلك الوقت أطباء ، اللهم إلا نفرا قليلا من الافرنج لتطبيب مرضَى الجاليات الأجنبية . أما المصريون فكان مرضاهم

يعوذون بالمتطببين والدجالين . وقد يلتمسون الوصفات لأمراضهم من الكتب القديمة كتذكرة داود وغيرها . وكانت اذا نشبت المعارك الحربية يدعى بالحلاقين ليأسوا الكلوم ويضمدوا الجروح . لهذا عمد محمد على الى انشاء مدرسة طبية بجهة أبى زعبل فى سنة ١٢٤٢ (١٨٢٦) يقوم بأزائها مستشفى كبير ، ودعا لها بأساتذة من الافرنج وجمع طلابها من المصريين وغير المصريين ، وكثير من أولئك كانوا من متقدمى الطلاب فى الأزهر ، وكان التعليم فى هذه المدرسة شاقًا مجهدًا فان أساتيذها لم يكونوا يعرفون العربية ، وطلابها لا علم لهم باللغات الافرنجية . فدعت هذه الضرورة الى أن يقوم بين الأساتذة وتلاميذهم مترجمون من المغاربة والسوريين والأرمن وغيرهم ليؤدوا إلى هؤلاء بالعربية مايلقيه أولئك بالافرنجية .

ايقاظه الشرق بحسن بلائه فى السياسة والحرب

استمكن سلطان محمد على بما أعد من جيش قوى فى البر ، وأسطول عظيم فى البحر ، وعلم عالٍ يأخذ به أبناء البلاد ومعاملَ ومصانعَ أغنته عن كثير مما يرِد من الغرب ، ومشروعات للرى ضاعف بها استثمارَ الأرض ، وغير ذلك من وسائل الاصلاح . ولقد استعانت به تركيا فى اخماد الفتن فى أطراف بلادها ، كما استعانت به فى حروبها مع الدول الأخرى . كما تمكن بجيشه من فتح السودان ، كما اقتطع شطرًا من أملاك تركيا نفسها بعد أن اشتجر الخلاف بينه وبينها وكاد يظفرَ بحاضرة ملكها لولا أن تألبت عليه الدول الأوربية وحُلْن بينه وبين غايته .

أما الأسطول الضخم الذى بناه محمد على فقد أحرقته تلك الدول غِيلةً فى واقعة "ناڤارين" ! وجملة القول أنّ محمد على لم يبعث بجليل همته وعظيم اصلاحه مصر وحدها ، بل بعث معها الشرق كلَّه ، فلقد كان لنهضته تلك دوىّ عظيم أيقظ الشرق بعد أن طال سباته وبعد أن اطمأن على تطاول الأيام الى عيش الذلة والهوان . وذلك ما كانت تحسب له دول الغرب كلَّ حساب .

تنظيمه العلاقات العلمية بين الشرق والغرب

سبق الكلام على أن مصر كانت منقطعة عن بلاد الغرب وتقدمت الاشارة كذلك الى أن الحملة الفرنسية جاءت معها بِبَعْث من العلماء وأهل الفنون والصناع واطلع أعيان المصريين وكبار علمائهم على شيء من وسائلهم فى سبيل العلم الحديث ، الا أن مصر عاشت مدة حكمهم ولم تُفِد من هذا شيئاً ، ولا حقق لها هذا القَدَر أى اتصال علمى ببلاد الغرب .

حتى إذا قام محمد على لم يرأن يأخذها بخير من الحضارة الغربية ؛ فأتى بالعلماء والأساتذة وأهل الفنون من أوربا ، وبعث البعوث العلمية والفنية الى بلادها ، وأقام المدارس فى مصر على نهج مدارسها ، وتقدم بترجمة ما يُحْتاج اليه من كتبها فى وسائل الحياة المختلفة . وبهذا وغيره انتظمت العلاقات العلمية بين الشرق والغرب ، وسيأتى توضيح ذلك .

اسماعيل واتمامه بناء جده

قَبض محمد على باشا فى سنة ١٢٦٥ هـ (١٨٤٩ م) بعد أن حكم مصر أكثر من أربعين سنة بعثها فيها من الموت بعثا ، وأنهضها نهضة قوية تلفّت لها وجه التاريخ وما كاد المُلك يصير الى حفيده عباس الأول حتى خَبَت تلك النهضة ، فأُغلقت المدارس ، وعطلت المصانع ، وفترت تلك الحركة العظيمة التى تناولت جميع مَرَافق الحياة فى البلاد . وكذلك كان شان خَلَفه سعيد بن محمد على طول أيام حكمه . حتى اذا انتهت ولاية مصر فى سنة ١٢١٩ هـ (١٨٦٣م) الى اسماعيل بن ابرهيم بن محمد على تأثر فى سبيل الاصلاح خُطا جده العظيم ، وراح يُتِمّ ما بنى لمجد مصر ، وقد ذلل له وجه هذا المطلب وجود كثير من فطاحل العلماء الذين أعدّهم جده العظيم . فبعث العلم بفتح المدارس المختلفة ، واستقدام خيار الأساتذة والمصلحين من بلاد الغرب ، وإيفاد البعوث العلمية اليها ، وجدّ فى تشييد المعامل والمصانع ، كما وجه همة عظيمة الى الزراعة ، وهى كما لا يخفى عماد الثروة فى مصر ، فشق الترع وبنى القناطر ، ونهض بغير ذلك من وجوه الاصلاح التى تقوم عليها الثروة والقوة والعلم والعظمة فى كل البلاد .

مظاهر النهضة الحديثة فى العلم والأدب

البعوث العلمية

لم يكن للبعوث العلمية التى أوفدها محمد على فى مبتدأ الأمر الى أوربا شأن جليل . وأولها كان فى سنة (١٨١٣ م) ؛ على أنه ما برح يوالى إرسالَ البعوث حتى كانت سنة ١٢٤٢ هـ (١٨٢٦ م) إذ أوفد الى أوربا بعثة عظيمة يزيد عدد طلابها على الأربعين ، أحرزوا قبل سفرهم قدرًا صالحًا من التعليم والتثقيف . وظل بعد هذا يوفد البعوث العلمية الى مختلف البلاد الأوربية للتبحر فى العلوم والفنون ، ولم يقنع بهذا بل أقام فى باريس نفسها مدرســة جمعت نحو الأربعين طالباً فيهم بعض الأمراء من أولاده وأحفاده .

وكلما أتم طالب دروسه وشهد له أساتيذه بالبراعة والتبريز عاد الى مصر فوَلِىَ من الأعمال ما يصلح له ويتسق مع علمه ومواهبه .

ولمــا أفضت الولاية الى اسماعيل باشا حذا حذوه فى جميع طرائق الاصلاح ومنها بعث البعوث .

الترجمة والتأليف

كان أول عهد مصر بالترجمة فى هذا العصر ، ماقام به أولئك المترجمون الذين جاء بهم محمد على ليؤدوا بالعربيــة الى طلبة مدرســة الطب ما كان يلقيه عليهم أساتذتهــم من الدروس باللغــة الأجنبية . فلمــا أخرج بعض هؤلاء الأســاتذة بلغاتهم كتباً ورسائل فى فنون الطب وأريد ترجمتها الى العربية جاء محمد على بطائفة ممن تفقهوا فى العربية لمعاونة أولئك المترجمين على تحرير العبارة وضبط المصطلحات العلمية بقدر ما اتسع له علمهم بالعربية وماعثروا عليه من مصطلحاتها . وكان هذا عملًا شاقا مضنيا بحكم ذلك الجفاء الطويل بين العربية ولغات الغرب ، وبسبب فقر المصريين فى ذلك العهد فى العلم الحديث وفقرهم فى العلم باللغة العربية نفسها .

على أنه منذ عودة طلاب البعثة الكبرى والذين من بعدهم تقدم شأن الترجمة تقدما واضحا بتزودهم من العلم الحديث أولا ، واستفادتهم بسعى من سبقوهم ثانيا ، وانتعاش اللغة العربية ثالثا .

وكانت جمهرة المترجمين أول الأمر من الأطباء ، لأن الطب أول العلوم الحديثة التى عُنِىَ بدراستها فى مصر بعد العلوم الحربية ، ثم توالت الترجمة فى العلوم والفنون الأخرى على يد من تخرجوا فيها من الطلاب .

أما التأليف فى العلوم الحديثة فكان فى مبتدأ الأمر ضئيلا ، وكان أكثره من وضع الأجانب الذين جاء بهم محمد على ليبتغى بهم وسائل الاصلاح المنشود ، على أن المصريين قد جعلوا يقبلون على معالجته ، وخاصة من عهد اسمعيل حتى بلغ اليوم غاية محمودة مازالت البلاد تتطلع منه الى المزيد [1]

(١) ومن أبرع من برعوا (فى أثناء هذه النهضة) فى التأليف والترجمة فى فنون الطب والصيدلة — مرتبين على حسب تاريخ وفياتهم — ابراهيم بك النبراوى ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢ م) ، وأحمد بك حسن الرشيدى ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥ م) ، ومحمد على باشا البقلى ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦ م) وأحمد بك ندى ١٢٩٤ هـ (١٨٧٧ م) ، وسالم باشا سالم ١٣١١ هـ (١٨٩٣ م) ، ومحمد الدرى باشا ١٣١٨ هـ (١٩٠٠ م) وحسن محمود باشا ١٣٢١ هـ (١٩٠٣ م) .

وممن برعوا كذلك فى العلوم الرياضية ترجمة وتأليفا : محمد بك بيومى ١٢٦٨ هـ (١٨٥١ م) ، وبهجت باشا ١٢٨٤ هـ (١٨٦٧ م) ، ومحمود باشا الفلكى ١٣٠٣ هـ (١٨٨٥ م) ، وشفيق بك منصور ١٣٠٨ هـ (١٨٩٠ م) ، ومختار باشا المصرى ١٣١٥ هـ (١٨٩٧ م) ، واسماعيل باشا الفلكى ١٣١٩ هـ (١٩٠١ م) .

ومن خير من ألفوا أو ترجموا فى العلوم المختلفة فى صدر هذه النهضة : الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ١٢٤٠ هـ (١٨٢٥ م) ، والشيخ شهاب الدين المصرى ١٢٧٤ هـ (١٨٥٧ م) ، ورفاعة بك رافع الطحطاوى ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م) ، ومحمد قدرى باشا ١٣٠٣ هـ (١٨٨٥ م) ، وأحمد فارس الشدياق ١٣٠٥ هـ (١٨٨٧ م) ، والشيخ عبد الهادى نجا الابيارى ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م) ، والشيخ حسين المرصفى ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩ م) والشيخ محمد بيرم ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩ م) ، وعلى مبارك باشا ١٣١١ هـ (١٨٩٣ م) ، والشيخ محمد العباسى المهدى ١٣١٥ هـ (١٨٩٧ م) ، وعثمان بك جلال ١٣١٦ هـ (١٨٩٨ م) ، وأمين فكرى باشا ١٣١٧ هـ (١٨٩٩ م) ، والشيخ ابراهيم اليازجى ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦ م) ، وقاسم بك أمين ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م) ، وعمر بك لطفى (١٩١٢) ، وعلى أبو الفتوح باشا المتوفى سنة ١٩١٣ ومحمد بك النجارى ١٣٣٢ هـ (١٩١٤ م) ، وأحمد فتحى زغلول باشا ١٣٣٢ هـ (١٩١٤ م) ، وجرجى زيدان بك (١٩١٤ م) ، واسماعيل سرهنك باشا (١٩٢٥ م) ، والشيخ محمد بك الخضرى (١٩٢٦ م) .

ولا شك فى أن هذه النهضة الحديثة مدينة فى مستهلها لشيخ المترجمين على الاطلاق رفاعة رافع بك ، كما أنها مدينة لأكبر السابقين من المؤلفين الوزير المصلح العظيم على مبارك باشا .

المدارس والمطابع

لم يلبث محمد على طويلا حتى جعل ينشر التعليم بجميع أنواعه ودرجاته ، فأقام نحو خمسين مدرسة ابتدائية بثَّها فى أرجاء القطر المصرى ، وأقام مدارس عِدَّةً تجهيزية وخاصة . ومن هذه مدارس الهندسة ، والتعدين ، والفنون والصناعات ، والطب ، والطب البيطرى ، والزراعة ، والألسن وغيرها . وجاء لهذه المدارس كلها بأساتذة من الأجانب ومن المصريين الذين تخصصوا بما يدرس فيها من العلوم والفنون .

ولقد تابع حفيده اسماعيل سعيه فى هذا حتى أزهر العلم وآتى من الخير ما لا نزال نشهد من آثاره ونجنى من ثماره .

ومن أهم المدارس العالية التى أنشأها اسماعيل مدرسة دار العلوم التى عادت على اللغة العربية بجليل النفع ، والتى كانت من أقوى العوامل فى بث صحيح العربية وطبع الملكات على فصيح البيان .

الأزهر

ولقد ظل الأزهر على شأنه الذى تقدمت الاشارة اليه حتى نهض المصلحون داعين إلى أخذ طلابه بقسط من علوم الحياة كالتاريخ وتقويم البلدان والعلوم الرياضية ، فلقى هذا أول الأمر شيئًا من المعارضة ، على أن الأزهريين لم يلبثوا طويلا حتى اطمأنوا إلى هذه العلوم وأقبلوا جاهدين على دراستها . ثم ما لبثوا هم أن هبوا يطلبون الإصلاح فى جميع أنواع التعليم فى الازهر والمزيد من علوم الحياة . وقد عولج هذا الإصلاح بمشروعات عدة . وما زال يعالج إلى اليوم .

أما المطابع فلم يكن للمصريين عهد بها إلى أن قدمت الحملة الفرنسية وجاءت معها بمطبعة مزودة بالحروف اللاتينية والحروف العربية ليطبع على هـذه ما تريد إذاعته على الأهلين من الأوامر والمنشورات . ولقد تركوها فيما تركوا ، حتى إذا كانت سنة (١٨٢١ م) وشرع محمد على يتبسط فى فنون الاصلاح ومنها التعليم ، اتخذ

من هذه المطبعة نواة لتأسيس مطبعة عظيمة دعيت أولا المطبعة الأهلية ، ثم أطلق عليهـا مطبعة بولاق « الأميرية » وكان قد تقـدم بتدريب طائفة من الشبان على صناعة الطباعة فى فروعها المختلفة . وكانت هذه المطبعة فى مستهل أمرها مقصورة على طبع حاجات الحكومة ، ثم جعلت تطبع الكتب الدراسية وتتوسع فى طبع الكتب فى العلوم والاداب باللغات العربية (مؤلفة ومترجمة) والافرنجية والتركية والفـارسـية وكان القسم الذى يقـوم بطبع الكتب يُسَـمَّى « بالقسم الأدبى » وأخيرا شُطِر هذا القسم وأضيف إلى دار الكتب المصرية تطبع فيه هـذه الدار ما ترى بعثه من الكتب القديمة فى العلم والأدب وما تشاء طبعه للأفراد .

ولم يكن للأهلين مطابع فى صدر هذا العصر الذى يبتدئ من الحملة الفرنسية . وظل الشأن كذلك حتى كانت أخريات حكم سعيد باشا ، إذ أنشأت الدار البطريركية مطبعة دعيت « المطبعة الأهلية القبطية » ثم توالى إنشاء المطابع بسبب كثرة المتعلمين وازدياد الرغبة فى الترجمة والتأليف وإحياء الكتب القديمة وانتشار الصحف السيارة .

ولقد ظلت المطابع تكثر وتتسع وتتدرج فى سنة الاجادة والاتقان متابعة بهذا مطابع الغرب حتى بلغت فى تجديد الطباعة والتصوير ما تراه الآن .

احياء الأدب القديم

وكان من آثار تلك النهضة فى التعليم من جهة ، وانتشار المطابع من جهة أخرى ، أن أقبل الناس — وخاصة من عصر اسمـاعيل — على دور الكتب ، يجعلوا يستخرجون ما فيها من الذخائر المخفُوّة من قديم الزمان فى فنون الآداب ، ويقومون على استنساخها وضبطها وطبعها وإشاعتها ، فخرج من ذلك الوقت إلى اليوم ما شاء الله من معاجم اللغة ، ودواوين السابقين من فحول الشعراء وما جرت به أقلام أئمة البيان فى العلوم والآداب . وأقبل المتعلمون على قراءتها وإجالة الفكر فى أغراضها ومعانيها ، وترشف بلاغاتها ، وتقليب الألسن والأقلام فى عباراتها وصيغها مما كان له أبلغ الأثر فى طبع الملكات على البلاغة الصادقة والبيان السليم .

الصحف

ولم يكن لمصر عهد بالصحافة حتى قدمت الحملة الفرنسية . وما كاد يستقر لها الأمر حتى أخرجت صحيفتين فرنسيتين ، وكان من أنظمة حكم الفرنسيين في مصر أن ألفوا من بعض العلماء والأعيان ديوانا للقضايا ، وأصدروا نشرة عربية دورية تتضمن ما يجرى فيه ، ودعيت هذه النشرة "التنبيه" وكان يقوم على تحريرها رجل من كبار المتأدبين فى ذلك العصر يدعى السيد اسماعيل الخشاب . وقد طويت هذه الصحيفة بخروج الفرنسيين من هذه البلاد .

ولما صار أمر الحكم فى مصر إلى محمد على كان مما ابتغى من وسائل الاصلاح أن أنشأ فى سنة ١٨٢٨م "الوقائع المصرية". وكانت صحيفة بالمعنى المعروف، أى أنها تُعْنَى بنشر الأخبار التى تهم الجمهور، والمقالات التى تجول فى مختلف الشئون العامة، بقدر ما كان يأذن به نظام الحكم ودرجة التعليم والاستنارة فى ذلك الزمان . ومازالت ترقى فى هذا الباب برقى أقلام من يتعاقبون عليها من المحررين ، إلى أن رأت الحكومة من عهد غير بعيد قصرها على نشر الشئون الرسمية ، من قوانين ومراسيم وقرارات وزارية، ولوائح ادارية، ونحو ذلك. ومازالت تظهر الى الآن مرتين فى كل أسبوع .

ولقد ظلت "الوقائع المصرية" الجريدة الفذّة التى تصدر فى مصر الى أن كان عهد الخديو اسماعيل، اذ أنشأ محمد على باشا الحكيم بمعونة الشيخ ابراهيم الدسوقى وهو من المحررين المعروفين فى ذلك الوقت صحيفة باسم "اليعسوب" قصراها على البحث فى الموضوعات الطبية . وفى سنة ١٨٦٦ م أصدر عبد الله أبو السعود افندى من المتعلمين العارفين لبعض اللغات الأجنبية صحيفة سياسية دعيت "وادى النيل" فكانت أول صحيفة سياسية أهلية ظهرت فى هذه البلاد . ثم توالى إصدار الصحف السياسية والأدبية وعظم شأنها أول الأمر بمن قدم مصر من كتاب السوريين الذين مارسوا فن الصحافة وحذقوه .

وما زالت الصحافة فى مصر ترقى برقى الأفكار والتوسع فى الحريات ومنها حرية الصحافة ، و بازدياد اهتمام الجمهور بالشئون العامة . حتى بلغت ما ترى اليوم من فصاحة العبارة ، وغزارة المـادة الفكرية ، والعناية بتحرى الأخبار والاسراع الى نشرها ، والتبسط فى أبواب السياســة القومية والسياسة العالمية . وإيراد ما يخرج فى أرجاء العالم من المخترعات و يتجلى من المستكشفات . إلى ماعنيت به أخيرا من إفراد صحائف خاصة منها للبحث فى أبواب العلوم والفنون والآداب .

وقامت بجوار الصحف السياسية صحف أخرى تدعى "المجلات" وهى تقتصر عادة ، على نشر البحوث العلمية والأدبية والفنية ، وإيراد مستملح الطرف ترفيها عن القارئين .

وقد كانت الصحافة — وما برحت — من العوامل القوية فى ايقاظ الأفكار وانارة الأذهان ، و بث الثقافة ، وتقويم الحكومات ، و بعث همة الجمهور لكل سعى قوى جليل .

وهناك فضل آخر للصحافة المصرية يجب أن نثبتــه فى هذا المقام . ذلك أن حضارتنا القائمة انمـا بنيت على الحضارة الغربية ، فكل ما تلقيناه من العلم الحديث كان ممن تعلموا لغات الغرب ، وترجموا عنها الى العربية مختلف الكتب فى العلوم والآداب . وهؤلاء تأثرت لغتهم ، بقدرما ، بلغات الغرب ، كما اضطروا فى البيان الى أن يُعدّلوا فى أسلوب العربية وكثير من صيغها طوعا للأسلوب الذى نقلوا عنه ووفاء بحاجة أغراض ومعان لم تكن معروفة فى العربيــة ، أو كانت فى العربيــة ولكنهم لم يهتدوا إليها ، وهناك ضرب من الكتّاب لايعنيهم الا أن يحتذوا حذو القديم . وهناك كتّاب آخرون أخذوا من هذا ومن ذاك . وبذلك تباينت الأساليب وتفاوتت اللهجات ، وخاصــة فى مطلع الأمر . فكان من أثر انتشـار الصحف ووقوعها بأيدى جميع الكتّاب ومن عداهم من المتعلمين أن جعلت لهجات الكتّاب تتقارب على الزمن ، شيئًا فشيئًا بمـا يمـد به بعضهم بعضًا ، ومالوا فى اختيـار الأساليب إلى ما يؤدى الأغراض وتستقيم به العربية الصحيحة ، ونفى مايشمُس على الآذان ، و ينبو عنه صحيح البيان .

التمثيل

لم يكن لمصر كذلك عهد بالتمثيل الا ما كان من ملاعب المقلّسين فى الأسواق والمواسم والحفلات الخاصة حتى كان حكم اسماعيل ، وكان جد حريص على أن يأخذ بلاده بجميع أسباب الحضارة الغربيــة . فشيد "الأوبرا" الخديوية فى سنة (١٨٦٩م) بمناسـبة الاحتفال بافتتاح قنـاة السويس ، ودعا اليها بفرقة افرنجية مثلت فيها أوّل مرة رواية "عائدة" باللغة الفرنسية .

وكان السوريون قد سبقوا الى معالجة فن التمثيل ، فقدمت الى مصر فرق من ممثليهم تباعا ومن أَمْثَالِهم الشيخ خليـل القبانى ، وسليمان افندى القرداحى ، وفرح افندى أنطون ، وظل المصريون دهرا لا يرضَوْن بممارسته لأنهم لم يكونوا يرون فيه بادئ الرأى ، الا ضربا من اللعب والعبث ، الى أن تقدم الشيخ سلامه حجازى الى التمثيل والانشاد وذلك فى أعقاب الثورة العرابية ، فتبعه الى التمثيل عدد يسير من المصريين وما زالوا على الزمن يقبلون عليه حتى أصبحوا اليوم الكثرة الغالبة فيه .

وأما المصريات فقد أحجمن عن الدخول فيــه بتاتا الى وقت قريب بحكم التعاليم الدينية والتقاليد المأثورة ؛ ولكنهن أقبلن عليه أخيرا طوعا لتطورات الزمان .

والتمثيل العربى بدأ كما يبدأ كل شىء ضعيفا خائرا لا يطلب منه الا مجرد اللهو والاستمتاع بالأصوات الرخيمة ؛ ولكنه ظل يتـدرج فى طريق الدقة والاتقان من جميع نواحيه ، حتى صار فنًّا بل فنونا لكل منها أساليبه وآدابه .

والتمثيل فوق انه أداة للتسلية وتفرّج النفس ، قد يكون وسـيلة من وسائل تنبيه الأذهان بتجلية عبرة تاريخية ، أو بمعالجة مسألة اجتماعية ، أو بالابانة الواضحة عمـا يحمل الاثم فى نفسه من العقوبة . وما يُجن الخير فى صدره من المثوبة .

نهضة الأدب فى أيامنا

تمهيد

يمكن القول بأنه فى صدر هـذا العصر الذى نتحدث عنه ، أى فى أيام الحملة الفرنسية ، كانت الصلة منقطعة بين المصريين والأدب العربى القديم . وذلك بطول جفائهم لكتبه،وعدم مراجعتهم لروائع آثاره التى ظلت منبوذةً فى مطارحها من الجوامع والأضرحة ومكتبات الحكام وغيرهم . وكانت كل مادة الأدب التى يعيش عليها المصريون فى ذلك العهد ما تسرب اليهم عن سلفهم القريب بعـد أن جف الأدب ونضب ماؤه ، وحالت بهجته وذهب رواؤه ، ودارت مطالب الشعر بنوع خاص فى أضيق الدوائر، من غزل خائر ظاهر التكلف ، ووصف لا يُبْرِز لك أية صورة رائعـه من صور الكلام ، وهجاء بارد مرذول ، ومـديح لا تتسع له دائرة القَبول، وقد تجردت الهمم كلها فى طلب المحسِّنات البديعة يزيِّنُ بها وجهُ القول تزييناً .

أما علوم البلاغة فقد ضُبطت فى قواعد جافَّةٍ لا يمكن أن تَطبَعَ الملكات على الفصاحة ولا أن تُشعر الأنفُسَ رُوحَ البيان ، فضلا عن أن شراحَ تلك القواعد ومن تطوعوا للتعليق عليها قد خرجوا بها الى ضرب من الفلسفة والجدل اللفظىّ الذى ان أدى فهمه بعد المطاولة وشدة الجهد الى إنمـاء ملَكات الجدل والقدرة على التماس العلل، فانه لا يؤدى الى شىء عقدت لأجله كتب البلاغة بأى حال .

ولم يكن يحرِص أكثر الكاتبين الا على قواعد الإعراب ، فلما أسس محمد على مدرسة الطب كما أسلفنا وأخرج بعض الأساتذة الأجانب كتبا ورسائل فى لغاتهم أريد ترجمتها ضُمَّ إلى المترجمين جماعة من الأشياخ الذين أخذوا من العربية بحظ ليضبطوا الألفاظ والصيغ العربية بازاء المعانى القائمة فى اللغة الافرنجية، فكان هذا من أول مادعا إلى مراجعة الكتب القديمة لالتماس المصطلحات الفنية التى وضعها الأقدمون فى الطب والاقراباذين .

على أن التعليم على المنهج الحديث فى ذلك العهد لم يُجْدِ على الأدب بادئ الرأى ، شيئاً . و إن وسع فى أغراض المؤلفين والكاتبين وفسّح فى معانيهم ، لأنهم لم يستطيعوا أن يفرغوها إلا فى لغة شبيهة بالعامية ، يخالطها كثير من الصيغ التركية ، والمصطلحات الافرنجية .

وظل شأن الأدب كذلك دهرا حتى أزهرت النهضة العلمية ، وأحس المتعلمون شديد حاجتهم إلى لغة يصوغون بها ما يجول فى صدورهم من المعانى ، وقامت المطبعة الأميرية بطبع طائفة من الكتب القديمة فى اللغة والآداب . من ذلك الوقت جعل الأدب العربى فى مصر يتخذ له سمتاً آخر . وتم هذا فى عصر اسماعيل ، وخاصة بعد أن أنشأ المكتبة الخديوية ، وجمع فيها قدرا عظيما من نفائس الكتب القديمة فأضحت مثابة المطالعين والنساخ والطابعين .

ومن حين طالع الناس الأدب القديم وتذوقوه راحوا يطلبون كتبه ويقلّبون النظر فى بدائع صيغه وروائع أساليبه ، وانطلقوا يتكلفونه إذا هم كتبوا أو خطبوا ، وكلما اطرد الزمن ازدادوا منه قربا ، وله حبا .

ولكن لا يذهب عنك أن حضارتنا الحديثة ليست قائمة فى جميع نواحيها على الحضارة العربية القديمة ، حتى نجرى فى أدبنا على سبيل العرب ، وننزع منازعهم فى تصورنا للأشياء ، وحكمنا عليها ، وطريقة تصويرنا لها ، فان حضارتنا فى الواقع إنما تقوم على الحضارة الأوربية الحديثة ، فنحن نأخذ عن أوربا فنونها ، وننهل من علومها ، ونجرى فى أكثر وسائل الحياة على سبيلها ، هذا إلى أن بيننا كثيرا ممن تثقفوا بثقافتها ، وحذقوا لغاتها ، وتفقهوا فى آدابها ، واستراحت آذانهم إلى موسيقاها ، فتأثروا بكل ذلك — من غير شك — فى طريقة تفكيرهم وتقديرهم إلى حد كبير ، وهؤلاء أثروا فى غيرهم ممن لا يجيدون اللغات الافرنجية . لهذا ترى الأدب المصرى القائم و إن كان حق حريص على لغة العرب فى مفرداتها وصيغها وأساليبها ، قد تأثر بأسباب الحضارة الغربية فى أغراضه ومنازعه إلى مدى بعيد .

وهنا ينبغى أن نقف وقفة قصيرة نلم فيها بأسماء أبلغ الرجال أثرا فى نهضة اللغة والأدب فى العصر الحديث :

١ — رفاعة بك رافع الطحطاوى

المتوفى سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م)

لقد كان رفاعة بك مع رجال البعثة الكبرى التى أوفدها محمد على إلى باريس فدرس اللغة الفرنسية حتى برع فيها. ودرس التاريخ وتقويم البلدان، ولما عاد إلى مصر تولى الترجمة فى العلوم المختلفة من طب ورياضة وقانون وفنون عسكرية. وقام على نظارة مدرسة الألسن التى أنشأها محمد على لتخريج المترجمين. ثم على قلم الترجمة الذى أُلِّف من تلاميذ هذه المدرسة.

وإذا علمت أن اللغة العربية كانت فى ذلك العهد فى شبه انقطاع تام عن لغات الغرب، قدرت مبلغ ما عانى رفاعة بك فى ترجمة هذه العلوم الحديثة اليها، وما جاهد فى استخراج المصطلحات العربية لأداء معانيها الفنية، وقدرت بعد ذلك مبلغ ما أجدى فضل رفاعة بك على هذه النهضة العظيمة. هذا إلى فضله الكبير فى تخريج خيار المترجمين الذين أعانوه أولا، وأتموا ما بنى لنقل العلم إلى هذه البلاد، ولرفاعة بك فوق هذا مؤلفات قيمة فى فنون مختلفة.

٢ — على مبارك باشا

المتوفى سنة ١٣١١ هـ (١٨٩٣ م)

لاشك فى أن على مبارك باشا يعد فى أوائل الرجال الذين كان لهم أوفر حظ فى بعث النهضة الحديثة، ولاه اسماعيل باشا ديوان المدارس (نظارة المعارف) فاضطلع باصلاح التعليم وأخذ المدارس المصرية بكل ما تهيأ له من ضروب النظام. كما كان له أعظم الفضل فى إنشاء المكتبة الخديوية التى تعد الآن من أعظم المكتبات فى الشرق كله. وكان نفسه قوة لا تنى عن اذكاء الهمم لطلب العلم، يتوافر على هذا نهاره فى ديوانه وفى طوافه على المعاهد سائلا ممتحنًا مرشدًا مشجعا، وفى ليله يجلس فى داره مجلسا عاما يغشاه من شاء من الأساتذة ومن متقدمى التلاميذ فيحاضرهم ويذاكرهم ويوجههم إلى البحوث المختلفة فى أبواب العلم والأدب ويثيب المجدّ الموفق منهم.

وأما فضله على اللغة والأدب بوجه خاص فبانشائه مدرسة دار العلوم، ولقد كانت من أغزر الينابيع التى نهل منها المصريون أدب العرب القديم.

٣ — الشيخ حسين المرصفى

المتوفى سنة ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩ م)

كان من أول من عُنِيَ فى هذا العصر باللغة وآدابها ، وآثار أعلام البيان من جاهليين و إسلاميين بجد و بحث وفصّل قواعد البلاغة فى كتابه « الوسيلة الأدبية » على نظم بديع ، وأظهر كثيراً من آيات البيان العربى الذى أهمله متكلفو الأدب من زمان طويل . فله أثر بليغ فى بعث الأدب القديم ، وتوجيه المتأدبين اليه ، واستدراجهم نحوه حتى أقبلوا عليه وتذوقوه وراحوا يشاكلونه إذا هم نظموا أو أرسلوا الكلام .

ولم يكن أثره مقصورا على التأليف وحده ، بل لقد حاضر فى هذا الباب كثيرا ، وكتب فى الصحف كثيراً ، وعلم فى دار العلوم طويلا . وكان من حسن أثره أن دفع الأدباء الى تلمس الأدب الصحيح وإلى مشاكلة المتقدمين من أئمة البيان ، كما كان أسلوبه العربى المرسل الفصيح قدوة لكثير من الكاتبين .

٤ — السيد جمال الدين الأفغانى

المتوفى سنة (١٨٩٧ م)

لقد كان أثره فى نهضة البيان العربى غير مباشر : ذلك بأنه لم يكن فقيها فى لغة العرب ، ولا متقصيا لأسرار بلاغاتها ، بل لقد كان أجنبيا عنها ؛ على أنه كان إذا تكلم بها أو كتب تحرى صحة اللفظ وصحة التركيب بقدر ما يتسع له ذرعه . ولكنه كان رجلا شديد العقل ، قوى النفس متسعر الذكاء ، . جمع إلى علوم الفلسفة القديمة العلم بالشئون العامة فى العالم ، وتجرد لبعث الشرق من رقدته ، وانهاض الأمم الإسلامية . وهبط مصر فى عهد اسماعيل فاتصل به طائفة من نجباء طلاب الأزهر وغيرهم فكان يعلمهم فنونا من العلم ، ويبث فيهم فى

خلال دروسه وفى أسماره دعوة جريئة أولها الاستمتاع بالحرية كاملة فى القول والعمل، وغايتها دفع أمم الشرق عامة والأمم الإسلامية خاصة إلى العمل القوى حتى تتمتع بحياة الحرية والعزة والاستقلال .

وكان يدرب طلابه على هذا باللسان والقلم ، وكان خطيبا قديرا فهيأ بمصر ملكات الخطابة والكتابة ، حتى كانت جمهرة خطباء الثورة العرابية من تلاميذه . أما أثره فى الكتّاب فكان فى توجيه عنايتهم إلى المعنى بعد أن كانت مصروفة كلها إلى اللفظ ، ولقد دعا هذا إلى القصد فى تقديم المقدمات ، وكانت العادة جرت بالإسراف فيها إلى الحد الذى قد يضيع الغرض الذى سيق له الكلام ، كما دعا إلى عدم الاهتمام بزخرفة الكلام بفنون المحسنات البديعية .

٥ — الشيخ محمد عبده
المتوفى سنة ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥ م)

هو أكبر تلاميذ السيد جمال الدين الأفغانى . وقد عالج الكتابة فى الصحف فى أوائل عهده بطلب العلم فى الأزهر ، فكان يجرى على عادة أهل عصره فى التزام السجع ، والتمهيد بين يدى الموضوع بالمقدمات الفلسفية . ثم ما برح قلمه يرقى ويعلو بتثقيف أستاذه ، وبازدياد حظه من العلم ، وبمراجعة كتب الأدب القديم وخاصة « نهج البلاغة » الذى عالجه بشرح لطيف حتى جرى قلمه على أسلوبه ونضح بما يشبه فصاحته . وكان حقيقا بشدة نفس الشيخ محمد عبده وقوة روحه ، وما تجرد له من الدعوة الصارخة إلى الاصلاح أن تجتمع لقلمه تلك الفحولة وهذه السطوة فى الكلام .

وكان ، بعد هذا ، داعيا إلى البيان الصحيح بما استخرج من أجلّ كتب البلاغة (أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجانى) وتدريسها بنفسه فى الجامع الأزهر .

٦ — ابراهيم بك المويلحى

المتوفى سنة ١٣٢٣ هـ (١٩٠٦ م)

وقد نجم من أسرة تجر فى الحرير، وهى ذات حسب وغنى ؛ على أنه من شباب السن قد هفت نفسه الى العلم والأدب فطلبهما فى أمهات الكتب، وجعل يختلف الى أئمة عصره من أمثال السيد جمال الدين الأفغانى . والمويلحى فى هذا العصر من أوائل من خصوا عن الأدب القديم وراجعوه وتذوقوه وحفظوا من روائع آياته قدرًا جليلا . وقد تعلم الفرنسية، وحذق التركية. وكان له ولع خاص بالتاريخ، فكان يديم النظر فى كتبه، ويتفطن من دقائق حوادثه وغرائب نوادره الى ما لا يتجه اليه كثير . وقد اتصل بالملوك ودخل فى بطانة الأمراء، وعاشر الحكام، وعالج السياسة العامة بالقول والعمل . وهو بعدُ رجل قد اجتمع له الى شدة الفطنة كمال الذوق وسلامة الطبع . فما إن أطلّت يراعته على متون الصحف حتى راع المتأدبين فى عصره نوع من البيان غريب : جزالة لفظ وانسجام عبارة، وحلاوة أسلوب، ولطف استشهاد، ووقوع على الدقائق العجيبة، واستخراج للمعانى الطريفة . ولعله قد احتذى الجاحظ فى نقد الأشخاص وتحليل نفوسهم والنفوذ الى مطاويها، وتصويرهم بعد هذا فى صور توزِّع همَّك بين الضحك والاعجاب .

وجملة القول ان ابراهيم بك المويلحى فوق أنه من أوائل من جَرَوْا فى البيان على نهج المتقدمين كان له أسلوب خاص مازال مثالا يحتذيه كثير من الكُتَّاب الى اليوم .

٧ — الشيخ ابراهيم اليازجى

المتوفى سنة ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦م)

وكان لأبيه حظ من الأدب وعلوم العربية جليل، وقد توفَّر عليها ولده من أول نشأته حتى برع فيها، وتبحر فى فقه اللغة . وكان إلى هذا شاعرًا متينًا . وكاتبًا رصينًا . وهو من أوائل من عالجوا النقد اللغوى فى مصر فى مجلتى البيان والضياء . ولقد دأب طَوَال حياته على تنبيه المتأدبين إلى أغلاطهم فى المفردات والتراكيب والكشف لهم عن الأخطاء الشائعة من الزمان البعيد، وردَّهم بعد ذلك فيها الى العربى الصحيح، فكان أثره بليغًا فى بعث الأدباء الى تحرى صحة الألفاظ وتأليف الكلام على قوانين العربية الخالصة .

ولليازجى فى هذا الباب فضــل آخر : ذلك بأنه من أعظم من عُنُوا فى خلال النهضة الأخيرة بالتماس المصطلحات العربية للمعانى الفنية التى جاء بها العلم الحديث.

٨ — الشيخ حمزة فتح الله

المتوفى سنة (١٩١٨م)

كان كاتباً وشاعراً ، اشتغل فى أعقاب الثورة العرابية بالتحرير فى الصحف، ثم انقطع إلى تدريس اللغة العربية حتى وَلِىَ رياســة التفتيش الخاص بها فى وزارة المعارف . وكان فى فقه اللغــة إماما جليلا ، واطلاعه على شعر السابقين ومأثور كلامهم عظيما .

والشيخ حمــزة وان كان مولعاً بالغريب يتحراه ويتعمــده اذا كتب أو نظم أو تحدث حتى ما يكاد يُفهم قوله سيبق فضله على هذه النهضة مأثورًا إلى زمان طويل بمــا أشاع من صحيح لغة العرب ، وما كشف للناس عن أخطائهم الفاشية وبمــا علم من تلاميذ ، وما نبه فى تفتيشه من أساتيذ .

٩ — حفنى بك ناصف

المتوفى سنة (١٩١٩م)

كان شاعراً يجمع بين الرقة والجزالة ، حاضر البديهة متدفق القريحة تجد لشعره حلاوة وسلاسة وخفة لكثرة ما يقع فيه من بارع التحف ورائع النكت . وكان كاتباً رصيناً ، اذا هو التزم السجع فى النثر الأدبى على حكم العصر الذى نشأ فيه كانت أسجاعه قوية موفقــة ، لا ضعف فيها ولا تعسف ، وليس فيها ما لا تدعو اليه حاجة الكلام . لذلك كان قدوة يحتذيه المتأدبون فى تعمد المتانة فى النسج واللباقة فى السجع .

وكان حفنى بك فوق هذا فقيهاً فى لغة العرب ، متمكناً من علومها ، حافظاً لكثير من مأثور آدابها . ولم يُقْصَر أثرُه فى هــذه النهضة على ما نظم وما نثر ، بل لقد علَّم وهذَّب وألَّف . وكان واحداً من خير أولئك الرجال الذين ذللوا للتلاميذ تعلم العربية بمــا وضعوا لهم من كتب أجرَوْها على نهج فى التأليف حديث . ولقد كان لهذه الكتب أثرها الحسن .

الشـــعر

محافظته فى الجملة على نهج الأدب القديم

تقدمت الاشارة الى أن الضعف قد تناول الشعر فيما تناول من مظاهر الحياة فى مصر ، سواء فى الأغراض والمعانى ، أم فى النسج والصياغة .

ولقد كان من متقدمى الشعراء فى صدر هـذا العصر الذى نتحدث عنه السيد اسماعيل الخشاب المتوفى سنة ١٢٣٠هـ (١٨١٥م) (١) والشيخ عبد الرحمن الجبرتى المتوفى سـنة ١٢٤٠هـ (١٨٢٥م) (٢) والشيخ حسن العطار المتوفى سـنة ١٢٥٠ هـ (١٨٣٤م) (٣)

ولقد ظل الشعر فى مصر على هذه الحال دهراً الى أن كان عصرُ اسماعيل فتأثر ، بقدر ما ، فى صياغته ونسجه ، وفى أغراضه ومعانيه بالرجوع الى الآداب القديمة

---

(١) قال السيد اسماعيل الخشاب متغزلا :

يا شقيق البدر نوراً وسـنا ... وأخا الغُصن اذا ما انعطفا
بأبى منك جبيناً مشرقاً ... لو بدا للنـيّرين انكسفا
بغيتى منك رضاب ورضا ... وعلى الدنيا ومن فيها العفا

(٢) قال يصف بركة الفيل :

انظر الى بركة الفيل التى نحرت ... لها الغزالة نحراً من مطالعها
وخلّ طرفـك محفوفاً ببهجتها ... تهـيـم وجداً وحباً فى بدائعها

(٣) قال يصف بركة الأزبكية :

بالأزبكيـة طابت لى مسرّات ... ولذ لى من بديع الأنس أوقات
حيث المياه بها والفُلك سابحة ... كأنها الزُّهر تحويها السماوات
وقد أدير بهـا دور مشـيدة ... كأنها لبـدور الحسن هالات
والمـاء حين سرى رَطب النسيم به ... وحلّ فيه من الأدواح زهرات
كسابغـات دروع فوقها نقـط ... من فضة واحمرار الورد طعنات

من جهة . ودخول العلوم الحديثة من جهة أخرى . وكان من الشعراء المصريين فى ذلك الحين الشيخ على أبو النصر المتوفى سنة ١٢٩٨ هـ (١٨٨٠م) [١] وعبد الله باشا فكرى المتوفى سنة١٣٠٧هـ (١٨٨٩م) [٢] والشيخ على الليثى المتوفى سنة ١٣١٣هـ (١٨٩٦م) .

وقد طفر الشعر طفرة عظيمة على لسان محمود باشا سامى البارودى فهو الذى رد الشعر العربى الى أزكى أيامــه ، حتى شاكل الشريف الرضى فى جزالة الشعر ومتانة النسج وقوة الـكلام ، ولم يتخلف عن متقدمى الشعراء فى شىء من مطالب الشعر، فلقد تغزل كما تغزلوا ،ووصف كما وصفوا ، ووقف بالديار ،وبكى النُّؤَى

(١) قال متغزلا :

أمرت بمـرهَف الألحاظ قلباً أبى من أن يميـل الى سواكا

بروحى أفتديك ومن لصبّ بعَيْنَى كل جارحـة يراكا

هـواك بمهجتى لو أنكرته هتكت بدمعى الجارى هواكا

محـال أن أعيش بغير سـقم متى أحرمت أجفانى لقاكا

وقال مادحاً :

أصاخت الخيل آذاناً لصرخته واهتز كل هزبر عند ما عطسا

تعشق الدرع مذ شـدّت لفائفه وأبغض المهد لما أبصر الفرسا

تعلم الركض أيام المخاض به فما امتطى الخيل الاوهو قد فرسا

(٢) قال فى استعطاف المغفور له توفيق باشا :

كتابى تَوَجّه وجهة الساحة الكبرى وكَـبِّر اذا وافيت واجتنب الكبرا

وقف خاضعاً واسـتوهب الاذن والتمس قبولا وقَبِّـل سُـدَّة الباب لى عشرا

وبلغ لدى البـاب الخـديوىّ حاجة لذى أمل يرجو له البشر والبشرى

لدى باب سَمْـح الراحتيـن مؤمّل صَـفُوح عن الزلّات يلتمس العـذرا

مليـكى ومولاى العزيز وسـيدى ومن أرتجى آلاء معـروفه العُـمرا

لئن كان أقوام علىّ تقولوا بأمر فقـد جاءوا بما زوروا نُكرا

حلفت بما بين الحطيم وزمزم وبالبـاب والمـيزاب والكعبة الغرا

لما كان لى فى الشر باعٌ ولا يدٌ ولا كنت من يبـغى مدى عمـره الشرا

والأحجار ، ومدح كما مدحوا ، ولكن فى قصد وانصاف ، وهجا كما هجوا ولكن فى غير إفحاش ولا إسراف ، وعاتب الاخوان ولكن فى غير قلة ، وشكا الزمان ولكن فى غير ذلة . على أنه قد أربى عليهم بما جال فى فنون المعانى التى تجلت بها الحضارة الجديدة ، وما وصف من مخترعات أخرجها العلم الحديث .

والعجيب أن طبيعة العصر الذى نشأ فيه البارودى والبيئة التى نجم فيها ونوع التعليم الذى قُدّر أن يؤخذ به ، لم يكن من شأنها أن تطبع مثله على كل هذا البيان ! ولكنها الموهبة الالهية التى يختص بها الله من يشاء من عباده .

وإذا كان هناك أثر للجهد فى شاعرية البارودى فمِنْ حِفْظه لشعر المتقدمين وتقليب نظره فى دواوين فحول شعرائهم من أمثال أبى نواس وأبى تمام والبحترى والشريف الرضى والمتنبى بدليل معارضته لكثير من قصائدهم واختياره الجيد من شعرهم فى كتاب ممتع يتألف من أربعة أجزاء . وكان أكبر معوان له على طلب دواوين السابقين من الشعراء وتحرى صحة العبارة أستاذه وصديقه الشيخ حسين المرصفى الذى سبقت الاشارة اليه .

وللبارودى فى هذا الباب مزيتان لا يحصيهما التاريخ لكثير من رجال التاريخ ، أولاهما : أنه انفرد من بين الشعراء فى مصر بهذه القوة زمانا طويلا غير مشارَك ولا مدافَع . والثانية : أنه على إكثاره وضربه فى كل فنون الكلام ، كان أكثر شعره جيدًا [1]

---

(١) قال البارودى يصف الحرب :

ولما تداعى القوم واشتبك القنا ... ودارت كما تهوى على قطبها الحرب

وزين للناس الفرار من الردى ... وماجت صدور الخيل والتهب الضرب

ودارت بنا الأرض الفضاء كأننا ... سقينا بكأس لا يفيق لها شرب

صبرت لها حتى تجلت سماؤها ... وانى صبور ان ألم بى الخطب

وقال متغزلا :

غلب الوجد عليه فبكى ... وتولى الصبر عنه فشكا

وتمنى نظرة يشفى بها ... علة الشوق فكانت مَهْلَكا

يا لها من نظرة ما قاربت ... مهبط الحكمة حتى انْهَكا

نظرة ضم عليها هدبه ... ثم أغراها فكانت شَرَكا

غرست فى القلب منى حبه ... وسقته أدمعى حتى زكا

وسطع فى هذا الأفق نجم جديد هو اسماعيل صبرى باشا ، وكان شاعرا مقلا ، كالطائر الغَرِد ، لا يشدو الا اذا أثار شجاه مطلع القمر ، أو حرك جواه عبير الزهر . وقد امتاز بظاهرتين : الاقلال ، ورقة الكلام ، حتى لتحس أن شعره يسيل رقة و يفيض حنانا ، على أنه لم يكن على كل هذه الرقة وكل هـذا الحنان ضـعيف النسج ولا سقيم العبارة ، بل كان متين الرصف منسجم القول .

نعم ، لم يكن لصبرى طول قصائد البارودى ولا فحولة شعره ولا جزالة لفظه ، وذلك لأنه لم يخض ما خاض البارودى من معامع ، ولم يلق ما لقى من أهوال ولا كان به أن يعرض لشىء من هذا ؛ بل ان كل ما به أن يتنفث بما يعتلج فى صدره من نحو عاطفة حب و إعجاب وحرقة جوًى وطلب غفران [١]

و يلحق بهذين الشاعرين من غير نزاع حفنى ناصف بك الذى تقدم عليه الكلام [٢] .

---

(١) قال اسماعيل صبرى باشا فى الغزل :

أقْصر فؤادى فما الذكرى بنافعة ... ولا بشافعة فى رد ما كانا
سلا الفؤاد الذى شاطرته زمنا ... حمل الصبابة فأخفق وحدك الآنا
هلا أخذت لهـذا اليوم أهبتـه ... من قبل أن تصبح الأشواق أشجانا
لهفى عليك قضيت العمـر مقتحما ... فى الوصل ناراً وفى الهجران نيرانا

وقال فى التصوف :

يا رب أين تُرَى تقام جهنم ... للظالمين [illegible] غـداً وللفجـار
لم يُبْق عفوك فى السموات العـلا ... والأرض شـبراً خـالياً للنـار
يا رب هيئنى لفضلك واكفنى ... شطط العقول وفتنـة الأفكار
ومُر الوجود يشف عنك لكى أرى ... غضب اللطيف ورحمة الجبـار
يا عالم الأسرار حسبى محنـةً ... علمى بأنك عـالم الأسرار
أخلق برحمتك التى تسع الورى ... ألّا تضيـق بأعظم الأوزار

(٢) من قوله رحمه الله :

أتقضى معى ، ان حان حَيْنى تجاربى ... وما نلتها الا بطول عَنَائى
وأبذل جهدى فى اكتساب معارف ... ويفنى الذى حصّلتـه بفنائى
و يحزُننى ألّا أرى لىَ حيـلةً ... لاعطائها من يسـتحق عطائى
اذا ورّث الجهال أبناءهم غنى ... وجاهاً فما أشقى بنى العلماء

وإذا كان الشعر قد ظل فى الجملة ، ضعيفاً الى قيام البارودى ، فانه بنشر كتب الأدب ودواوين السابقين من الشعراء ، وظهور شعر البارودى نفسه قد جعل يقوى ويشتد فى بعض أغراضه وسمو معانيه ، وجزالة لفظه ، ومتانة صياغته ، وتلاحم نسجه . ولكنه لم يتأثر بالثقافة الغربيـــة تأثر النثر وظل ، فى جملته ، محافظا على نهج الأدب القديم .

الخطابة وأنواعها

لم تكن فى مصر فى مستهل ذلك العصر (الحملة الفرنسية) والعصر الذى قبـله خطابة ولا خطباء ، اللهـم إلا خطبة الجمعة والعيدين يسلخها أئمة المساجد من مدونات وُضعت فيها سلخًا ، وقلّ منهم من كان يضعها بنفسه . وأكثرهم كان يتلوها فى الورق تلاوة . وأقلهم من كان يحفظها ، وهى على كل حال خطب دينية تجمع بين حمد الله تعالى وتسبيحه وتفرده بالألوهية والشهادة برسالة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، والحض على طلب نعيم الجنة والفرار من عذاب النار بطاعة الله تعالى وتجنب ما نهى عنه من المناكر والمآثم . فان كان لهذه الخطب روعة فمن الدين وحده ، وخضوع الناس له وتشوقهم إلى ثواب الله وخوفهم من عقابه لا من قوة الكلام ولا من براعة الالقاء .

والواقع أنه لم يكن هناك محل لغير هذا النوع من الخطابة ، فان الألسن فى ذلك الوقت كانت معقولة بسوء الحكم ، والاسراف فى القهر والظلم حتى لم يكن يستطيع الصديق أن يناجى صديقه ولو فى كسر داره فيما يتصل بالأسباب العامة إلا وهو خائف يترقب . هذا إلى أن الخطابة السياسية إنما تنضج وتؤتى كل ثمارها فى الثورات وما إليها من الرجّات القومية والمذهبية . وذلك لأن الغرض منها تحريك السواد ، وهو لا يُطلب عادة إلا فى مثل هذه الأحوال .

ولهذا لم تعرف الخطابة السياسية فى مصر من أدهار طويلة إلا فى الثورة العرابية . وكان من حاملى لوائها السيد عبد الله نديم ، والشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول باشا .

ولقد فترت الخطابة وهان شأنها بعد إذ أخمدت هذه الثورة فى مصر ، على أن هذا الفتور لم يطل كثيراً حتى عاد شباب من المصريين يهتمون بموقفهم القومى فكانوا يجتمعون فى الأندية الشبيهة بالعامة فالأندية العامة يخطب فيها بعضهم بعضاً بما يحضر كلا منهم من عبارات تنضح بمعانى الحرية ، والوطنية .

وكان أخطب خطباء هذا العصر من غير نزاع مصطفى كامل باشا المتوفى سنة ١٣٢٦ ﻫ (١٩٠٨ م) ، طلاقة لسان، وتدفق بيان، وثبات جنان، وجهارة صوت ، وعذوبة نبرة ، وجمال وقفة .

ثم فترت الخطابة بفتور الشعور الوطنى إلى أن عقدت الجمعية التشريعية فكانت مجالا للخطباء حتى إذا فارت فورة المصريين فى مطلع سنة ١٩١٩ م وثبت الخطابة وثبة عظيمة ، وقام الخطباء فى كل مكان وعلى رأسهم سعد زغلول باشا ، وكان خطيباً بأجمع معانى الكلمة ، غير مدافَع عن مكان الصدارة فى الخطابة ولا منازَع . ولقد ظل بعد ذلك يخطب الخطب السوابغ فى البرلمان وفى غير البرلمان حتى توفى سنة ١٣٤٥ ﻫ (١٩٢٧ م) .

الخطابة القضائية والاجتماعية

هناك نوعان آخران من الخطابة غير الخطابة الدينية والسياسية اللتين سبق الكلام عليهما وهما الخطابة القضائية والاجتماعية .

ونعنى بالخطابة القضائية الخطابة فى المحاكم من المحامين ورجال النيابة وهى — كذلك مجال لاظهار البراعة ، وتمتاز بأنها تعتمد على المنطق والقانون والبراهين العقلية ، وقد كان لانتشار المحاكم الأهلية فى مصر أثر عظيم فى رقى هذا النوع من الخطابة . ومن أشهر من نبغ فيه من رجال القضاء أحمد فتحى زغلول باشا ومحمد توفيق سعودى بك وعبد الخالق ثروت باشا ومن رجال المحاماة نقولا توما بك والسيد أحمد الحسينى بك وأحمد لطفى بك .

أما الخطب الاجتماعية فنعنى بها الخطب التى تقال فى المشاكل الاجتماعية والاقتصادية قصداً إلى حلها وإصلاح فاسدها ، ومن أشهر من شهروا بها السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده وأحمد فتحى زغلول باشا .

النـــثر

تطور النثر

إلى مقدم الحملة الفرنسية كان أبلغ همّ النثر الفنى — مهما كان الغرض الذى يعقد له الكلام — مصروفا إلى تزيين العبارة بكل ما تهيأ للكاتب من المحسنات البديعية ، ملتزمًا فيها السجع فى كل حال . و بحسبه أن يتم له هذا القدر من الصناعة فلا يعنيه ما يجره هذا التكلف من سُخف فى المعانى وضعف فى نسج الألفاظ . والعلة فى هذا أنه فى ذلك العهد كانت قد نضبت المادة العلمية التى تفتُق العقل ، وتفسح فى المدارك ، وتجلى على النفس صورة صحيحة لما يجرى فى الحياة . يضاف الى ذلك أن المادة الأدبيــة فى ذلك العصر قد تسربت اليه من العصر الذى قبله مباشرة فكان يهتم بالبديعيات وأصحاب البديعيات أيما اهتمام .

ولقد ظلت للسجع المنزلة الأولى إلى أواسط حكم اسماعيل ، حتى لقد كانت الأوامر الرسمية ، والمنشورات الدورية يلتزم فيها السجع بقدر ما يبلغه جهد الكتّاب . فلما بعثت معاجم اللغة وكتب الأدب القديمة بالطبع وباهتمام بعض المتأدبين بها ومراجعتهم لها أخذ النثر يدخل فى طور جديد . على أن لهذا التطور عناصر أخرى اجتمعت مع إحياء الأدب القديم . أهمها تأثر النثر بالأدب الغربى .

تأثر النثر بالأدب الغربى

و إذا كان النثر قد تأثر إلى حد بعيد باحياء الأدب العربى القديم ، فلقد تأثر كذلك بالأدب الغربى إلى مدى غير قصير . ولقد تعلم أننا تلقينا حضارتنا القائمة عن أوربا بمن جىء بهم الينا من أساتذتها و بمن وفدوا إلى بلادها من طلابنا .

نعم ، لقد كانت العناية فى هذا الباب مصروفة أولا إلى درس العلوم والفنون للقيام بالحاجات المادية لهذه البلاد الناشئة ، فلما أدركت مصر من هذا حظا يقوم بعض القيام بسد هذه الحاجات جعلت تتجه إلى وسائل الحضارة من الجهة الأدبية أيضا ، فأقبل القليل فى عهد اسمـاعيل ممن تعلموا لغات الغرب على دراسة آدابه فى مختلف أنواعها ، كما ترجم إلى العربية كثير من كتبها فى الأبواب المختلفة ، فكان لهذا أثر فى الأدب العربى عامة وفى النثر الفنى خاصة .

على أن الاقبال على درس الأدب الغربى جعل يشتد على الزمن ، حتى تجرد له عدد غير قليل من المصريين يطلبونه بباعث من أنفسهم ، أو بتدريسه لهم فى المعاهد المصرية ، أو بايفاد الحكومة لهم إلى بلاد الغرب فى طلبه . وكلما قويت هذه الحركة ازداد تأثر النثر الفنى بالأدب الغربى حتى بلغ ما بلغ اليوم .

وكانت أكبر مظاهر هذا التأثر : (١) أن دخلت على العربية صيغ جديدة وتعبيرات لم تؤلف من قبل ، وذلك إما لاصابة المعانى الطريفة وإما بحكم تأثر الكاتب بالأسلوب الأجنبىّ وخاصة إذا لم يكن وافر المحصول من فقه العربية ، مطبوع الملكة على أساليبها ، (٢) جعل المقام الأول للمعنى لا للفظ ، (٣) الاقتصار منه على ما يؤدى المعنى و يصيب الغرض المقسوم ، (٤) تناول الموضوعات والأشخاص بألوان من التحليل لم تكن معروفة من قبل ، (٥) تطور طرق النقد الأدبى واتساع دائرته فى ضبط ودقة واحسان .

أنواع النثر

النثر الاجتماعى

وهو الذى يطلب به تقرير حالة اجتماعية ، أو محاولة اصلاح ناحية من نواحى الحياة العامّة .

ومن أعرف من عرفوا من كتابنا الاجتماعيين : الشيخ محمد عبده وقاسم بك أمين المتوفى سنة ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م) واحمد فتحى زغلول باشا والدكتور يعقوب صروف المتوفى سنة ١٣٤٥ هـ (١٩٢٧ م) .

نثر الصحف

أما نثر الصحف فأول شروطه تعمد السهولة فى اللفظ وعدم التعمق فى المعانى ، لأن الصحف إنما تخاطب الجماهير أولا ، فاذا هى ارتفعت عن أفهامهم ، وجاءت بالغريب عنهم لم يتحقق الغرض المطلوب بها . وانك لترى أن لغة « المجلات » العلمية والأدبية أجزل وأرصن من لغة الصحف غالبا ، كما أن معانيها أعلى ومنطقها

أدق وأوفى . وذلك لأن تلك « المجلات » انما تخرج للخاصة ومن يلونهم من أوساط المتعلمين ، أما الصحف السياسية فانها تخرج للجمهور كله ، فكان حقًا عليها أن تخاطبهم على قدرهم . هذا إلى أن الصحفى الذى يصدر الصحيفة كل يوم مثلا ليس لديه متسع من الوقت لتزيين الكلام والتأنق فيه ، واذ كاء الذهن فى الغوص على فرائد المعانى ؛ فهو فى ذلك على العكس من الكاتب فى « المجلة » الشهرية أو الأسبوعية .

وهذا النوع من النثر قد بدأ كذلك فى ضعف اللغة ضعيفًا ركيكا فما زال يتدرج فى رقيه برقى الأدب العربىّ حتى بلغ هذا الموضع الذى تراه فى صحف اليوم .

ومن أقدر من عرفوا من كتّاب الصحف من أول نهوضها فى عصر اسماعيل :

(١) أديب اسحاق المتوفى سنة ١٣٠٣ ﻫ (١٨٩٢ م) وكان شاعرًا أديبًا تولى الانشاء الصحفى فى جريدته (مصر) فى عهد الخديو اسماعيل فكان له فى الصحافة يومئذ شأن مذكور بتقدم أسلوبه ولطف استشهاده .

(٢ — ٣) سليم تقلا المتوفى سنة ١٣١٠ ﻫ (١٨٩٢ م) و بشاره تقلا باشا المتوفى سنة ١٣١٩ ﻫ (١٩٠١ م) وكان كلاهما متلاقو يًا للانشاء الصحفى فى ذلك العصر بالتمهيد للأغراض بالمقدمات الفلسفية الطو يلة والسخاء فى الاستشهاد بما يحضر الكاتب من شعر العرب ، والمأثور عن كبار الرجال فى العالم . وكان كلاهما واضح العبارة سهل الاداء .

(٤) مصطفى كامل باشا وقد تقدم لك أنه كان أخطب خطباء عصره ، وقد نضحت ملكة الخطابة على قلمه ، فكانت عبارته سهلة ، وكانت تأخذ بألباب الجمهور بما فيها من نظم خطابى يرسله فى شدة وحماسة ، حتى سن فى مصر أسلوبا انشائيًا مميزًا من سائر الأساليب .

(٥) الشيخ على يوسف المتوفى سنة ١٣٣١ ﻫ (١٩١٣م) وهو وإن لم يكن يعرف شيئًا من اللغات الأجنبية ، ولا خرج من تعلمه ومطالعاته بقسط كبير من العلوم الحديثة ، فقد استغنى بشدة نفسه وقوة ذكائه عن كثير . ولقد عاش طول

حياته الصحفية رجل كفاح ، وكان له من قوة البديهة وحضور الحجة وسطوة القلم ما عز على كثير ممـــن عاصروه من صفوة الكاتبـــين ، وله كذلك أسلوب إنشائى يعرف من بين سائر الأساليب .

النثر الفنى

النثر الفنى ، هو أقـــدم أنواع النثر ، لأن عهد العرب بالصحافة جديد ، كما أنهم لم يعالجوا البحوث الاجتماعية الا فى العصور الأخيرة .

والنثر الفنى يحتاج إلى خلال : منها تحصيل قـــدر صالح من مفردات اللغة واطلاع على بلاغات العرب والسابقـــين من أهل البيان فى أشعارهم وخطبهم ، ورسائلهم وكتبهم . ومنها ســـعة الخيال والتفطن إلى ما ينطوى عليـــه الكلام من نوادر الأدب واسرار البيان ، ومنهـــا أخذ النفس بادراك ما فى العلم من جمـــال . ولقد كان النثر الفنى فى صدر هذا العصر الذى نتحدث عنه ضـــعيفًا ، كما كانت أغراضـــه مقصورة على كتب المودَّات ورسائل التهنئات والتعزيات ، وشىء من الوصف ونحو ذلك .وكان ممن أخذوا منه بحظ الشيخ عبد الرحمن الجبرتى والشيخ حسن العطار .

وظل هذا النوع من النثر كذلك حتى كان عصر اسمـــاعيل فجعل يعلو وينسجم بمـــا ذكرنا من أسباب . ثم أخذ يرقى حتى بلغ المنزلة التى نراها اليوم .

ومن أعرف مـــن عرفوا من النُّثَّار الأدبيين من عهد اسمـــاعيل إلى الآن "ممن قُبضوا الى رحمة الله": عبد الله باشا فكرى[1] والشيخ حسين المرصفى والشيخ

---

(١) أمثلة من النثر فى ذلك العصر :

كتب عبد الله باشا فكرى المتوفى سنة ١٣٠٧ هـ ، وهو بالاستانة فى يوم برد كثير الأمطار .

كتبت اليك والأمطار ساجمة بطلها ووبلها ، وعساكر البرد هاجمة بخيلها ورجلها ، والسماء متلفعة أذيال السحاب ، وكأن الشمس خافت من الطل فوارت بالحجاب ، والجو مسكى الرداء ، عنبرى الأرجاء ، كأنه وعليه ثوب الغيم مزرور ، قد وجل من صولة البرد فلبس فروة السمور ، والغمام على الأفق بكلا كلهوقد هز من البرق بيض مناصله ، ونشر فى الجو طرائف مطارفه ، وجاد على الأرض بتليده وطارفه ، وثقل على ═

على الليثى والشيخ محمد عبـده وابراهيم بك المويلحى وابراهيم بك اللقانى والشيخ ابراهيم اليازجى والشيخ أحمد مفتاح والشيخ عبدالكريم سلمان وحفنى بك ناصف والسيد مصطفى لطفى المنفلوطى .

= كاهل الهواء كالطير بلّ جناحه بالماء ، وقربُ حتى كاد يمسك باليدين ، ويعتصر بالراحتين ؛ والبرق كأنه مرآة مذهبة تبدو وتَخْفَى ، أو جذوة ملتهبة توقد وتُطفأ ، والرعد يهدد بزَواجر زماجره السحائب فيبكيها ، والطير يتلو سطور الندى فى طروس الثرى فيمليها ، و يُطرب بأفنان الألحان أفنان البان فيُعليها و يثنيها ، و يقرأ على رءوس الأغصان أوراده الحسان فيقربها ويرقيها ، وقوسُ السماء يَرمى بسهام وبْله جنوب الشقائق فيصميها ويدميها ، والريح تمسح أخلافَ الغمائم فتمرّيها ، وترضع بدرِّها بنـات النبات فى حجور أراضيها فترُبيها ، وترضّع بدُرِّها تيجـان القضـبان لتجعله عقودًا فى تراقيها أو دموعًا فى أماقيها . وكأن الخرّخاف من بنادق البرَد ومدافع الرعد نفر الى مصر ونواحيها ، وأصبح نزيل من فيها لكرم أهليها ، وكأن غيرها بخلت عليه فلم تقبله عندها ضيفًا ، أو غلط الناس فى حساب الفصول فظنوا شتاها صيفًا .

وكتب الشيخ محمد عبده فى وصف نهج البلاغة :

أوفى لى حكم القدر بالاطلاع على كتاب نهج البلاغة صدفة بلا تعمل . أصبته على تغير حال وتبلبل بال ، وتزاحم أشغال ، وعطلة من أعمال ، فحسبته تسلية ، وحيلة التخلية ، فتصفحت بعض صفحاته ، وتأملت جملا من عباراته ، من مواضع مختلفات ، ومواضيع متفرقات ، وكان يخيل لى فى كل مقام أن حروبا شبت ، وغارات شنت ، وأن للبلاغة دولة وللفصاحة صولة ، وأن للأوهام عرامة . ...

فـا أنا الا والحق منتصر ، والباطل منكسر ، ومرج الشك فى خمود ، وهرج الريب فى ركود ، وأن مدبر تلك الدولة وباسل تلك الصولة ، هو حامل لوائها الغالب ، أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، بل كنت كلما انتقلت من موضع الى موضع أحس بتغير المشاهد ، وتحول المعـاهد ، فتارة كنت أجدنى فى عالم يعمره من المعانى أرواح عالية ، فى حلل من العبارات الزاهيـة ، تطوف على النفوس الزاكية ، وتدنو من القلوب الصافية .

وكتب المرحوم حفنى بك ناصف الى سمـاحة السيد توفيق البكرى :

كتابى الى السيد السند ولا أجشمه الجواب عنه فذلك مالا أنتظره منه ، وانمـا أسأله أن ينشط الى قراءته ، ويتنزل الى مطالعته ، وله الرأى بعد ذلك أن يحاسب نفسه أو يزكيها ، ويحكم عليها أولها .

فقد تنفع الذكرى اذا كان هجرهم دلالا فأما إن مـلالا فلا نفعا =

زرت السيد و يعلم الله أن شوقى الى لقائه ، كحرصى على بقائه ، وكانى بشهوده كشغفى بوجوده ، فقد بعدُ والله عهدُ هذا التلاق ، وطال أمد الفراق ، وتصرم الزمان ، وأنا من رؤيته فى حرمان ، فسألت عنه فقيل لى انه خرج لتشييع زائر ، وهو عما قليل حاضر ، فانتظرت رجوعه ، وترقبت طلوعه ، ولم أزل أعدُّ الحظات وأستطيل الأوقات ، حتى بزغت الأنوار ، وارتج صحن الدار ، وظهر الاستبشار على وجوه الزوار ، وجاء السيد فى مركبه ، وجلالة محتده ومنصبه ، فقمنا لاستقباله ، وهيمنا بكماله ، فمرّ يتعرف وجوه القوم حتى حاذانى ، وكبُر على عينيه أن يرانى ، فغادرنى ومن على يسارى ، وأخذ فى السلام على جارى ، وجر السلام الكلام ، وتكرر القعود والقيام ، وأنا فى هذه الحال أوهم جارى انى فى دارى وأظهرُ للناس أن شدة الألفة تُسقط الكلفة ، ومرَّ السيد بعد ذلك من أمامى ثلاث مرات ومن الغريب أنه لم يستدرك مافات ...

تمرّون الدّيار ولم تعوجوا كلامكمُ علىّ اذاً حرام

وكنت أظن مكانتى عند السيد لاتنكر ، وأن عهدى لديه لايخفر ، فاذا أنا لست فى العير ولا فى النفير ، وغيرى عند السيد كثير ، وذهاب صاحب أو أكثر عليه يسير ...

ومن مدَّت العليا اليه يمينها فأكبر انسان لديه صغير

ولا أدعى أنى أوازى السيد صانه الله فى علو حسبه أو أدانيه فى علمه وأدبه ، أو أقاربه فى مناصبه ورتبه ، أو أكاثره فى فضته وذهبه ، وانما أقول ينبغى للسيد أن يميز بين من يزوره للسلام ، وتأييد جامعة الاسلام ، وأن يفرق بين من يتردد عليه استخلاصا للخلاص ، ومن يتردد اجابة لدعوة الاخلاص ، وأن لا يشتبه عليه طلاب الفوائد بطلاب العوائد ، وقناص الشوارد ، بنقباء الموالد ، ورواد الطُّرَف ، بأرباب الحرَف .

فما كل من لاقيت صاحب حاجة ولا كل من قابلت سائلكَ العُرْفَا

فان حَسُنَ عند السيد أن يغضى عن بعض الأجناس ، فلا يحسن أن يغضى عن جميع الناس ، والا فلماذا يطوف على بعض الضيوف ، و يحييهم بصنوف من المعروف ......

ولا أروم بحمد الله منزلة غيرى أحقُّ بها منى اذا راما

وانما أصون نفسى عن المهانة والضعة ، ولا أعرضها للضيق وفى الدنيا سعة

وأكرم نفسى إننى إن أهنتُها وحقك لم تكرم على أحد بعدى

فلا يُصعّر السيد من خده ، فقد رضيت بما ألزمنى من بُعده ، ولا يَغضُّ من عينه ، فهذا فراقُ بينى و بينه ، وليتّخذنى صاحبا من بعيد ، ولا يكلمنى الا يوم الوعيد .

كلانا غنى عن أخيه حياته ونحن اذا متنا أشد تغانيا =

ومنى على السيد السـلام على الدوام . ومبارك اذا لبس جديدا ، وكل عام وهو بخـير اذا استقبل عيدا ، ومرحى إذا أصاب ، وشيّعته السلامة اذا غاب ، وقدوما مباركا اذا آب ، و بالرفاء والبنين اذا أعْرَس و بالطالع المسـعود اذا أنجب ، ورحمه الله اذا عطس ، ونوم العافية اذا نعس ، وصح نومه اذا استيقظ ، وهنيئا اذا شرب ، وماشاء الله اذا ركب ، ونَعِمَ صباحه اذا انفجر الفجر ، وسَعد مساؤه اذا أذّنَ العصر ، وبخ بخ اذا نثر ، ولا فُضَّ فوه اذا شعر وأجادَ وأفاد اذا خطب ، وأطرب وأغرب اذا كتب ، واذا حَجَّ البيت فحجًّا مبرورا ، واذا شيع جنازتى فسعيا مشكورا والسلام .

وكتب السيد مصطفى لطفى المنفلوطى المتوفى سنة ١٣٤٣ ﻫ (١٩٢٤ م) فى السعادة :

أَطْلُب السعادة فى الحقول والغابات ، والسهول والجبال ، والأغراس والأشجار والأوراق والأثمـار ، والبحيرات والأنهار ، وفى منظر الشمس طالعة وغاربة ، والسحب مجتمعة ومتفرقة ، والطير غادية ورائحة ، والنجوم ثابتة وسارية ، وأطلبها فى تعهد حديقتك ، وتخطيط جداولها ، وغرس أغراسها ، وتشذيب أشجارها وتنسيق أزهارها ، وفى وقوفك على ضفاف الأنهار ، وصعودك الى قمم الجبال ، وانحدارك الى بطون الأودية والوهاد ، وفى اصغائك فى سكون الليل وهدوءه الى خرير المياه ، وصفير الرياح ، وحفيف الأوراق ، وصرير الجنادب ، ونقيق الضفادع ، وأطلبها فى مودة الاخوان ، وصداقة الأصدقاء ، واسداء المعروف ، وتفريج كربة المكروب ، والأخذ بيد البائس المنكوب ، فنى كل منظر من هذه المناظر ، أو موقف من هذه المواقف ، جمـال شريف طاهر يستوقف النظر ، ويستلهى الفكر ويستغرق الشعور ، ويحيى ميت النفس والوجدان ، ويملأ فضاء الحياة هناء ورغدا .

المطبعة الأميرية ١٠٩١٣ - ١٩٢٩ - ١٤٠٠٠

